حَمَل نفسَه ورَحَل

عاطف عطيّه

حَمَل نفسَه ورَحَل

رواية

جرّوس برس ناشرون
Jarrous Press Publishers

الكتاب: حَمَل نفسَه ورَحَل

الكاتب: عاطف عطيّه

الموضوع: رواية

القياس: 22×15

الصفحات: 220

© جرّوس برّس ناشرون

Jarrous Press Puplishers

© الطبعة الأولى 2021، جروس برس ناشرون

جميع الحقوق محفوظة

شارع جميل عدرة، باسل سنتر

ص.ب. : 189، طرابلس، لبنان

تلفاكس: 208205 6 961+

jarrous.press@gmail.com

info@jarrouspress.com

www.jarrouspress.com

الإخراج الفني: وسام عطية

ISBN: 978-614-481-027-9

إلى الذين قطعوا تذاكر الرحيل، دون عودة..

ولكنهم باقون

1

إنّـه جـمال.. جـمال الأبـرص، هكـذا كان اسـمه، أو هكـذا كانـوا يسـمّونه، للـون وجهـه، وشـقار شـعره. عـاش في كنـف أمـه، وحيـداً، إلى أن جـاءت أختـه إلى هـذه الدنيـا، دون أب.. تركهـا في بطـن أمّهـا، وهاجـر.. والكلمـة الأصـح، هـجّ، هربـاً مـن الفاقـة والحرمـان، ومـن شـعوره بالتقصـير، تجـاه أسرتـه الصغـيره، وتجـاه أهلـه.. أحـد عـشر نفسـاً عليهـم أن يأكلـوا، ليسـتمرّوا في العيـش، ويناموا ليحسّـوا بالأمـان، وهـو بكـر العائلـة؛ البكـر الـذي عليـه أن يحـسّ بثقـل مسـؤوليّته عنهـم، وبعجـزه معـاً..

لم يعـرف جـمال كيـف هاجـر أبـوه، أبـو جـمال.. ولا مـن أين أتى بناولـون السـفر، ولا بـأيّ بلـد حـطّ. كل مـا كان يعرفـه أن العـالم حولـه، مـن صنـع أمّـه، إن كان في شـكل البيـت الـذي ورثتـه عـن أهلهـا، أو في الطعـام الـذي تناولـه، ويتناولـه، أو في الحركـة التـي تحرّكـه، داخـل البيـت، وفي باحتـه الصغـيرة الخارجيـة. كان يلقـى تلـك الطفلـة الصغـيرة ذات الأشـهر القليلـة، تـصرخ وتتحـرّك، دون أن يعـرف مـن أيـن أتـت، ولا كيـف.. هـذه المسـائل الصغـيرة، عرفهـا لوحـده، عندمـا تقدّمـت بـه الأيـام، وعـرف أنّ أبـاه غائـب، وهـذه أمّـه وأختـه الصغـيرة.. وعليـه أن يتدبّـر أمـره، كـما تدبّـرت أمّـه أمرهـا.

عـرف متأخّـراً، أنّ لـه أقـارب، أعـمام وعـمّات، وأبنـاء عـمّ وعـمّات. وأدرك أنّـه ليـس وحـده، مـع أمـه وأختـه، المزروعـين في هـذا العـالم. أمـا إحساسـه المبكـر، فـكان بمـدى الاهتـمام

الـذي تُبديـه أمّـه، تجاهـه، وملاحقـة عينيهـا لحركتـه في النهـار والليـل، قبـل أن تقاسـمه أختـه هـذا الاهتـمام، وتلـك الملاحقـة التـي لا تـكلّ.

كانـت الأمّ تقـوم بـكل مـا يلـزم، لتربيـة ولديهـا، قبـل أن يعـاودَ زوجُهـا، أبـو جـمال، الاتصـال بهـا، عـلى صعوبـة ذلـك الاتصـال، قبـل بدايـة الحـرب الكـبرى، حـرب «الأربعتعـش»، وقبـل أن يطمئنهـا بـأن الأحـوال تحسّـنت معـه، ولا تُشـغل نفسـها بمـا يمكـن أن يقـضّ مضجعهـا.

حـطّ أبـو جـمال في البرازيـل، وعمـل في تجـارة الأخشـاب، بعـد أن أمـضى ثـلاث سـنوات عامـلاً نشـيطاً، في مصنـع للمفروشـات. ولشـدّة نباهتـه، وقـوّة عزيمتـه، أنشـأ لنفسـه مصنعـاً صغـيراً، بمسـاعدةٍ مـن معلّمـه، وبدعـم مـن الزبائـن الذيـن أولـوه ثقتهـم، وتحـوّلِ بعضهـم إليـه زبائـنَ دائمـين، في بـدء نشـأته العمليـة. وفي غضـون سـنوات، بعـد انتهـاء الحـرب الأولى، امتـدّ نشـاطه التجـاري، ليشـمل ضـمانَ غابـةٍ مـن الأشـجار، ومـن ثـمّ غابـات. ومـا لبـث أن امتلـك قسـماً كبـيراً منهـا.. وصـار، مـن بعـد، تاجـرَ أخشـاب كبـيراً، يُحسـب لـه حسـاب، في مقاطعـة سـان باولـو البرازيليـة.

لم تعـرف أسرتـه في الضيعـة هـذه التفاصيـل، ولا أهلُـه.. كل مـا كانـوا يعرفونـه أن أحوالـه جيّـدة، ودليلهـم مـا وصـل، ويصـل، إليهـم مـن حـوالات نقديـة، كفَـت أسرتـه شرّ العـوز، ودعمـت أهلـه في تسـيير أمورهـم الصعبـة.

اشـتدّ سـاعد جـمال في ضيعتـه الصغـيرة. وكان عـلى الأم أن تدبّـر أمـوره.. رأت أنّ أفضـل مـا يمكـن فعلـه هـو التعلّـم. فعـلى جـمال أن يتعلّـم، ولـو كلّفهـا ذلـك كل مـا تملـك.

كيـف توجّهـت هـذا التوجـه؟ لا يعلـم جـمال، ولا هـو سـألها.. ولكنــه كان يــدرك أن عــذاب أمــه، ومشــقّتها دليــلان عــلى أهميــة مـا يقـوم بـه. كانــت توصلــه إلى المدرســة البعيــدة، ومـن ثـم تمـدّه بمـا يلـزم مـن الطعـام. تقطـع مسـافات طويلـة، كل يومـين أو ثلاثـة. دلائـل تفصـح عـما يعنيـه لهـا تحصيلـه العلمـي. أمـا اهتمامهـا هـذا، فـلا بـد مـن أن يكـون متأتّيـاً مـن توصيـة زوجهـا. لقـد عـرف أبـو جـمال أهميـة التعليـم، ودوره، في تنميـة البـشر والحجـر، بعـد أن خـبر ذلـك في بـلاد الغربـة.

مـا تعلّمـه جـمال في مدرسـة تقليديـة، تقـوم عـلى معلّـم يقـدّم مــا يعرفــه مــن ضروب العلــم، إن كان في القــراءة والكتابــة، والعمليـات الحسـابية، أو التمـرّس في معرفـة قـراءة آيـات مـن القـرآن، تماهيـاً مـع رفاقـه المسـلمين، لا يمكـن أن يكفـي ليشـقّ درب مسـتقبله بالثقـة اللازمـة. إلا أن هـذا مـا كان متاحـاً لـه.. ولا قـدرة لـه، ولا لأمّـه عـلى تغيـير المسـار.

أكمـل جـمال تمرّسـه في القـراءة والكتابـة والخـطّ، وأظهـرَ ذكاءه في حـل المعضـلات الحسـابية. أثبـت وجـوده أمـام معلّـم جديد، انضـم إلى الضيعـة وبـدأ يعلّـم أولادهـا، ومـن ضمنهـم جـمال، أصــول القــراءة والكتابــة والحســاب.. وهــو مــا كان جــمال يعرفـه.. فتعمّـق فيهـا. وبعدمـا رحـل المعلّـم، أوصى بـأن يكـون جـمال المعلّـم الجديـد في الضيعـة، لِـما توسّـم فيـه مـن خصـال

النباهـة وحـب المعرفـة.

لم تـرضَ أم جـمال بـأن ينتهـي وحيدُهـا معلـماً في مدرسـة الضيعـة، تحـت السـنديانة.. أو في غرفـة صغـيرة، يهـشّ بقضيـب الرمّـان عـلى أولاد صغـار. ولكـن مـا العمـل، وقـد انقطعـت معونـات الـزوج والأب مـع بـدء الحـرب..؟ لا مـال يدعـم، ولا داعـم يـوصي.. احتـارت وبرَمـت لتدبّـر أمـر وحيدهـا.. أمـر وحيدتهـا لا يهـمّ.. ستنشـأ برعايتهـا كـما نشـأت هـي.. كلـمات أبـو جـمال في أذنيهـا.. علّمـي الولـد. لا أريـده جاهـلاً، أو «يـا دوب يفـك الحـرف». إبننـا شـاطر، وعليـه أن يكمـل تعليمـه.. أنـا أتكفّـل بمصروفـه.. لا تدَعـي الهـمّ يشـغلك.

ولكـن كيـف؟؟ تُكلّـم نفسَـها أمّ جـمال، وأحيانـاً بصـوت مسـموع..

كان عليهـا أن تطلـب العـون مـن أسـلافها الكثيريـن.. ولكـن لا حيـاة لمـن تنـادي.. وهـم يـكادون يقـصّرون عـن تأمـين أوَد العيـش.. لا تعـرف كيـف تتـصرّف.. ذهبـت إلى المختـار.. وهـو متخَـم مـن كـثرة الشـكاوى، وجلّهـا يـدور حـول الجـوع، ومـا يمكـن أن يكـون الفعـلُ، مـن أجـل الاسـتمرار في العيـش..

- يـا أم جـمال الآن وقـت الانشـغال بابنـك، والنـاس يموتـون مـن الجـوع.. ولا نصـير؟؟ إتقـي اللـه، يـا أم جـمال..

أم جـمال تتّقـي اللـه.. ولكـن عليهـا أن تعمـل عـلى تدبـير شـأن ابنهـا ليتعلّـم.. لا تبغـي شـيئاً غـير ذلـك..

لم يبـقَ أمامهـا إلا سـلفها وهيـب، أخـو زوجهـا، المتفتّـح عـلى شـؤون الدنيـا، وصاحـب الصـولات والجـولات في المدينـة.. والأكـثر قربـاً مـن جـمال، عمـراً ورفقـة.. ربمـا باسـتطاعته مسـاعدتها، لإدخالـه مدرسـة معتـبَرة فيهـا، دون تكلفـة، إلى أن يفرجهـا اللـه.. وتفتـحَ طريـق البرازيـل..

لم يكـذّب وهيـب خـبراً، وهـو مـن أصدقـاء رجـل معـروف وصاحـب همّـة، أرثوذكـسي مؤمـن عـلى طريقتـه القريبـة مـن اللـه، والبعيـدة عـن ممارسـات تقليديـة وطقسـية، لا هـمّ لهـا سـوى الظهـور بمظهـر القـوة والفخامـة، في عـصر الطوائـف وحكـم المؤسسـة.. كان عليـه أن يطلـب مـن لطـف اللـه تدبـير أمـر جـمال، في مدرسـة بكفتـين العاليـة، ليكمـل دراسـته، عـلى الشـكل الـذي يوصلـه إلى أن يكـون صاحـب شـهادة، ومركـز مرمـوق.. والالتـماس الوحيـد، قبولـه مجانـاً، أو بموجـب منحـة، إلى أن يصـير المـال بمتنـاول الأيـدي، وأبـو جـمال مـن المغتربـين الذيـن يمكـن أن يعـوّل عليهـم.

يعـرف لطـف اللـه جيـداً أن وهيبـاً مـن مناصريـه الكبـار في حركتـه الثوريـة، ضـد سـطوة الكنيسـة وتقليديّتهـا، في تسـيير أمـور الرعيّـة، وتدبـير شـؤونها، عـلى الوجـه الـذي يعـلّي مـن شـأن رأسـها، مقابـل رؤوس الآخريـن، في دولـة الملـل والنِحـل.. والرعيّـة، كـما هـو متـداول، تربّـت عـلى مقولـة أطيعـوا أولي الأمـر منكـم، دون ذكـرِ إذا كان هـؤلاء جديريـن بالطاعـة.. ولا ينـسى موقفـه حـين اشـتدّ الـصراع بـين أنصـاره، وأنصـار المطران، عـلى أمـور خلافيـة، عندمـا احتـدم النقـاش داخـل الكنيسـة.

أنصـار الجمعيـة التـي يرأسـها لطـف اللـه، مقابـل المجلـس الملّي برعايـة المطـران. والـصراع كلّـه قـام للحـدّ مـن الاسـتئثار بالسـلطة عـلى الطائفـة. السـلطة التـي لا يقبـل المطـران أن يشـاركه فيهـا أحـد، وإن كانـت جمعيـة تُعنـى بشـؤون التعليـم، وإعـلاء شـأن الطائفـة.

تحـوّل النقـاش إلى العـراك بالأيـدي والعـصي، وكان وهيـب مجلّيـاً في ضرب العصـا.. طـرحَ ثلاثـة أرضـاً، مـع الدمـاء وآثـار الـضرب الظاهـرة، والمسـتترة..

لم يعـرف أحـد مـن أيـن جـاءت العصـا، ولا هـو أجـاب عـن السـؤال.. إلا للطـف اللـه عندمـا سـأله..

– يـا وهيـب، كـدت تبلينـا بعصـاك.. قـل لي كيـف أدخلتهـا إلى الكنيسـة، وتِـرم القـداس؟

– هـذه مـن حسـنات الـشروال يـا أسـتاذ.. أنتـم تخلّيتـم عنـه في المدينـة.

ضحـك لطـف اللـه مـلء شـدقيه، واعتـبر أن الأمـر مـرّ بسـلام، طالمـا لم تصـل الشـكوى إلى الحكومـة.. عـلى أمـور الطائفـة وخلافاتهـا أن تبقـى ضمنهـا.. وإلا شـملت الشـماتة الفريقـين، مـن أصحـاب الغايـات.

موقـف وهيـب هـذا، وإخلاصه في انتمائه إلى الكنيسـة المسـتقلة التـي أعلنهـا لطـف اللـه، بعـد العـراك المشـهور، دفعـاه إلى الطلـب منـه التوسّـط لـدى الجمعيـة الأرثوذكسـية، وهـو أحـد

أعضائها، ومن ثم رئيسها، لإلحاق جمال بالمدرسة. لم يهمل لطف الله الطلب. ونجح في ضم جمال إلى عداد طلابها، وفي قسمها الداخلي؛ القسم الذي يعني إراحة الأم من كل مستلزمات ابنها، إلا قلّة شوفته، والاطمئنان عليه في كل لحظة، من لحظات النهار والليل.

تعلّم جمال، وكان من المجلّين درساً، وحفظاً، وذكاء.. وأكثر ما تميّز به، تفنّنه في كتابة الخط العربي، وموهبته في الزخرفة.. إلى الدرجة التي تجعل من أي جملة يكتبها، لوحة فنية رائعة، وفي الجمال، آية.

صار جمال ملازماً لعمّه، في علاقته مع لطف الله.. وقد لفته ما يقوم به في مجال الاهتمام بالمدينة، وبأحوال الأرثوذكسيين فيها، مع العمل على ربط أواصرهم مع أهاليها، والتعاون على إتمام ما يمكن أن يوصل الخير، إلى المدينة وأهلها..

عمل لطف الله على إنشاء جريدة اجتماعية اقتصادية مستقلة في العشر الأول من القرن العشرين.. تصدر مرتين في الأسبوع، وتنشر التعليقات السياسية والمقالات الاجتماعية والاقتصادية، بمشاركة من وجوه معتبرة في المدينة.. وكانت منبراً لنشر أفكاره حول أهمية الدين، ودوره في تهذيب النفس، واعتماد البساطة في القول، والهمّة في العمل والتقشّف في الحياة. وكان لرأيه، حول وجوب استقلال البلاد السورية عن السلطنة العثمانية، ودسائس عيونها في المدينة، أن أُلقي القبضُ على لطف الله. وبالسرعة اللازمة،

حُكِـم عليـه بالنفـي إلى بـلاد الأناضـول.

راح لطـف اللـه، واشـتدّ أوار الحـرب، ومـن ثـم حطّـت أوزارهـا وانتهـت، وبـدأ عهـد دولـة لبنـان الكبـير. وكان عـلى جـمال أن يتدبّـر أمـوره، بعـد إغـلاق المدرسـة، ونفـي لطـف اللـه.. فعـاد ليقيـم في الضيعـة، ويعمـل عـلى مـا يكفـي أوَده، وأوَد أسرتـه الصغـيرة..

لم يغـب جـمال طويـلاً عـن أجـواء المدينـة. عـاد إليهـا، بعـودة لطـف اللـه، واسـتئنافه العمـل الصحـافي، ونشـاطه في الجمعيـة التـي يرأسـها. وكان أن عـاد إلى المدرسـة التـي أحـبّ، ليكمـل تعليمـه بعـد افتتاحهـا، بمنحـة سـخيّة، خالصـة التكاليـف، مـن أبي الفقـراء البطريـرك غريغوريـوس حـداد، وبإشـارة مـن لطـف اللـه.

حصـل جـمال عـلى الشـهادة التـي تخوّلـه ممارسـة التعليـم، عـلى الأصـول التـي كانـت متّبعـة، زمـن العثمانيـين، ومـع بدايـات الحكـم الفرنـسي، وانضـمام طرابلـس إلى دولـة لبنـان الكبـير.

شـفعت بجـمال خبرتُـه في التعليـم، واتقانـه التـام للعربيـة، وموهبتـه في فـن الخـط، وإلمامـه المقبـول بالفرنسـية، ليصـير مدرّسـاً ثابتـاً، حسـب النظـام الحديـث المعتمـد مـن الفرنسـيين، ولينـصرف إلى متابعـة هواياتـه، ومنهـا التعمّـق في فـن الخـط، ودراسـة طـبّ الأعشـاب، وملاحقـة بواريـد الصيـد، وتربيـة الـكلاب، لممارسـة الهوايـة الأقـرب إلى قلبـه.. وعـلى أصولهـا.

عـاش جـمال أيّامـه التاليـة بعـد الحـرب، عـلى مـا يحـبّ ويشـتهي.. تعليـم وممارسـة هوايـة الخـط، أكـثر أيـام الأسـبوع.. عـودة إلى الضيعـة مسـاء كل جمعـة، مـع تجشّـم مشـاق الطريـق، ونـدرة السـيارات، والاتـكال عـلى عربـات الخيـل، ومسـيرة سـاعة للوصـول إلى الضيعـة، ومـن ثـم العـودة منهـا، والوصـول إلى المدينـة، بالطريقـة نفسـها.. إلا أنّ هـذا كلّـه، أفصـحَ عـن امتلاكـه يومـين، يسـتطيع أن يقضيهـما في رحـلات الصيـد، والتنقّـل، مـع مـا يحقّقـه مـن النجـاح في معالجـة الموجوعـين، ورعايتهـم بمـا يلـزم.

رأى جـمال، وبإشـارة مـن عمّـه وهيـب، وعرفانـاً بجميـل لطـف اللـه، أن يلازمـه في حلّـه وترحالـه.. وأن يعمـل مـا بوسـعه لمرضاتـه، ليـس فقـط، تبـادلاً لمصلحـة تجمعهـما، بـل أيضـاً، للمحبّـة والاحـترام اللذيـن زرعهـما لطـف اللـه في قلـب جـمال. دفعـه ذلـك كلـه، ليتطـوّع في أي عمـل يخـصّ الجريـدة.. حـرّر بعـض الأخبـار، وكتـب المقـالات في بعـض الأمـور التـي تهـمّ المدينـة، وكان مـن أهمهـا.. نـشر التوعيـة في مـا تعنيـه الوطنيـة، والتأكيـد عـلى أهميـة الاسـتقلال، ووجـوب العمـل عـلى التآخـي والتعاضـد، ونبـذ الطائفيـة والعائليـة المعوّقتـين للوحـدة، والمفرّقتـين لقـوّة الشـعب، وتضامنـه.

مـع احتـدام المواجهـة بـين الجمعيـة، والمجلـس الملّي، خرجـت الخلافـات إلى العلـن، في طرابلـس الشـام. رفضـت الجمعيـة الانضـواء تحـت عبـاءة المطـران، وأعلنـت ولاءهـا المطلـق للبطريركيـة الأرثوذكسـية، في دمشـق.. ورفعـت اسـم البطريـرك

في الصلـوات.. باسـم الكنيسـة المسـتقلة. وكان مركـز صلواتهـا واحتفالاتهـا الدينيـة، مـن زواجـات ووفيـات، بيـت لطـف اللـه، في منطقـة الزهريـة. وكان جـمال أكـثر المتحمّسـين لهـذا الاسـتقلال، ليـس مـمالأة للطـف اللـه، باعتبـاره ملازمـاً لـه، ومرافقـاً، بـل لِـما كان يعانيـه مـع أهـل قريتـه، مـن إهـمال الكنيسـة لهـم، وحرمانهـم مـن أي شيء يمكن أن يسـاعدهم على مواجهـة حياتهـم الصعبـة.. وفـوق ذلـك، كان يرسـل المطـران كاهنـاً ليصـلّي فيهـم، مـرة واحـدة في الشـهر أو الشـهرين، في كنيسـة انبنـت بشـقّ الأنفـس عـلى مـدى خمسـة عـشر عامـاً، وعـلى الشـكل المعقـود المتـداول في تلـك الأيـام، وقـد كلّفـت مـوتَ إثنـين مـن أقـوى رجـال الضيعـة، وتعبـاً مضنيـاً. وكان الكاهـن يعـود بالقـروش القليلـة التـي تتجمّـع في قعـر صَينيّـة مـن القـش.

هـذا الواقـع المريـر، كان السـبب الرئيـس في انحيـاز جـمال إلى لطـف اللـه، بعـد تفضّلـه عليـه في إلحاقـه بالمدرسـة.. سـار عـلى خطـاه، في نظرتـه إلى الوطـن والديـن. وقـد رأى، كـما رأى لطـف اللـه قبـلُ، أن ثمـة فارقـاً شاسـعاً، بـين القـول، والممارسـة العمليـة، إن كان في السياسـة، أو في الديـن.. ولم يجـد أيٌّ منهـما، وكثـيرون غيرهـما يعملـون في الجريـدة، وفي غيرهـا، أنّ لا فـرقَ بـين ممارسـة السياسـيين لشـؤون السياسـة، وممارسـة رجـال الديـن لشـؤون الديـن.. وأيقنـوا أنّ كلاً مـن الفريقـين يعمـل لنـصرة توجّهـه، سياسـياً كان أو دينيـاً. هـذا يجمـع الأنصـار، وذاك يجمـع الأنصـار.. وكلاهـما باسـم طاعـة الزعيـم، أو وليّ الأمـر.. باسـم الاخـلاص والتفـاني، أو باسـم الإيمـان والتقـوى.

أيقـنَ جـمال أنّ هـذه الثنائيـة في التعاطـي في شـؤون الحيـاة اليوميـة، رسّـخت زعامـة السـياسي، ورجـل الديـن.. وعملـت وتعمـل عـلى زيـادة ترسـيخ كل منهـما، إلى الدرجـة التـي لم يبـقَ مـا يمكـن أن يُـصرف، للاهتـمام بشـؤون المدينـة وشـجونها، ولا في شـؤون رعاياهـا، مـن مختلـف الطوائـف.

كان ذلـك كلّـه، مـدار اهتـمام الجريـدة، والعاملـين فيهـا.. وهـذا مـا أوصـل لطـف اللـه، ليكـون وجهـاً بـارزاً مـن وجـوه المدينـة، وشـخصيّة عامـة، لهـا رأيهـا في كلّ مـا يحصـل، في الداخـل، ومـا يحصـل في جبـل لبنـان، وفي بـلاد الشـام، مـن ضمـن علاقتهـما بالسـلطنة العثمانيـة؛ الأول مـن خـلال نظـام خـاص، والثانيـة مـن خـلال انضمامهـا المبـاشر للسـلطنة. وكانـت دعوتـه صريحة للانضـمام إلى مملكـة سـوريّة عربيـة، بقيـادة الأمـير فيصـل. وقـد كان ذلـك كلّـه، سـبباً في اعتقـال لطـف اللـه ونفيـه، سـابقاً، والتهديـد بإعـادة الكـرّة، مـن قبـل سـلطات الانتـداب الفرنـسي، إمـا سـجناً أو نفيـاً..

كان مـن أهـمّ مـا فكّـر فيـه جـمال، في تلـك اللحظـات، أنّ تكريـس ولائـه للطـف اللـه، لا يمكـن أن يكتمـل، إلا بانضمامـه إلى الكنيسـة الأرثوذكسـية المسـتقلة، وبارتباطهـا المبـاشر بالبطريركيـة، في دمشـق، ورأسـها غريغوريـوس حـداد الـذي بـاع صليبـه لإطعـام الفقـراء، في أيـام الضيـق، وبالرغيـف الـذي لم يُكتـب عليـه أنـه للمسـيحيين فقـط.. بـل لـكل أبنـاء اللـه. وأقسـم عـلى أن لا يقـوم إكليلـه عـلى محبّـة، إلا تحـت رعايتهـا، وبكاهـن مـن كهنـة الكنيسـة المسـتقلة.

لم يـدم الأمـر طويـلاً، عـلى هـذه الحـال التـي يعيشـها جـمال، متنقّـلاً بـين ضيعتـه والمدينـة، لصعوبـة التنقـل، ولتعـثّر الدراسـة والتدريــس في مدرســة بكفتــين.. ولصعوبــة تأمــين مــا يقــوم بـأود معيشـته، ومعيشـة أهلـه مـن الجريـدة، أو مـن ملازمتـه لصاحبهـا.. فقـرّر العـودة إلى الضيعـة والعيـش فيهـا، مـع وعـد بعـدم قطـع العلاقـة الـودودة، مـع لطـف اللـه .. ومـع المدينـة.

2

لم يتقـن جـمال العمـل الزراعـي، ولا اشـتغل فيـه.. والضيعـة تعتمـد في معيشـتها عـلى الزراعـة، بمـا يكفـل اسـتمرار العيـش، في نمـط حيـاة يعتمـد عـلى المقايضـة، مـع نـدرة التعامـل في السـوق الحديـث، إلا بعـد أن صـار جـمال في منتصـف العشرين، مـن عمـره.. ولقـوّة نباهتـه، وقدرتـه عـلى الاسـتيعاب، تعلّـم في وقـت سريـع حرفـة الحلاقـة، فضمّهـا إلى مجمـل هواياتـه.. وأمدّتـه بمـا يسـاعد، وإن كان بالمقايضـة.. تبـادلٌ بـين قـص الشـعر وحلاقـة الذقـن، بمـا ينتجـه الفلاحـون، وعـلى قـدرٍ معلـوم.

صـار المعلـم جـمال، بالاضافـة إلى مدرسـته، وجـمال لوحاتـه، ولنظرتـه الطبّيـة التـي لا تخيـب، ومهارتـه في الصيـد، عـلى أشـكاله، حلّاقـاً ماهـراً.. وصـار ريـع الحلاقـة أهـمّ مدخـول حظـي بـه، مـن هواياتـه، وحِرَفـه المتعـددة.. وصـار يعـدِل في دخلـه وصرفـه، دخـلَ أهنـأ فـلاح في الضيعـة، وصرفِـه.

سـمح لـه حسـنُ تعاملِـه مـع النـاس، ومـع أهـل ضيعتـه عـلى الخصـوص، بـأن عقـدَ صداقـة متينـة، مـن غـير رابـط قرابـة، مـع رجـل هاجـر، ومـن ثـم عـاد مـن مغتربـه، في زيـارة خاطفـة للضيعـة، ربمـا مـن أجـل أن يبـيّن إلى أي حـال يمكـن أن يصـل إليهـا مـن يـترك الضيعـة، ويـروح.. قبـل أي شيء آخـر.. مـع شراء مـا تيـسّر مـن أراضيهـا.. هـذا مـا لحظَـه جـمال لتكـرار ملازمتـه، وتلمّـس خفايـا نظرتـه إلى الضيعـة، وأهلهـا. وصـل

جـمال إلى حـد التسـليم، بـأن هـذه العـودة، أبـرزت لـدى المغـترب، شـهوة التشـوّف؛ الشـهوة التـي سـبقت شـوقه إلى رؤيـة أقاربـه ومحبّيـه.. أو عـلى الأقـل، هـذا مـا تـراءى لـه، بعـد طـول تفكّـر.. ولكـن مـا خفّـف مـن هـذا التجنّـي، إذا كان ثمـة تجـنّ، ذلـك القلـب الطيّـب الـذي كشـفَ معـدنَ ابـن الضيعـة. وقـد تجـلّى ذلـك في أبهـى صـورة، عندمـا قـدّم بيتـه إلى جـمال، ليصـير مدرسـة الضيعـة، بـلا مقابـل، حـالَ مغادرتـه. فظهـرت المدرسـة عـلى جناحَـي الطمـوح والوفـاء.. طمـوح جـمال في نـشر الرسـالة الأثـيرة لديـه، التعليـم، ووفـاء صديـق قديـم، جـاء في زيـارة خاطفـة.

لم يخـرج التعليـم في ريعـه، عـن ريـع الحلاقـة. ترفّهـت حالـة جـمال، عـلى مقـاس نمـط حيـاة الضيعـة وسـلوكها.. مفتـاح المدرسـة في يـده، والحلاقـة تنتظـر.. ولا أحـد غـيره يحلـق ويقـص الشـعر.. صـار لديـه متّسـع مـن الوقـت، لممارسـة هوايـة الصيـد، مـع وهـبِ معرفتـه الطبيـة للموجوعـين، مـن الضيعـة والجـوار..

كانـت أمّ جـمال تـدرك أنّ ابنهـا عـلى قـدّ حالـه.. وقـادر عـلى القيـام بمـا يرضيـه، دون أن يرضيهـا في جلّه.. كان يريحها النشـاط المحـرّك لهمّـة جـمال، وتعلّـق أهـالي الضيعـة بـه، ومحبّتهـم لـه. ومـا كان يتعبهـا، دون كلام، اهتمامهـا بالبسـتان وثمـاره، وبجـلّ التـوت الـذي يـدرّ عليهـا مـا يكفيهـا وابنتهـا، وزراعـة البـورة التـي تنتـج مـا يكفيهـا مـن القمـح.. خـيرات كثـيرة، بعـد انتهـاء محنـة الحـرب، والتلفّـت إلى مسـتقبل لا يتجـاوز الابقـاء عـلى

فرحـة الأمّ بابنهـا، وبابنتهـا التـي تحلـو مـع مـرور الزمـن، لتصـير أجمـل بنـات الضيعـة، ولا تـزال دون العشريـن. لم يبـقَ إلا تدبير العـروس.. وانتظـار العريـس.. العرائـس جاهـزات.. وعليـه أن ينتقـي.. والعرسـان عـلى كثرتهـم، يحـيّرون.

- يـا حبيبـي، حاجـي عـذاب وقهـر.. بـدي إفـرح فيـك، يـا عمـري.. بـدي شـوف ولادك..

لم تعـرف أمّ جـمال أنّ ابنهـا غـارق حتـى أذنيـه في العشـق. والمعشـوقة مـا كانـت لتبعـد في سـكنها عنهـا، أمتـاراً قليلـة.. ولكـنّ العـين المشـغولة بأمـور العيـش، وحاجـات الأسرة الصغـيرة، لا تقشـع خـارج هـذا الإطـار.. ولا أحـدَ قشـعَ، إلا ذلـك الولـد الفضـولي الـذي لحـظ أنّ جـمال، مـا كان يحلـو لـه تعليـم الأولاد، إلا عـلى رأس النبـع، المـكان الأثـير الـذي منـه يـرى وجـه الحبيبـة، وإن عـلى بُعـد.. وقـد رأى الفضـوليّ المتوثّـب، أن علـوّ صـوت المعلـم يجلـب محبّـة، وهـو اسـم المعشـوقة المتولّـه بهـا، سراً، إلى فنـاء الـدار، ومـن ثـم ينخفـض، ليتحـوّل الحـوار إلى لغـة العيـون، بعـد شرود المعلّـم عـن العلـم والمتعلّمـين. ويـا ويـل هـذا الولـد العـاقّ، عندمـا انكشـف أمـره للمعلّـم جـمال، بعـد أن جمـع رفاقـه، وهـو مـن أكبرهـم، ليـسرّ إليهـم الخـبر الخطـير..

- إحزروا مَن يحبّ المعلم جمال؟؟

لا أحد يعرف..

- هل تعلمون لماذا يأتي بنا المعلّم الأبرص، إلى هنا؟؟

لا أحد يعرف..

- سأقول لكم: المعلّم جمال يحب محبّة، بنت نسيم..!

يقول أحدهم..

- كيف عرفت..؟؟

- أنظروا معي إلى المعلّم عندما يعلو صوته، في شرح المتيلة، أو يؤدّب أحدنا.. وانظروا إلى بيت نسيم، إبي محبّة..

كان هذا الخبر بذاته، مفتاح معرفة المعلّم جمال، بما قاله الولد العاقّ.. رأى المعلّمُ، مرة، مرّتين، ثلاث، أن صوته كلّما عَلا، يلتفت الأولاد جميعهم، إلى حيث يتطلّع المعلّم.. عرف أن ثمة شيئاً جديداً، دخل طرفاً ثالثاً، بين المعلّم والأولاد.. أراد أن يعرف، دون أن يدع الأولاد يعرفوا.. انتحى جانباً بأحدهم، بعد أن صرف الباقين، ليبيّن له الأمر، وهو في داخله، يحسّ أن ثمة شيئاً، يخصّ محبّة..

بعد طول بال، وتهديد ووعد، عرف أنّ عفيف فضح سرّه، أمام الأولاد..

- يقول عفيف، إنك تحبّ محبّة يا معلمي.. وتأتي بنا إلى هنا، لتكون أمام عينيك..!

- لمن قال هذا الكلام؟؟

- لكل الأولاد.. لم تكن كلمة التلاميذ متداولة، في تلك الأيام.

أعـاد المعلـم جـمال الأولاد إلى مـا يشـبه الصـفّ، كـراسي القـش الصغـيرة، المتراصفـة في صفّـين أمامـه..

- عفيف.. تعال.

- نعم معلّمي..

- إذهـب إلى بسـتان خالـك منصـور، وآتنـي بخمسـة قضبـان قويمـة مـن الرمّـان.. وتعـال.. أسرِع.

ركـض عفيـف، بإحسـاس المتميّـز الـذي انتقـاه المعلـم، لتنفيـذ مهمّـة جليلـة.. جلـبِ قضبـان الرمـان.. وقـد أغبطـه رفاقُـه وقـدّروه لتميّـزه، ولا أحـد يـدري مـا يخبّئـه هـذا الأمـر، سـوى الـواشي والمعلـم جـمال.

رجـع عفيـف مسـبوقاً بلهاثـه، مبتهجـاً بإنهـاء مهمّتـه.. وهـو مطمـئنّ بأنـه سيرسّـخ سـلطانه عـلى الأولاد، ليصـير قبضايـاً عليهـم، ومتنمّـراً، متجـاوزاً منافسـه حنّـا.. وسيسـبقه بخطـوات.. لا بـدّ.

- تفضـل معلّمـي.. وعـاد عفيـف ليجلـس في مكانـه، وقبـل أن يفعـل، طلـب منـه المعلّـم جـمال أن يبقـى قريبـاً منـه..

- إبقَ هنا بجانبي يا عفيف.. عاوزك..

وقـف عفيـف متحـيّراً.. دون أن يـدري مـا ينتظـره.. ولكنـه أحـسّ بـأن جلـده يرعـاه..

- قل لي، يا عفيف.. ماذا أخبرت رفاقك؟

أحـسّ عفيـف بـأن الموقـف خطـير.. وصـارت القضيـة كلّهـا أمامـه في لحظـة.. والخـبر وصـل إلى المعلّـم.. وقضبـان الرمّـان ليديـه، بـدون أدنى شـكّ..

انقلـب الموقـف، في نفسـه، مـن متميّـز متنمّـر، إلى متّهـم.. سـتلتهب يـداه مـن قضبـان الرمـان.

– لم أقل شيئاً، يا معلمي.. والأولاد كذّابون.

– لا تـزِد مـن فـرص زيـادة العقـاب.. قـل لي مـاذا أخبرتهـم.. كـن صادقـاً، ولا تخـف.

– أنـت ومحبّـة يـا معلّمـي..! واللـه مـا في شي غـير هيـك.. قـال ذلـك بصـوت مرتجـف، وكأنـه في عـز الشـتاء..

– مـا بنـا.. أنـا و.. محبّـة؟؟ قالهـا بصـوت الغضبـان، والمتهيّـئ للـضرب، وهـو يهـزّ قضيبـاً بيـده، مـن تلـك التـي جلبهـا عفيـف نفسـه..

– ولا شي معلمـي.. بـس إنـو بتجيبنـا لهـون حتـى تشـوفها.. وسـكتَ، عـلى خـوف ورهبـة.

– هكـذا إذاً.. ومـا أدراك أنـت..؟ ومـن كلّفـك لتكـون رقيبـاً علينـا؟؟ وهـل هـذه شـغلتك؟؟ إفتـح يـدك.. أيضـاً.. أيضـاً، افتحهـا..

وهكـذا.. ضربٌ مـبرّح عـلى اليديـن، حتـى تكـسّرت القضبـان الخمسـة.. مـع صراخ عفيـف، وتكتّفـه، عنـد كل ضربـة، ومـن

ثـم بسـطِ اليـد في إثـر اليـد، وسـط الغضـب الشـديد للمعلـم جـمال، واحمـرار وجهـه، واهتـزاز بدنـه، يرافقهـا بـكاءُ رعـبٍ مهـول لأكثريّـة الأولاد، مـع الرجفـة التـي طالـت أجسـادهم جميعـاً..

لم يكـن هـذا الغضـب المـؤذي مـن شـيم المعلّـم جـمال، المحـبّ للتعليـم، والـرؤوف بـالأولاد، والخبـير بأهمّيـة تقريـب العلـم إلى ذهنيّاتهـم.. ولكنّـه الغضـب مـن افتضـاح أمـرٍ، مـن الخطـورة نـشره في محيـط لم يعـطِ، بعـد، الشرعيـة لمـا يسـمّى بالحـبّ المتـداول، بـين شـاب وفتـاة..

في هــذه الحالــة، ولــكي لا يطــول اللغــط، لا بــدّ مــن إنهــاء المسـألة بالـزواج، الوسـيلة الوحيـدة لقطـع الألسـن.. ويـا لسـوء حـظ الفتـاة، إذا دارَ لغـط حـول علاقتهـا بشـاب، ولم يتزوّجهـا.. جـواز مـرور سريـع إلى عنوسـة لا حـدّ لهـا.. إلا إذا.. مـن خـارج الضيعـة، جـاء أحدهـم ليتقـرّب.. وإذا تـمّ.. يصـير صهـرَ الضيعـة كلهـا..

مـا فعلـه المعلّـم جـمال، لا يمـتّ إلى تكذيـب الخـبر، ولا إلى إنـكاره.. نـشْرُه فقـط سـبّب غضبـه.. إذ ليـس في وارد زواج.. ولا باسـتطاعته ذلـك.. فكيـف يقبـل بـأن يطلـعَ صيـتٌ عـلى فتـاة، ويحكـم عليهـا.. وهـو غـير قـادر عـلى رأب الصـدع، وتجـاوزِه بالـزواج؟ غضبـه تـأتّى مـن هـذا.. واشـتداد العقوبـة، كان لـه مـا يـبرّره.. منـعُ الأولاد مـن نـشر هـذا الخـبر.. وإلا، هـذا هـو عقـاب الناشريـن..

إطـمأنّ المعلّـم جـمال إلى فعلتـه الظالمـة تلـك، ولكنّـه لم يخفّـف مـن شـدّة ولهـه بالمحبوبـة.. ولأن الحـبّ لا يُخفـى.. انتـشرت حكايتــه في الضيعــة كلّهــا، ليــس عــلى أفــواه الأولاد الذيــن عرفـوا بالرمـز والاشـارة، بـل عـلى وجـود المعلـم جـمال دائمـاً عـلى مقربـة منهـا، إن كان في الضيعـة، أو في الحقـول.. يسـتدلّ عليهـا، ويلاحقهـا مـن بعيـد، ويـترك لهـا في أمكنـة يدلّهـا عليهـا، بالإشـارة، مـا يخبّئـه لهـا، مـن أطايـب الحلـوى والمكـسّرات.. فتـأتي لتتلقّفهـا، وكأنهـا يـد الحبيـب وقلبـه، وإن كانـت وحيـدةً في احتضانهــا وتذوّقهــا.. الخيــال هنــا، والرمــز، لا يختلفــان في وجودهــما، عــن جســد الحبيــب، وروحــه.

راجـت أخبـار العلاقـة بـين المعلـم جـمال ومحبّـة، وإن عـلى بُعـد، أو في لقـاءات نـادرة لا تضـمّ سـوى كلـمات، عـلى مسـير، إن كان عـلى طريـق العـين، أو طرقـات البسـاتين. ولأن الحـب دلّال بطبعـه.. صـار مـن البديهـي أن يعـرف النـاس، أنّ محبّـة لجـمال، وجـمال لمحبّـة..

إذا كان هـذا الـكلام مُقـالاً عـلى ثقـة، فإنـه يعنـي أنّ لا بديـل عــن جــمال لمحبّــة.. مــع احتــمال بديــل، وأكــثر، عــن محبّــة لجـمال.. ليسـمِّ ذلـك مـا شـاء المسـمّون.. ولكـن هنـا، مربـط العنوســة للفتــاة، وحدهــا.. وهــو مربــط لا يخــصّ الشــباب، مهــما تقلّبــوا في أهوائهــم، ونزعاتهــم.

كان جـمال يـدرك مـا عليـه فعلـه، تجـاه محبّـة، وتجـاه أهـل محبّـة.. الوصمـة تطـول الأهـل، قبـل البنـت. وهـو لا يقـدر أن يقـوم بالواجـب. يـدرك أنّ ثمّـة أكـثر مـن الواجـب، وأثمـن،

يربطه بمحبّة.. وهو على وجه سفر، لرؤية أبيه في المهجر، بناء على رغبة أمّه، وإلحاح أخته.. ولكن، كيف عليه أن يسافر، ويترك محبوبته..؟ أليس هذا ما فعله أبوه، وقد ترك أمّه وحيدة، مع طفليها منذ ما يزيد عن عقدين من السنين؟ هل عليه أن يعيد تجربة أبيه، وهو ذاق منها الأمرّين..؟ إذاً.. لا زواج.. وفي الوقت نفسه، لا انفصال.. والخطوبة أهون المُتاح.

لم تكن الخطوبة أكثر من طلب اليد، وإعطاء القول.. الأمّ وحدها، لا أقارب ولا جيران. تطلب محبّة، من حنة، أمّها، ومن شقيقها جبران، خطيبةً لابنها جمال..

- أهلاً وسهلاً.. بوجودِك يا أم جمال، ما عنا بنات.. البنت بنتك .

هذا كان جواب الست حنّة، بعد أن تطلّعت إلى وجه ابنها، ودون النظر إلى محبّة. قالت ذلك، وهي تعرف مسبقاً رأيهما، في جمال، وفي الخطوبة.

صارت محبّة خطيبة جمال.. ومن الممكن أن يسافر، وهو مطمئنّ البال.. لأنه فعل ما عليه فعله، ولأن محبّة ستبقى محجوزة له، في كل الأحوال، أعادَ من سفرته، أو لم يعد.

صار بيت نسيم مقصداً لجمال، في كل سهرة، على ضوء القنديل.. قعود على طرّاحات ومساند، وكلام في أحوال الضيعة والزرع، وجفاف المواسم، وقلّة المطر، ورخص الحليب، واستبداد تجّار شرانق الحرير.. واختلاس النظرات،

عنـد مقاطـع الكلـمات، ومشـاريع غمـزات، وبسـمات، تخفّـف مـن لوعـة البُعـد، ولـو عـن قـرب.. وتحـيُّن أي فرصـة للمسـة يـد، أو تمريرهـا عـلى جسـد، مـع تلبّـس العفويـة في هـذه، وتلـك..

لم يطـل الأمـر. جـاءت الموافقـة عـلى طلـب السـماح بالسـفر، مـع التذكـرة المدفوعـة سـلفاً، عـلى مـتن الباخـرة ألينـا. تـرك جـمال الضيعـة، مصحوبـاً ببـكاء الأم، وتفجّعهـا، عـلى فقـد ابنهـا الوحيـد، بعـد زوجهـا، وعويـل أختـه سـما التـي حاولـت أن ترمـي نفسـها في البحـر، أو الذهـاب معـه.. وصراخ خطيبتـه المكتـوم التـي لم تـبرح مكانهـا قـطّ، طيلـة فـترة الـوداع. اكتفـت منـه بتلويـح اليـد، فبادلتـه بتلويـح مماثـل. وآخـر مـا سـمعت منـه، الوعـدَ بصـوت مرفـوع، بأنـه لـن يطيـل الغيبـة، مـع القَسَـم بحيـاة الـذي جمـعَ الجمـع.. فهمـت هـي عليـه، وفهـم كثـيرون غيرهـا.

3

خـرج جـمال مـن الضيعـة، مـع بعـض رفاقـه.. ولم يقبـل أن يتبعـه أحـد، غـير هـؤلاء.. اختفـى عـن الأنظـار، وعـاد المودّعـون إلى بيوتهـم، كلّ يحمـل همّـه المفصّـل عـلى قـدّه.. والجميـع مؤمنـون بـأن جـمال سـيعود.. إلا أمّـه.. إنهـا ذاقـت لوعـة الفـراق، وفي تلـك اللحظـة اسـترجعتها.. ولا يمكـن أن يلـوم أحـدٌ المجـرِّب..

لم يعلـم أحـد مـن حـاضري وداعـه، مـا كان يخبّـئ جـمال في باطـن صرّتـه التـي حمـل.. ولا أحـد فكّـر في سـؤاله، حتـى أمـه وأختـه ومحبّـة خطيبتـه.. كان يـدرك أن رحلـة الباخـرة سـتطول، وهـو حـلّاق معتـبَر.. فلـمَ لا يأخـذ عـدّة الحلاقـة معـه؟؟ الركاب كثـيرون، وإن لـن تخلـو الباخـرة مـن حـلّاق. يأخـذ القليـل، يجلـب الزبائـن، ويقـضي عـلى الضجـر، ويُدخـل بعـض المـال إلى جيبـه، وهنـاك يتدبّـر أمـوره، حسـب عملـة البلد التـي لا يعرف أيًّـا هـي، لا في اسـمها أو قيمتهـا، وهـو في بطـن الباخـرة. ليـس هـذا فقـط، بـل ربمـا تدبّـرَ أمـوره هنـاك، وحصـل عـلى بعـض المـال، مـن شـغلته هـذه، إذا طـال بـه المقـام، أو تعـثّرت علاقتـه مـع أبيـه، فيجـد في جيبـه، مـا يكفيـه أود العـودة، دون الحاجـة إلى أن يكـون ثمّـة سـؤال لسـائل، ولـو كان المسـؤول أبـاه.

مـرّت أيـام الابحـار الثلاثـون، وجمال منهمـك في عملـه، وفي عقد صداقـات جديـدة، داخـل الباخـرة، لم تطـل الـركاب فحسـب، بـل طالـت أيضـاً عـمّال الباخـرة، وفنييهـا، وطهاتهـا. حتـى

قبطانها، كان ينتحي به جانباً، كلما مرّ في جولته التفقدية.. كان جمال عبقرياً في نسج العلاقات، وفي إدامتها وتوطيدها، والمحافظة عليها. وإذا انحلّت بعض تلك الروابط، فإن ذلك يأتي بمبادرات من غيره، وليس منه.. بالتأكيد. حتى حلّاق الباخرة، صار صديقاً له، مع أنّه يزاحمه في مهنته.. وأجمل ما كان بينهما، قصّ شعر واحدهما للآخر، في مشهد تجمّع عليه أكثر نوادل الباخرة، وبعضٌ من فنييها.. وأكثر ما أعجبهم، أن ثمة حلّاقاً يحلق لحلّاقهم.

رسَت الباخرة في مرفأ سانتوس البرازيلي.. تدبّر الركاب أمورهم، ليخلوا الباخرة، مع ما حملت أياديهم من أغراض وحقائب.. إلا جمال.. ما كان معه، إلا تلك الصرّة التي تحمل عدّة شغله، ولا شيء غير ذلك.. أبقى على ثيابه ذاتها طيلة الرحلة.. غسلَ ما هو ظاهر في الليل، ليرتديه في النهار، مرّتين في الرحلة.. أما ما بطُنَ، فقد غسله عدة مرات بعد كل استحمام، وتجفيف، ليرتديه في الصباح، بعد أن يقضي الليل نائماً في عريِه الكامل.

حمل الصرّة، وجاء الكثيرون لوداعه، ومنهم الحلّاق.. انتحى هذا بجمال جانباً، وأشار عليه أن يكتب اسمه على ورقة كبيرة، بأحرفه اللاتينية، ليتعرّف عليه مستقبلوه.. وقد عرف من جمال، أن أباه لا يعرفه، لأنه غادره، وهو في عمر السنة والنصف. أتى بورقة وقلم، وكتب بخط عريض، جمال يوسف رفول، الاسم المسجّل على لائحة السفر، وإذنه؛ وليس جمال الأبرص، الاسم الذي عُرف به، ويعرفه، إلى

الدرجـة التـي كاد أن ينـسى اسـم أبيـه، وكنيتـه.

خـرج جـمال مـن بطـن الباخـرة، مـع الخارجـين، متوجّهـين ناحيـة السـلّم الـذي سـيوصلهم إلى بـرّ المرفـأ البرازيـلي، القريـب مـن مدينـة سـان باولـو. الورقـة لا تـزال في يـده. تطلّـع، وإذا بجمـوع غفـيرة تلـوّح بأيديهـا، وتـصرخ.. رؤوس، وأكـفّ تلـوّح، وأجسـاد متلاصقـة، مـن الصعـب تمييـز أيٍّ كان عـن أي كان.. نـسي الورقـة.. وصـل إلى منتصـف السـلّم، وجـد مَـن رفـع ورقـة أمامـه.. تذكّـر ورقتـه.. رفعهـا، وهـو يسـير الهوينـا، باضطـراب ظاهـر، وعينـين زائغتـين.. إلى أن اعـترض طريقـه رجـل طويـل، نحيـل بشـقار ظاهـر، وشـاربين رفيعـين، وعينـين غارقتـين في دمـوع البهجـة.. وهـو لا يـزال عـلى اضطرابـه الظاهـر، مـع زيـادة في رجفـة البـدن.. وعينـين ثُبّتتـا عـلى وجـه رجـل يـكاد يبـكي، فاتحـاً ذراعيـه..

– أهلاً جمال.. ابني.. حبيبي.. يا الله.. صرت شبّ..!

لم يحـسّ جـمال إلا أنـه صـار بـين يديـه، لا يعـرف إذا كان أبـوه يشـمّه، أو يقبّلـه، أو يمـرّغ وجهـه بوجهـه.. غمـره وشـدّ عليـه، وانحنـى يقبّـل يـده.. مـرة.. اثنتـين.. ثـلاث.. وأبـوه يفـرك شـعره بيـده، في بـكاء مسـموع..

– أهـلا أبي.. أبي.. صرت فينـي قـول أبي.. شـتقتلّك كتـير.. وأنـا مـاني مصـدّق إنـك حـدّي..

هـذا مـا قالـه جـمال، بتأثّـر ظاهـر، وحشرجـة مسـموعة.. عـادا للعنـاق مـن جديـد، والـركّاب والمسـتقبلون، في رواح ومجـيء

حولهـما، ولا أحـدَ منهـم يـدرك مـا يجـول في خاطـر الأب، والإبـن، مـن ضروب الفـرح والبهجـة.. فرحـة الأب بابنـه الـذي لم يـرَه، مـن قبـل، وفرحـة الابـن بأبيـه الـذي خـال أنـه لـن يـراه، وتـربّى بعيـداً عنـه.

بقـي جـمال يـروي حكاية سـفرته، ولقائـه والده، في كل مناسـبة، يسـأله أحدهـم عنهـا.. يسـتثير مشـاعرهم، ويسـتدرّ دموعهـم، ولـو تكـرّرت الروايـة عـلى مسـامع الكثيريـن مـن الحاضريـن، دون أن يـرفّ لـه جفـن، أو تسـقط دمعـة..

خرج الأب والابن من الميناء في سيّارة الأب..

- إنها سيّارتنا يا ابني.. نشالله عجبتك..؟

مـاذا يمكـن لجـمال أن يقـول..؟ لا طريـق سـيّارة إلى الضيعـة.. ولا ظهـرت سـيّارة فيهـا، ولا امتلـك أحـد مـن قاطنيهـا سـيّارة.. وإذا اقتربـت سـيّارة مـن الضيعـة، تبقـى عـلى بعـد مسـافة طويلـة منهـا، تحمـل تاجـر شرانـق الحريـر، أو لتحمّـل مـا تنتجـه الضيعـة، مـن أصنـاف الخضـار والفواكـه. ومـا عـدا ذلـك، الطنابـر والـدواب..

- بشو عم تفكّر يا ابني..؟

- لا شيء، أبي.. لا شيء..! أتومبيل جميل.. ولونه حلو..

هـذا هـو الاسـم الـذي كان يعرفـه أهـالي الضيعـة، عـن الآلـة العجيبـة التـي تسـير لِحالِهـا، ولا دواب تجرّهـا.. تمييـزاً لهـا عـن الطنـبر الـذي يجـرّه حصـان للميسـورين، وبغـل لمتوسّـطي

الحـال.. وحـمار دون عجلـة يجرّهـا، للفلاحـين في نقلهـم وانتقالهـم.

- أخـبرني عـن أمـك.. كيـف حالهـا..؟ والحبّوبـة سـما.. صـارت صبيـة أليـس كذلـك؟ إحـكِ لي.. إحـكِ.. وأنـت..؟ كيـف كـبرتَ هكـذا، ومـا تعمـل؟ والصيـد.. ألا تـزال عـلى عهـدك معـه؟ إحـكِ، دعنـي أسـمع صوتـك.. لا تحرقنـي.. وقيـل لي إنّـك صرتَ حلّاقـاً.. يـا اللـه.. مـا زال صامتـاً.. تكلّـم يـا ابنـي..!

كلام.. كلام.. وأب يريـد أن يعـرف كل شيء، عـن جـمال، وعـن عائلتـه الصغـيرة، عـلى مـدى عشريـن عامـاً، في دقائـق معـدودة، مـن الميناء إلى البيـت..

- سـتعرف كلّ شيء يـا أبي.. مهلـك عـليّ.. سـأقول لـك كل مـا تريـد أن تعرفـه.. الأيّـام طويلـة.. سـتعرف كلّ شيء.

أحـاط أبـو جـمال كتـف ابنـه، بيـده، مبديـاً لـه رغبتـه في معرفة كلّ شيء.. كلّ شيء.

توقّفـت السـيارة أمـام منـزل كبـير، يـدلّ عـلى غنـى، وسـعة عيـش.. خرجـا ودخـلا مـن بـاب عريـض، ورواق فسـيح، أخـذ بلـبّ جـمال، وإذا عـلى جانـب منـه، غرفـة اسـتقبال فخمـة، وعـلى الجانـب الآخـر، مكتـب متقـن الصنـع، مـن خشـب، يبـدو في أحسـن حـال، وفي أجمـل منظـر، تلاصقـه غرفـة تبـدو فسـيحة، عـرف جـمال أنهـا المطبـخ، بعـد ذلـك، بقليـل.. أمـا في العمـق، فثمـة غـرف منامـة عديـدة، وأبـوه وحيـد لا تلزمـه، إلا غرفـة واحـدة.. عـرف جـمال، بعـد ذلـك، أن ثمـة غرفـة لأبيـه،

وغرفـة للطبّـاخ، ومثلهـا لمدبّـرة المنـزل، وغرفتـين للضيـوف.. سـتكون إحداهـما غرفتـه، بـدون شـكّ. ولـكلّ غرفـة ملحقاتهـا..

وجـد جـمال في منـزل والـده كل مـا هـو جميـل.. بهندسـته، ومفروشـاته الخشـبية، المتقنـة الصنـع، مـع الأشـكال الهندسـية البديعـة، والحفـر الدقيـق الـدال عـلى مهـارة في الصناعـة، وإبـداع في فـن النقـش والتزيـين.. هنـا، تذكّـر جـمال أن أبـاه يعمـل في تجـارة الأخشـاب، وصناعـة أثـاث المنـازل.. فخـفّ توهّـج تعجّبـه، وهـو يقـول في سرّه.. «دقّـة الريّـس لإبنـه»..

– تعـالي يـا لونـا.. دلّي سـيّدك عـلى غرفتـه، القريبـة مـن غرفتـي، ولبّـي لـه كل مـا يطلـب..

قـادت لونـا جـمال، عـبر رواق طويـل يفصـل بـين غرفتـين مـن كل جانـب، وينتهـي بغرفـة في صـدره، غرفـة يوسـف، أبي جمال..

– سـيدي.. أي غرفـة تفضّـل، اليمنـى أو اليـسرى..؟ قالـت ذلـك، بلغـة لم يفهمهـا..

تباطـأ في الإجابـة، ولم يـدرِ مـا عليـه قولـه.. أبـوه عـرف أنـه لـن يفهـم لغتهـا، اقـترب منـه، وقـال:

– تسـألك أي غرفـة تفضّـل.. لأننـي أريـدك بجانبـي.. اليمنـى أو اليـسرى..؟

– وهل ثمة فرق..؟

– لا.. لا.. متماثلتان في المساحة، والمفروشات، والملحقات..

- لا يهم إذاً.. أياً منها.. ومدّ يده على مقبض باب الغرفة اليمنى..

- حسناً.. تمدّد وخذ راحتك.. وأنا بانتظارك في المكتب، عندما تصحو.

راعه ما وجده في الغرفة.. كيف له أن يقارن بين نومته هنا.. ونومته هناك حيث أمه وأخته؟ فرق كبير، كالمسافة بين الأرض والسماء.. قال ذلك بصوت مسموع، وتلفّت حوله، ليعرف إذا سمعه أحد.. فاطمأنّ.

غرفة واسعة، لم يرَ أوسع منها، بعد.. سرير ضخم، مغطّى بالساتان الفاخر، ومزيّن بنقوش عجيبة، تمثّل وجهين متقابلين لرجل وامرأة.. مع زخرفات من الأوراق والأشكال، تدلّ على ذوق رفيع، ومهنيّة عالية، في لون بني غامق، وناعم، بما لا يوصف.. منضدتان على جانبَي السرير، مع قنديلين متماثلين من البلّور متعدّد الألوان.. ومنضدة أكبر، بمرآة صافية، وحفر منمّق، مع كرسيّ لم يرَ مثيلاً له، من قبل.. وخزانة ضخمة، بدرفاتها المتعددة، ومرآتها التي تعكس أكثر ما هو موجود في الغرفة، مع انسجام تام بين كل موجوداتها.. باب، قرب زاوية الغرفة.. وإذا بحمّام بكل مستلزماته، وعلى أفضل وجه.

عال.. جمال ليس في حاجة للخروج من الغرفة، إلا في حالة الانضمام إلى أبيه، في قاعة الطعام أو المكتب.. أو المغادرة. لن يزعج أحداً، ولا أحد يزعجه.. لن يُحرج أحداً، ولا أحد

يُحرجـه.. حساسـية جـمال مفرطـة، منـذ نشـأته.. لا أحـد في المنـزل، هنـا، إلا أبـوه، والطبّـاخ والمدبّـرة.. والمنـزل كبـير.. وهـو إلى القـصر أقـرب.

هـذا هـو مقـام جـمال في بيـت أبيـه.. وكل مـا هـو موجـود فيـه، تحـت تصرّفـه.. يكفـي أن يطلـب مـا يريـد.. ولونـا تُحـضره في لمـح البـصر..

تمـدّد جـمال عـلى السريـر، دون أن يخلـع حـذاءه.. هـذا مـا كان يفعلـه في منـزل أمّـه الصغـير، دون أن يعـير التفاتـاً لأي مغبّـة.. أمـا هنـا.. فـرأى أن عليـه الاهتـمام أكـثر بمسـلكه، وتصرّفـه.. خلـع حـذاءه، وتمـدّد بطولِـه.. حـلّ عليـه التعـب.. نـام.. ولم يسـتفق إلا بعـد إطالتـه فـترة النـوم، وعـلى صـوت أبيـه.. وهـو متعـوّد عـلى أن لا يوقظـه أحـد، حتـى ولـو بقـي طيلـة النهـار نائمـاً..

– إنهـض يـا ابنـي.. إنهـض.. أنـا متشـوّق لسـماعك.. لا تدعنـي أنتظـر أكـثر..!

نهـض جـمال، توجّـه نحـو الحـمّام، ليغسـل وجهـه، ثـم غـادر الغرفـة، ليلحـق بأبيـه إلى المكتـب.. وهـو يسـأل نفسـه.. مـاذا عـليّ ان أفعـل؟؟ أحـكي وأطيـل الـكلام.. أم أدعـه يسـأل، وأنـا أجيبـه؟؟ بقـي بـين أخـذ هـذا، وردّ ذاك، إلى أن وصـل إلى المكتـب..

– مسا الخير يا أبي..

لم تكن كلمة بابا دارجة في تلك الأيام..!

- أهلا يا ابني تفضّل.. هل ارتحتَ من تعب السفر؟

- الحمدلله.. أنا في أحسن حال..

- أنا على شوق لتحكي لي من باب الحديث، إلى محرابه.. أنا على نار، يا جمال، أريد أن أعرف كل شيء..

- من أين تريد أن أبدأ يا أبي..؟ من عذاب أمّي التي تركتَها وحيدة، مع طفلين لم يتعرّفا عليك.. ولا أخذا نتفة من عطفك..؟ أم من نشأة ابن وحيد لم يرَ والده، ولا أمسك بيده، في أشدّ الظروف وأقساها؟؟ أم من ابنة، قيل لها أن لها أباً ترك عائلته لمصيرها، وهاجر..؟ أم من أعمام لم يراعوا أصول التعهّد والرعاية، باسم النسب وقرابة الدم..؟ أم من القهر الذي لازمنا طيلة فترة غيابك؟؟ قل لي، من أين تريدني أن أبدأ؟؟

- لا تفتّح عليّ المواجع يا جمال.. أمّك تدرك تماماً، ما كان الوضع علينا.. فقر وتعتير، وجوع، وخطر الموت، حروب وتجنيد وويلات.. ولا عمل إلا بما تجود به الأرض.. ونحن يا جمال، لا أرض لنا، إلا ما ورثته أمّك عن أهلها، وهو بالمرابعة، ولا يفيد شيئاً.. حتى أنّ من كان يملك أرضاً، أنكرها، ليعفي نفسه من ضريبة العثملي.. ليأخذها مَن معه المال، يدفع، ويسجّل الأرض باسمه.. ألم تعرف حتّى الآن، كيف صار القلائل أغنياء، وأصحاب كلمة، وكيف ازدادت أعداد الفقراء، مع زيادة فقرهم؟؟ على أي حال،

ليس هذا حديثنا.. وأنت تدرك، وأمّك تدرك، أنني لم اتخلّ عنكم.. ولا عن أعمامك.. ليتك سألت أمّك عن دعمي لكم، وقت سماح الظروف بذلك. وإذا حصل تقصير، فذلك بسبب الحرب وانقطاع التواصل.. وبعد زوالها عاد كل شيء، كما كان، وإن بالتدريج. ومن جملة ذلك، وجودك الآن بجانبي. أرجوك لا تظلمني.. ولا تزد من أعباء نفسي على نفسي..

- يا أبي، أنا لا أشكو من تقصيرك في مساعدتنا.. أنا أشكو من تنشئة عائلة، بغيابك.. ليس المال هو ما ينقص.. وإن نقص في أوقات طويلة.. الحنان، والعطف، والرعاية، والتربية، تحت جناح الأب هو ما نقُص.. تربّيتُ وحيداً، إلّا من حنان الأمّ.. وساعدت أمي في تربية أختي.. بدون أب.. والأب موجود، ولكنه بعيد.. كيف يمكن أن نحسّ بما يحسّ به الآخرون، ولا أب يرعانا، ويضمّنا تحت جناحيه.. وهل جناحا الأمّ يكفيان..

- فهمت، يا جمال.. حبيبي فهمت.. ولكن..

- أنا يا أبي، أشرح لك معاناتنا، بعيداً عنك، لكونك أباً، أولاً؛ ولكونك معيلاً، ثانياً.. والأبوّة أهم بكثير من الإعالة.. هذا ما أردت إيصاله إليك.. على أي حال، إسألني وأنا أجيبك..

بدأ أبو جمال بالسؤال، وجمال يجيب.. بدءاً من العلاقة مع الأقارب والجيران، مروراً بأمور وأوضاع أم جمال، زوجته، وانتهاء بسلوك ومسيرة حياة جمال، وسما أخته.

أكثر ما استوقف الأب، مسيرة جمال.. واطمأنّ بأنّ توصيته بتعليم ابنه، لم تذهب هباء.. وسُرّ كثيراً بالمستوى العلمي الذي وصل إليه جمال.. وممارسته التعليم في مدرسة بكفتين العالية، ومدرسة الضيعة.. كما أراحه اكتسابه لمهنة، على هامش مسيرته العملية.. وداخله التأكيد على أن ابنه على قدّ حاله، وقادر على انتزاع اللقمة من فم الأسد..

- يا ابني، أريد أن أعرف شيئاً خصوصياً، عن أحوال أمّك.. وصلني بعض الكلام.. ما لا يعجبني ولا يسرّني.. أصدقني القول.. وأنا لا ألومها على فعلٍ فَعَلته، وهي وحيدة.. وكأنها أرملة..

- إطمئنّ، يأ أبي.. لم تتطلّع أمي إلى نفسها يوماً، في غيابك.. ما كان لها الوقت، لتنظر إلى حالها، إلا في كيفية القيام بأودها وولديها.. تعب ومشقّة، طيلة نهارات متلاحقة، وليالٍ تجد نفسها وحيدة، إلا في لحظات احتضاننا قبل النوم.. وعند اليقظة.. ولمّا كبرنا لم نجد، أنا وأختي، منها، إلّا كل العطف، والحنان، والرعاية الدائمة، والنظر إلينا بغبطة الأمّ، وعطفها، في حلّنا وترحالنا.. كل ما عدا ذلك، ترّهات تلوكها ألسنة السوء؛ الألسنة التي وصل فعلها إلى البرازيل.. إطمئن يا أبي.. نِعم الأم، أمي، ونعم الزوجة، لأبي.. لا تفكّر بالإخلاص، والبقاء على العهد.. هذا كان، ولا يزال، من بديهيّات سلوكها.. كلام الناس خلاصة حسد وغيرة.. لا تدعه يخترق مسامعك.

- شكراً يا ابني.. وأنا الآن في صدد تدبير أموري، بعد

مـرور أيـام الكسـاد العالمـي الكبـير، وانهيـار الـشركات الكـبرى في العـالم، والتضخّـم الـذي أكل مالنـا ورأسـمالنا.. بعـد التخلّـص مـن هـذه المحنـة، وعـودة شيء مـن المـاضي، لإعـادة تثبيـت أوضاعنـا، سأرسـل في طلـب أمـك وأختـك.. وأنـت إذا لم تـرد البقـاء، فأنـا أنتظـر، إلى أن يـأتي ذلـك اليـوم..

– هـذا الـكلام سـابق لأوانـه يـا أبي. ولكـن.. مـا هـذه المحنـة التـي تكلّمنـي عليهـا؟..

– إنهـا أزمـة اقتصاديـة عالميـة تأثّـرت بهـا كل الـدول الصناعيـة في العـالم، أدّت إلى انهيـار البورصـات، وإفـلاس مصانـع، وتدمـير شركات، وابتـلاع رسـاميل مـن كل الأنـواع، وقـد وصلـت إلينـا في قطـاع الأخشـاب.. نعـاني مـن الركـود والتضخـم، ورخـص العملـة الوطنيـة، وتفـشّي الغـلاء الفاحـش. كل ذلـك، في هاتـين السـنتين، وأرجـو أن لا تطـول..

لم يعـرف جـمال بهـذه الأمـور، ولا خطـرت ببالـه.. عـاش ويعيـش في عـالم آخـر، وعـلى ضفـة أخـرى، لا يهمّهـا مـن الصناعـات شـيئاً، ولا مـن الصناعيـين، وأصحـاب رؤوس الأمـوال الكبـيرة، والبورصـات العالميـة.. إنـه الـدرس الأول الـذي تعلّمـه في الغربـة.. وعليـه أن يسـتزيد.

عـاش جـمال في كنـف أبيـه، في دورة حيـاة مملّـة ورتيبـة، أضجرتـه.. كل يـوم يأتيـه، بمـا أتى بـه اليـوم السـابق.. مجالسـة الوالـد في مكتبـه، مراقبـة كيفيـة سـير العمـل.. التهاتـف، ومـا ينشـأ عنـه مـن صفقات، عـلى قلّتهـا.. يسـبقها مجلـس إفطار، لا

يتعـدّاه وأبـاه، إلا في أوقـات نـادرة، يشـاركهما زائر أو وسـيط، أو زبـون آت مـن مـكان قـصيّ.. والإفطـار نـادراً مـا يتغـيّر محتـواه، أو يتبـدّل.. تلحقـه وجبـة غـداء، عمادهـا اللحـم المطبـوخ في أشـكال متعـددة، يعدّهـا طبّـاخ محـترف، تتغـيّر بتغـيّر أوقاتهـا في الأسـبوع، لتعـود مـن جديـد، في الأسـبوع الـذي يـلي.

بعـد الظهـر، وقـت للنـوم، ثـم التجـوّل في أسـواق المدينـة وحاراتهـا، أو زيـارة لمسـتودعات الخشـب التـي تـشي بسـعة تجـارة أبـو جـمال، ودوره في سـوق الخشـب. ومـن ثـم، الجلوس في مقهـى تعـوّد عليـه الأب، بـدأ يدخلـه برفقـة ابنـه جـمال.. وكـم يكـون سروره عظيـماً، عندمـا يقـول لمعارفـه وأصدقائـه، في مـودّة ظاهـرة.. هـذا ابنـي الوحيـد جـمال.. ليسـمع، وهـو ينفـخ صـدره.. تشرّفنـا.. أهـلاً وسـهلاً.. حلّـت البركـة.. مـا شـاء اللـه. عـرف جـمال أن أكـثر رواد المقهـى سـوريون.. وكان مـن عـادة النـاس، في تلـك الأيـام، أن يعتـبروا اللبنانيـين سـوريين، ومنهـم اللبنانيـون بالـذات..

في المـرّات القليلـة التـي قـدّر لجـمال التجـوّل في أسـواق المدينة، وحارتهـا، وجـد مـا أثـار دهشـته. طرقـات مرصوفـة بحجـارة سـوداء، وكأنهـا بـلاط، نظافـة عـلى شيء مـن الـبروز، إلا مـن أعقـاب السـكائر وعلبهـا، وأنـاس، وكأنهـم يهيمـون عـلى وجوههـم، مـع شـحوب ظاهـر، ونسـاء بفاسـتين قصـيرة، بـلا أكـمام، ودكاكـين قلّـما رأى مـن يشـتري، وبائعـون ينتظـرون مـن يدخـل، ويسـأل، وسـيارات قليلـة تجـوب الشـارع، لفتـت نظـره لقلّتهـا، ولعـدم ارتقائهـا إلى جـمال سـيّارة أبيـه.. ومـا أفرحـه في

جولتـه تلـك، أن حظـي بمطعـم يعلـن في لافتتـه، أنـه مطعـم للمأكـولات السـورية، باللغـة العربيـة والبرتغاليـة.. يـا اللـه.. وصـل طعامنـا إلى هنـا، وفي هـذا الزمـن، قـال في نفسـه، وهـمّ بالدخـول.. لم يظهـر مـن الخـارج، أن أحـداً داخل المطعـم. تطلّع جيّـداً، رأى رجـلاً وراء مكتـب نصـف دائـريّ، يبحلـق في جريـدة أمامـه، وعـلى عينيـه نظّـارات سـميكة.. تجـرّأ ودخـل..

- مرحبا يا عمّ.. أنت سوري، أليس كذلك..؟

- وقف الرجل، ومدّ يده مسلّماً..

- أهـلاً وسـهلاً، بـك وبلغتـك الجميلـة. تفضّـل إجلـس. نعـم.. أنـا سـوري مـن جبـل لبنـان، مـن درعـون، سـمعت فيهـا؟؟

- لا واللـه.. عـلى أي حـال تشرّفنـا.. أنـا سـوري أيضـاً من شـمال لبنـان.. جئـت لزيـارة والدي.. يوسـف رفـول.. ألا تعرفه..؟

- أوووه.. طبعـاً.. طبعـاً.. ومـن لا يعرفـه..؟ إنـه مـن طلائـع السـوريين هنـا، ومـن أكثرهـم نجاحـاً.. ولكـنّ الدهـر قـلّاب.. والزمـن عاطـل.. الأزمـة أكلـت الأخـضر واليابـس.. مـن كان فـوق، نـزل إلى تحـت.. ومـن كان تحـت، غـرق في سـابع أرض.. أنظـر حولـك.. لا أحـد يدخـل.. ولا أحـد يـأكل في المطاعـم.. كان هـذا المـكان يعـجّ بالـروّاد، مـن سـنتين فقـط.. أنظـر.. لا أحـد يسـأل بكَـم.. كاد الجـوع أن يفتـك بالنـاس، إذا لم يبـدأ بالفتـك فعـلاً.. ولا مـن يهتـمّ.. مـا كنّـا نشـتريه بالقليـل، صـار الكثـير لا يكفـي.. ومـا للنـاس إلا رحمـة اللـه.. زمـن..!

- كيف هي أحوال السوريين في هذه المدينة..؟

- كما كل الناس يا ابني.. منهم، من كان ناجحاً ومتفوّقاً، جاءت الأزمة لتقصم ظهره، وتقضي على أعماله.. هذا ما حصل لوالدك، يا ابني.. ولكنّه نهض، واستأنف أعماله، وإن على بطء وتصميم.. ومنهم من كان مستوراً، فنزل إلى الدرك الأسفل من الفقر.. ومنهم من يعيش على إعانات الآخرين.. نعمل ما بوسعنا للحفاظ على السترة.. لا تؤاخذني يا ابني، الوضع صعب، ولا أعرف كيف علينا الخروج من هذه المحنة..

- البرازيل مشهورة بانتاجها، غابات ومزارع بنّ على مدّ النظر، ومعادن ومياه، وكل ما يلزم للنهوض بالبلد.. والفقر يعمّ..؟

- نعم.. نعم.. ولكن اسأل عن المستفيدين من هذه الثروات يا بنيّ.. شركات أجنبية تستغل الثروات، ولا تترك للبلد إلا الفتات.. يزرعون، ويقطعون، يحصدون ويصدّرون، دون حسيب، أو رقيب.. ولا أحد يسأل أو يستفسر.. بلاد فالتة.. والحكّام نائمون.. والعمّال بالكاد يحصّلون ما يسدّون به الرمق.. وما علينا إلا الصبر.. ربما الفرج قريب. تفضّل تذوّق مأكولاتنا.

- شكراً.. عامر.. أبي ينتظرني.. أراك في خير.

- مع السلامة، سلّم على الوالد.. وعلى لبنان..!

خـرج جـمال مـن المطعـم الخـاوي، مطـرق الـرأس، متفكّـراً في وضـع هـذا الرجـل، ومطعمـه، وفي وضـع أبيـه، وأحـوال تجارته.. مـا تعجّـب لـه، هـو رؤيـة أحـوال أبيـه، عـلى غـير مـا ورد عـلى لسـان صاحـب المطعـم.. انقلبـت قناعتـه عـلى رأسـها، واحتـار في كيفيّـة النظـر إلى وضـع أبيـه، ليعـرف موقعـه، بالضبـط، مـمّا يحصـل في البلـد، وفي المدينـة التـي يعمـل فيهـا.

في إحـدى تلـك الزيـارات لأنحـاء المدينـة، برفقـة أبيـه، رأى جـمال أنّ الجـوّ مـؤاتٍ ليسـأله، عـن سـبب قلّـة النـاس الذيـن حـضروا، للسـلام عليـه. وفي شيء مـن التحـرّج، سـأل عـن عمّـه الـذي هاجـر مـن لبنـان، بنـاء عـلى طلـب أبيـه، ولم يـره بعـد، مـع أنـه أتـمّ الأسـبوعين، مـن يـوم حضـوره، وعمّـه، في سـكنه، عـلى مقربـة منـه..

كان جـمال يـدرك، مـن ألسِـنة الكثيريـن في الضيعـة، أن عمّـه نجيـب، غـادر مهاجـراً، وهـو عـلى حنـق ويـأس عميقـين، بعـد معانـاة طويلـة مـع الفقـر، وقلّـة الحيلـة، والتبطّـل.. عمـلَ جهـده للتخلـص مـن هـذه الحيـاة التـي لا أمـل فيهـا.. ووجـد أنّ في الهجـرة، التريـاق الـذي يمكـن أن يخلّصـه مـن هـذا العـذاب.. وهـو عـلى أبـواب زواج مـن قريبتـه التـي لا يمكـن أن يتخـلّى عنهـا..

كان أمـل نجيـب في أخيـه، ليتخلّـص مـن هـذه المحنـة.. وبعـد عـذاب مـرّ، وتأمـين الناولـون مـن الأخ الأكـبر أبـو جـمال، قُـدّر لـه أن يتـزوج.. وكان لا بـدّ مـن تدبـير الأوراق اللازمـة، ومنهـا الصـوَر عـلى الهويّـة.. تصـوّرَ وزوجتـه.. كلٌّ عـلى حـدة.. ومـن

ثـم طلبـت منـه زوجتـه، بغنـجِ العـروس أن يتصـوّرا سـويّة، وفي كامـل جسـديهما، لتكـون الصـورة ذكـرى للمسـتقبل.. لم يرفـض نجيـب طلـب عروسـه.. ولكـن مـا العمـل.. وبنطالـه ممـزق على السـاق، ولا إمكانيـة لإخفـاء الأثـر.. ولأن الزوجـة مـصرّة، قبِـل بعـد أن لـفّ سـاقاً عـلى سـاق، وهـو في كامـل طولـه، لتغطيـة المـكان الممـزّق..

زادت هــذه الحالــة مــن توتّــر نجيــب، وقرفــه.. ولكنّــه بقــي صامتــاً.. لا يريــد أن يكــسر خاطــر زوجتــه، وهــي لا تــزال عروســاً.. إلّا أنّ ذلــك، لم يمنعــه مــن القــول، لــدى مغادرتــه الضيعــة.. وبالصــوت المــلآن.. بعــد أن شــتم، وأرغــى وأزبــد..

– تحرمــي عــليّ، يــا هالضيعــة.. مــا بقــى جيــب ســيرتك، أو أذكــرك، أو أحــضر مجلــس فيــه حــدا مــن أهلــك..

قــال ذلــك، وســط دهشــة الحاضريــن، واســتغرابهم.. ولم يفهــم عليــه أحــد، إلا أولئــك الذيــن عرفــوا مــدى عذابــه، وقرفــه مــن الحالــة التــي وصــل إليهــا، ومــن الفاقــة التــي أذلّتــه وأذاقتــه مُــرّ العيــش.

كان على جمال أن يسأل، فسأل..

– لمــاذا يــا أبي لم يــأتِ إلى زيارتنــا إلّا القليــل مــن معارفــك، وهــم كثــيرون..؟

– يــا ابنــي.. هنــا كل انســان في عملــه.. لا أحــد يســأل عــن أحــد، إلا في حــال الحاجــة.. قليلــون مَــن عرفــوا أنــك هنــا..

وبعـض مَـن زارنـا، هـم مـن روّاد المقهـى، وبعضهـم الآخـر عـلى وشــك.. كل واحــد هنــا بحالــه، ولا علاقــات، كــما تعرفهــا في الضيعــة عندكــم.

– وعمــي نجيــب، وهــو هنــا مــن ســنتين.. ألا يــرى حاجــة في رؤيــة ابــن أخيــه؟؟ هــل مــا زال عــلى زعــل مِــن كل مــا يمــتّ إلى الضيعــة بصِلــة؟

– إذاً.. تعــرف ذلــك يــا جــمال..! أنــت تعــرف أنّ رأس عمــك كبــير.. ومــن الصعــب تغيــيره.. لم أكــن بالنســبة إليــه إلا وســاطة للمجــيء إلى هنــا.. وصــل وســلّم عــلي.. وراح. من النــادر أن يطلّ عــليّ.. وإذا فعــل.. لدقائــق، ويعــود. صامــت صمــت الميّــت.. وجــه زجاجــي لا حيــاة فيــه، ولا تعابــير.. عينــان جامدتــان، لا تــدري إذا كان يــرى أو لا يــرى.. مــاذا أفعــل بــه؟؟ لا أدري..

– ما زال كما هو إذاً.. لم يتغيّر شيءٌ فيه..

– كــما هــو، وأكــثر.. تخيّــل أنــه، مــرة مــن المــرات القليلــة، جــاء لزيــارتي.. وكان في المكتــب الخــوري ابراهيــم الضنــاوي.. ســلّم علينــا، وعرّفتــه عليــه.. عــرف أنــه مــن لبنــان، لم يكمــل الســلام، تركنــا وغــادر مسرعــاً، وكأن مسّــاً مــن الجنــون أصابــه.. لــن يــأتي يــا ابنــي، وســنتدبّر أمــر زيارتــه، ولــن يســتطيع الهــروب منــا..

بعــد أســبوع، قــرّر أبــو جــمال وابنــه أن يــزورا نجيــب في بيتــه، دون إعلامــه بذلــك.. وفي وقــت الغــداء.. وصــلا.. رحّبــت بهــما زوجتــه.. لم يصــل بعــد.. جلســا، وإذا بنجيــب يدخــل.. عــرف بأمــر جــمال.. ســلّم عليــه، ســلام الغريــب عــلى غريــب، انحنــى

جـمال، ليقبّـل يـده.. سـحبها ولم يدعـه.. جلـس ولم يحـرّك شـفتيه بكلمـة واحـدة.. سـاد صمـتٌ غريـب.. لم يقطعـه كلامُ الوالـد، ولا هـو قطعَـه.. فبـادرتُ بسـؤاله:

- كيف أحوالك، يا عمي..

- الحمد لله

كلمـة واحـدة، لم يسـمع غيرهـا جـمال، ولا والـد جـمال.. كلمـة واحـدة، وأطبـق شـفتيه، وأسـدل سـتاراً بينـه وبينهـما.. وخلـقَ مسـافة أطـول مـن تلـك التـي تربـط لبنـان بالبرازيـل.. نصـف سـاعة لا أكـثر، ارتشـفا القهـوة.. معـه. و.. بخاطركـم.. مـع السـلامة. الكلمـة الثانيـة التـي نطـق بهـا نجيـب مخالفـاً الوعـد الـذي قطعـه عـلى نفسـه، مـن زمـان، بأقـلّ مـا يمكـن مـن الخسـائر..

خـرج جـمال مـن منـزل عمّـه، ولا يـدري مـاذا عليـه أن يقـول.. أبـو جـمال صامـت، ولا كلام..

- ماذا يا أبي.. معقول هذا الذي رأيته.. وسمعته؟

- قلـت لـك.. فالـج لا تعالـج.. أنـا أزلتـه مـن خانتـي مـن زمـان.. اختـار أن يعيـش وحيـداً.. حتـى أبنـاؤه ابتعـدوا عنـه.. مجـروح، وجرحـه عميـق..

عـاد جـمال مـن البرازيـل، دون أن يـرى عمـه نجيـب، مـرة أخـرى.

عمـل جـمال مـا بوسـعه، ليبقـى أطـول مـدة ممكنـة، مـع أبيـه.. ولكنـه لم يسـتطع.. جلـوس، ونـوم، وطعـام، ومشـاوير إلى المدينـة، وضواحيهـا، سـيراً أو برفقـة الوالـد.. وآخـر الأمـر، لا شيء، ولا عمـل يخفّـف مـن وطـأة الضجـر..

لم يجـد جـمال في المدينـة، وفي نمـط عيشـها، مـا يدعـوه للتفكـير في الإقامـة فيهـا، أو مـا يحبّبـه بنمـط عيشـها.. أشـغال، وتعـب للعاملـين، وبطالـة فاقعـة في لونهـا، للكثيريـن.. أنـاس يجوبـون الشـوارع، بـلا هـدف، وكأنهـم يهيمـون عـلى وجوههـم.. وجلـوس كثيـف عـلى الأرصفـة، بانتظـار مـن يطلـب عامـلاً أو عاملـة.. ولا شي في أيديهـم، إلا رحمـة اللـه.

قـارن جـمال بـين نمـط عيشـه في لبنـان، وبـين مـا يـراه هنـا، ليقـرّر أيهـما أفعـل، لاسـتكمال حياتـه، بمـا يرتضيـه، ويرتـاح إليـه، مـع محبّـة، أو بدونهـا.. مجـرّد تفكـير.. مـع خوفـه مـن تـسرّب مـا يفكّـر فيـه، إلى محبّـة.. ضحـك في سرّه، وقـال بينـه وبينـه.. نظـرة مـن محبّـة في كفّـة، وبقيـة العـالم، ومنـه البرازيـل، في الكفـة الثانيـة.. والنظـرة أزوَد. فكيـف إذا أدخـل الصيـد والحجـال والسـمك، وتعليـم الأولاد عـلى النبـع، أمـام أنظـار محبّـة، وتجمّدِهـا قبالتـه عـلى سـطيحة منـزل أبيهـا، ولـو عـلى بعـد..؟

ومـع ذلـك، أراد جـمال أن يفاتـح والـده، بممارسـة شـغلة الحلاقـة، ولكنـه أحجـم.. خوفـاً مـن غضـب أبيـه، أولاً؛ ومـن فتـحِ البـاب أمامـه، ليطلـب منـه البقـاء، ليجهّـز لـه محـلاً للحلاقـة يعتـاش منـه، ثانيـاً. المهنـة هنـاك مـدرّة للـمال الوفـير..

لم يفتح هذا الباب، وفضّل أن يطلب منه شيئاً آخر..

- أريد أن أعود إلى لبنان، يا أبي.. لم أعد أطيق البقاء.. مع فضل كرمك واهتمامك..

- بهذه السرعة يا جمال.. لم تكمل الثلاثة أشهر بعد.. ابقَ حتى انتهائها على الأقل، إذا كنت لا تريد البقاء الدائم..

- لا أستطيع يا أبي.. اشتقت إلى أهلي هناك.. وإلى.. خطيبتي.

- الآن تقول لي.. إنّك خطبت؟؟ من هي سعيدة الحظ؟

- محبّة، بنت نسيم يا أبي.. ألا تذكره؟ نسيم.. ابن عبدالله، جار أهلك..! جنّده الأتراك، ومات في الحرب..

- إيه.. أيه.. عرفته.. ولكن لم أعرف أنه مات.. الله يرحمه.

- ابنته محبّة، طلبتها أمي من أهلها.. وافقوا.. يعني بمثابة الخطبة.

- حلوة..؟؟!

- بتجنّن يا أبي.. أجمل بنات الدنيا.. وهي مستعدّة أن تعيش معي على بساط.. وخبزة وزيتونة.

- أفهم أنها هي التي استعجلتك العودة.. لا أمك.. ولا أختك..؟!

- لا والله يا أبي.. اشتقت إلى الكل، أهلي وأهل الضيعة..

وإلى حياتي التي تعوّدت عليها.. مكاني ليس هنا.. وحبّك في قلبي، إن كنتُ هنا أو هناك.

- لك ما تشاء، يا ولدي.. وسنلتقي عما قريب جميعاً.. هنا.

- إن شاء الله..

قالها، وهو متيقّن أنه لن يرى أباه مرة ثانية، بدءاً من اللحظة التي يترك فيها أرض البرازيل.

حدّد جمال موعد السفر، بعد أن نقده أبوه تكاليف التذكرة. في الموعد المحدّد، أحضره الوالد بسيارته الفارهة، وهو ما زال يحمّله السلام، إلى كل فرد يعرفه في الضيعة. ولم ينسَ أن يوصيه خيراً، بأمه وأخته.. وأعمامه، مع الرجاء، بعدم مناكفتهم، والتعرّض لهم..

- ما هُم إلا أعمامك، يا ابني، احترامهم واجب، كما احترام أبيك.. واعمل على أن تحبّهم، هم طائفتك، وأهل بيتك.. لا تزعل منهم، ولو آذوك.. ألا تريد أن تودّع عمك نجيب؟؟

- بأمرك يا أبي.. في كلّ ما قلته.. ولكن اعفني من رؤية عمي..؟ لم أحسّ أنّ لي عمّاً هنا..

قالها بلؤم.. وبحكم مبرم..

تدبّر أبو جمال، مع ابنه، أوراق السفر.. بعد أن وصلا إلى الميناء، كان وداعاً قصيراً.. ولكنه مؤثّر.. كرَجَت دمعتان على

خـد جـمال، ومنهـا الكثـير عـلى خـدّ الوالـد الـذي سـيعود إلى حياتـه وحيـداً، بـدءاً مـن اللحظـة تلـك.

- إصعـد يـا ابنـي.. لا أحـب التلويـح باليـد، وأنـت تبتعـد عنـي.. خـذ مكانـك في الباخـرة، وأنـا سـأعود..

هكـذا كان الفـراق.. وقـد مـرّ عـلى سـلام ومَحَبّـة. كان أول وآخـر لقـاء، ووداعـاً أخـيراً.

4

مـا لحظتـه سـما، إبنـة مريـم أمّ جـمال، أن والدتهـا تهجـس باسـم ولدهـا في اليقظـة والنـوم.. وعندمـا تغـرس عينيهـا في وجههـا، تراهـا عـلى غـير مـا عهدتهـا بـه مـن النشـاط والحيوية، في حضـور ابنهـا جـمال.. وهـي هنـا، تسـأل نفسـها، لمَ هـذه الصفـرة في وجههـا، والاحمـرار في عينيهـا، وهـذه الرجفـة في يديهـا، وهـي لا تـزال في عـزّ عمرهـا؟؟ هـل هـذا ما فعلـه غياب ابنهـا، وهـو لمّـا يـزل عـلى شـهرين في هـذا الغيـاب؟؟ وعندمـا تسـألها.. لا جـواب. وإذا ألحّـت، تـردّ بـلا شيء، تعـب ويمـضي.. وأكـثر مـا كانـت تلحظـه، انتحـاء والدتهـا جانبـاً، عندمـا تجيـش عاطفتهـا، وتعجـز عـن حبـس دموعهـا، رأفـةً بابنتهـا، جاهـدة أن لا تظهـر ضعفهـا أمامهـا، وهـي الزهـرة التـي لا تسـتحق سـوى الفـرح والسـعادة.. تبـكي وتكـرج دموعهـا.. تحـسّ سـما، وتنـدَه..

– يا أمي.. الله يخليكِ لا تعذبيني..

تمسح الأم دموعها، بكُمّ فستانها الرمادي، لتبتسم، وتقول..

– لا شيء، يا روحي.. لا شيء، يا سما.. شدّة، وتزول.

عـلى هـذه الحـال، أمضـت الأم الأشـهر الثلاثـة في عـذاب مبـين، أحسّـت بـه الجـيرة، عـلى صمـت، وشـعر بـه الأقـارب، وإن عـلى بُعـد، إذ الجمـرة تحـرق مكانهـا، فحسـب، ولا يمتـدّ أوارهـا إلى الآخريـن.. إلّا محبّـة.. محبّـة وحدهـا شـاركت مريـم وسـما

عذابهـما.. مـا كانـت تبرحهـما، إلا وقـت انشـغالها في تدبـير أمـور منـزل أهلهـا، ومـن ثـم العـودة إليهـما.. ثـلاث نسـوة، ولا معـين في التخفيـف مـن عذابـات الدنيـا، ومظالمهـا.. ولا رجـاء في تلقّـف مـا يـسُرّ.. إلا في طلّـة جـمال.. الطلّـة التـي لا بـدّ منهـا، في مظـان محبّـة وسـما، والمقطـوع الأمـل منهـا، في نظـر الأم، عـلى مـا يـشي القلـب والعقـل معـاً، متّخـذة مـما أصابهـا برهانـاً، لتثبيـت يقينهـا.

مـا زاد مـن عـذاب الأم والابنـة، أن سـما صـارت صبيّـة حلـوة، قـدّاً ممشـوقاً، وجهـاً يسـبّح الخالـق، عينـين خضراويـن، أجمـل بكثـير مـن عينَـي أخيهـا جـمال، بسـمةً بريئـة تضفـي عـلى وجههـا، جـمالاً فـوق جـمال، شـعراً طويـلاً أشـقر متموّجـاً، يسـتكمل تألّقهـا، في كل قيـام وقعـود، ذهابـاً إلى العـين وعـودة منهـا، مـع جـرّة تحملهـا منبطحـةً في الروحـة، وواقفـة في العـودة، عـلى كتـف لا يسـتحقّ إلّا أن يُـزرع بالـورود.. مشـوار يومـي، لا يكتفـي بمـلء الجـرّة، بـل بمـا يعطـي لسـما فرصـة الخـروج مـن المنـزل، للترويـح عـن النفـس، واستنشـاق الهـواء.. وهـو كثـير عليهـا، في بيـت لا أب فيـه، ولا أخ.

لم تـدرِ سـما أن هـذا المشـوار اليومـي، سـيفتّح العيـون عليهـا.. وشـباب الضيعـة كثـيرون، وإن كانـوا عـلى قلّـة في المـوارد.. ولكن هـذه حـال الضيعـة.. والضيـع جميعـاً. الطمـوح إلى الأكـثر، معـدوم الوجـود، في ظـل ضيـق عمومـي، وانسـداد الآفـاق.. ولا بـدّ مـن الجـود، بمـا هـو موجـود.. والموجـود شـباب لا عمـل لهـم، إلّا في الزراعـة، والاكتفـاء بمـا تتكـرّم بـه الأرض.. مـن يملـك

أرضـاً واسـعة.. أكـثر بحبوحـة، وأوسـع شـأناً.. والملكيـة شـبه معدومـة، إلا بمـا جـاد، ويجـود بـه، أصحـاب الأمـلاك في الضيعة، وهــم مــن خارجهــا، لمــن يديــر بالــه عــلى أراضي الأفنديــة، ويحصّـل مـال ضـمان الأرض الممنوحـة إلى الفلاحـين، عـلى سـبيل المرابعـة.. وأي تفضيـل لشـاب، عـلى آخـر، مـا هـو إلا مـن خـلال موقعـه في هـذه الشـبكة مـن العلاقـات.

لعبـت عـين مختـار الضيعـة طنّـوس الحلبـي عـلى سـما، وقـرّر بينـه وبـين حالِـه، أن تكـون زوجـة لابنـه جرجـي، وارثِ تركـة أبيـه، مـن أرض وموقـع اجتماعـي، أعطتـه المَخـتَرَةُ، لمـن يحمـل ختمهـا..

كان ختـم المختـار في تلـك الأيـام، أهـم مـن ختـم المحافـظ، اليـوم. مـا كان عليـه، وهـو صديـق قديـم لـ أبـو جـمال، إلا أن يفاتـح أم سـما، بطلبـه.. ولكـن، عليـه أولاً، أن يضـع ابنـه في الصـورة التـي رسـمها في ذهنـه.

دعـا المختـار ابنـه جرجـي، للبحـث في هـذا الموضـوع.. وكان جرجـي دمـث الأخـلاق، ومـن المطيعـين لآبائهـم، ومـن المرضيين منهـم..

– أريـد أن أكلّمـك في موضـوع زواجـك.. ألا تريـد أن تتـزوّج يـا ابنـي..

– كـما تريـد يـأ أبي.. مـا علينـا، إلّا أن نحظـى بالفتـاة المناسـبة.. هـل أفهـم مـن هـذا السـؤال، أنّ عينـك عـلى إحـدى بنـات الضيعـة، أو غريبـة..؟

- لا.. لا.. من بنات الضيعة.. وهي قريبة منا..

- من تقصد..؟

- إحـزر.. إذا كنـت شـاطراً، كأبيـك.. قـال، وهـو يضحـك، ليريـح بـال ابنه..

لم يجـرؤ جرجـي عـلى القـول، وقـد مـرّت صـورة سـما في خاطره، مـع صـورة أخـرى، أفصـح عنهـا بعـد زمن.

- لا أعـرف يـا أبي، ولا أريـد أن أذكـر بنـات النـاس، بالاسـم، في قضيـة زواج..

- عفـارم عليـك.. سـما يـا ابنـي.. سـما..! ابنـة يوسـف رفـول، المغـترب..

رقـص قلـب جرجـي فرحـاً، عنـد سـماعه اسـم سـما.. وأفصـح ردّه عـلى أبيـه، عـن مكنونـات قلبـه.

- ليتهـا تصـير يـا أبي.. إنهـا أجمـل بنـات الضيعـة، وأرقّهـنّ طباعـاً، وأكثرهـن تهذيبـاً ووداعـة.. ولكـن..

- ولكن ماذا يا ابني.. ممّ تخاف..؟

- لسـت خائفـاً، ولكـن ليـس بيننـا كلام.. أكـثر مـن السـلام والتحيـة..

- هنـا يـأتي دورك يـا جرجـي.. أنـت ابـن المختـار، ولا أحـد أحسـن منـك، خلقـاً وتهذيبـاً وسِـعة عيـش.. كـن واثقـاً بنفسـك،

وتقـرّب منهـا، وأشـعِرها أنّـك معجـب بهـا، هـل عـليّ أن أعلّمـك كيـف..؟ المهـمّ أن تكـون مقتنعـاً بهـذا الخيـار، وتتـصرّف عـلى أساسـه..

- بأمـرِك أنـا يـا أبي، ولكنهـا.. مـن غـير عائلـة، ويمكـن أن تكـون موعـودة، بأحـد مـن أقاربهـا، أو تحلـو بأعينهـم، إذا تقـدّم أحـد غريـب لخطبتهـا.. نحـن بغنـى عـن الخصـام مـع أحـد.. يـا أبي.

- عليـك أن تُقـدِم، وتجـسّ النبـض، وتتقـرّب منهـا، فتعـرف هواهـا.. وإذا أظهـرت ميـلاً، اتـرك كل الباقـي عـليّ..

رأى جرجـي أن بـاب الـزواج انفتـح لـه عـلى مصراعيـه.. ولـن يبقـى إلا القليـل ليلجـه..

لم يمـرّ زمـن طويـل، عـلى مـا دار بـين المختـار وابنـه. اقـترب جرجـي مـن أبيـه، في عشـية دافئـة، مـع ابتسـامة عريضـة، وأسرّ في أذنـه أنّ سـما ليسـت بعيـده عـن فهـم مـا يريـده منهـا.. النظـرة إشـارة، بعـد نظـرات، والبسـمة إشـارة .. أيضـاً، بعـد نظـرات.. والكلمـة، بعـد كلـمات.

مـلأ المختـار يـده مـن كلام ابنـه، ومـما تهيّـأ لـه، مـن إشـارات سـما. فاعتـبر أنّ الطلـب قريـب المنـال. فاتـح المختـارُ محبّـة، بموضـوع زواج ابنـه جرجـي، مـن ابنتهـا سـما، عـلى أن يبقـى طـيّ الصـدور، بانتظـار موافقـة سـما.. ومـن ثـم جـمال، بعـد موافقـة أمهـا. سـألتها.. سـما لم تـردّ.. وإن شـعرت بغبطـة تغمرهـا.. كانـت تشـعر بنظـرات جرجـي، دون أن تحـاول تفسـير مـا وراءهـا.. وجـلّ مـا سـمعته منـه، تحيـة الظهـيرة، أو

المساء، لتردّ بأحسن منها.. وإن أحسّت مؤخراً، أنه يتقصّد الاقتراب منها، ليحدّثها، أو يسألها، عن أي شيء. ها هو الآن، يطلب يدها، وإن بالوساطة.. لم يكن بجرأة جمال.. طبعاً، ولا بوقاحته.. عندما قال لمحبّة، وبالفم الملآن: «أنا بحبّك.. وبدّي ياكي». هذا ما أسرّته إليها محبّة.. عند سؤالها، عن كيفية مفاتحة أخيها لها بحبّه.. لا بأس.. فليكن.. ولكن، عليها أن تنتظر عودة أخيها، لتسأله، وتحصل منه على الموافقة.. وهي لا تشكّ في حصولها عليها.

تغيّرت نظرة سما إلى نفسها. لم تعد الفتاة الوحيدة، الغارقة في حزن والدتها، والتائهة في محيط، لا قرار له ولا حدود.. صار هناك من يهتمّ بها، ويضعها في باله، ويفكّر في أحوالها، ويتخيّل ما عليها من جمال وفتنة.. هنا، ضحكت في عبّها، وتطلّعت يمنة ويسرة، خوفاً من سرقة ما يختلج في أعماقها، وهي لم تنبس بكلمة واحدة.. وما رسّخ قناعاتها، وأزاد من ثقتها بنفسها، ومن حلاوتها، تزايد مشاوير جرجي على الدرب، الملاصق لمنزلها في الروحة والعودة، علّه يحظى بنظرة منها.. وغالباً ما كان يحصل عليها.. وأكثر، عندما تلحظ مروره.

لم يختبئ طلب المختار، لفترة طويلة.. والضيعة لا يختبئ فيها سرّ.. فكيف إذا كان هذا السر يخصّ ابن المختار..؟ انتشرت الأقاويل التي تفيد بأن ابن المختار جرجي، سيحظى بسما عروساً له.. نيّاله.. لا نيّالها.. حصيلة ما كان يتردّد بين صبايا الضيعة وشبابها، القريبين منها ومنه.. أما

أقاربها، وأعمامها على الخصوص، فقد اعتبروا أنفسهم، منذ تلك اللحظات، أنهم مسؤولون عنها، وأوصياء عليها.. في غياب والدها وأخيها.. والقرار الأخير يعود إليهم. لم تعِر مريم وسما أي اهتمام للأمر، وهما يعرفان الأصول.. ولم يردّا، بعد، على طلب المختار، بانتظار عودة جمال.. هو يتحمّل الأمر ويقرّر.

لم يكتفِ الأعمام بالاعلان عن مسؤوليتهم ووصايتهم، في التعاطي مع مسألة زواج ابنة أخيهم، بل تقدّم أحد أعمامها، ابراهيم وهو أصغر من أكبرهم، ليس ليطلب يدها، بل ليبلّغها أن سما ستتزوّج بابن عمّها خليل، لأن ابن العمّ أحقّ بها من الغريب، والغريب هنا، أيّ شاب من خارج العائلة، ولو كان ملكاً.. ترك كلمته أمام أمّها، ومشى..

اسودّت الدنيا أمام عينَي مريم، أمّ جمال.. ماذا عليها أن تفعل..؟ لم تبلّغ ابنتها، ما حصل معها، وما عرفته من سلفها ابراهيم.. لن تقول شيئاً، إلا إذا سألتها سما.. وإذا لم تسأل، ستترك الأمر برمّته إلى جمال.. وإذا لم يعد.. لكل حادث حديث.

إلا أن سما سألتها..

- زيارات عمّي ابراهيم قليلة.. ماذا يريد؟؟

- لا شيء يا ابنتي.. لا شيء..

بانَ في صوتها بعضُ القلق..

- قولي لي يا أمّي.. لا تتركيني، مشغولة البال..

- جاء ليبلّغني بأنك ستتزوجين بابن عمّك خليل.. لأنه هو الوصيّ عليك..

- وبماذا أجبتِه يا أمّي..؟

- لم أردّ عليه.. قال كلمته، وراح.. حتى أنه لم ينتظر جواباً مني..

- حطّي في بالك أنني لن أتزوّج منه.. مهما حصل.. لا أريد أحداً منهم.. ولن أتزوّج أصلاً..

- سننتظر عودة أخيك.. وهو يقرّر..

- وأنا..؟ ألا رأي لي في موضوع زواجي..؟

- بلى.. بلى.. أكيد.. يا عيون أمّك.. لن يعطي أخوك رأيه، قبل أن يستشيرك، ويأخذ رضاك.. أضمن لك ذلك.. لا تخافي.

هدأت جوارح سما.. ودخل الاطمئنان إلى قلبها.. وهي تعرف منزلة أمها عند أخيها.. لن يخرج عن رضاها، ورضى أخته.

اشتدّ الضغط على سما من أعمامها.. واستعجلوا الحصول على موافقتها، حتى قبل عودة أخيها من البرازيل.. الأمر لا يحتمل التأجيل.. وهم يدركون أنّ أمر التفضيل بين ابن

عمّهـا، والغريـب، لـن يكـون لمصلحتهـم. لا بـأس مـن بعـض الضغـط، وبعـض التهديـد، مـع مـدّ اليـد بالصفـع، والشـتيمة، للقبـول بمـا يريـده كبـار العائلـة، والرضـوخ لمطلبهـم.. لم يحظـوا بجـواب مُـرضٍ.. وجـلّ مـا حصلـوا عليـه، ولم يكـن فيـه شيء مـن الاطمئنـان، أنّ عليهـم انتظـار أخيهـا، ليأخـذوا الجـواب النهـائي، شـافياً كان أو مؤذيـاً.

عـرف المختـار مـا تعرّضـت لـه سـما مـن ضروب العنـف، مهانـة وتهديـداً وضربـاً. زار أم جـمال، في وضـح النهـار، ليعـرف الجميع سـبب زيارتـه، واسـتعجلها في الـردّ، لأن الوضـع لا يحتمـل، ولا يطيـق رؤيـة سـما تتعـذب.. وقـد اشـتمّ مـن رفضهـا لابـن عمها، أنهـا موافقـة عـلى الـزواج مـن ابنـه.. وقائـع كثـيرة أثبتـت لـه أنهـا موافقـة، بشـهادة جرجـي نفسـه، وقـد لحظهـا في سـلوكها تجاهــه؛ سـلوك لا يمكـن أن يفـسّر، إلا بأنهـا تهـواه.. ودليـل القلـب لا يخيـب.

بقيـت مريـم عـلى قولهـا.. وقـد أزادت مـن اطمئنـان المختـار، عندمـا أبلغتـه بـان البنـت ابنتـه، ولـن تخـرج عـن طوعـه.. وهواهـا مـع ابنـه دون أحـد سـواه.. ولكـن الأصـول تقـضي، بـأن تكـون الكلمـة الأخـيرة لرجـل البيـت.. وهـو، بـدون أدنى شـك، عائـد.. لم يبـقَ إلا القليـل..

بقـي الأمـر بـين أخـذ وردّ، مـع أقـارب سـما.. وسـط التهديـد والوعيـد، وهـي وأمهـا عـلى موقفهـما.. تدخّـل كل أعـمام سـما، ومـن لاذ بهـم، لاقناعهـا بابـن عمّهـا.. وآخـر كلام قالتـه سـما جهـراً: كيـف أتـزوّج مـن ابـن عمّـي، وهـو بمثابـة أخـي..؟ ابـن

عمّـي يمـون عـلى دمـي، ومسـتعدة أن أفتديـه بنفـسي.. ولكـن مـن المسـتحيل أن أكـون زوجـة لـه.. قولـوا لي.. كيـف يمكـن أن يتـزوّج الأخ مـن أختـه؟؟

خفّـف هـذا الـكلام مـن وهـج غضـب العائلـة.. إلا أن ابراهيـم، أكـثر الأعـمام تطرّفـاً، ورغبـة بهـا لابـن أخيـه، قـال بالصـوت المـلآن..

– يسـتطيع ابـن العـم إنـزال العـروس عـن هودجهـا، والـزواج بهـا.. يسـتطيع أن يسـحبها مـن تحـت يـد الخـوري في إكليلهـا، وليـس عـلى أحـد أن يعـترض.. هـذه عاداتنـا، وهـذه تقاليدنـا.. وليصمُـت المنافقـون..

كاد الأمـر أن يتطـوّر، ليصـير مـشروع مواجهـة بـين العائلتـين.. رفّـول عائلـة سـما، والحلبـي عائلـة جرجـي.. ومـن أجـل وأد الفتنـة، تدخّـلَ الأخ الأكـبر مخاييـل، وتوجَّـه إلى أخيـه.. بعـد أن سـمعه، مـرةً، يهـدّد ويتوعّـد..

– اللـه يخفيـك.. وإذا كانـت لا تريـد ابـن أخينـا؟؟ نأخذهـا غصبـاً..؟ مـا هـذا الـذي تقولـه..؟ نسـحبها مـن فـم السـبع، وإن كان حولهـا عـشرات السـباع.. بموافقتهـا ورضاهـا. أمـا بالغصـب، فـلا.. ولـو كانـت ملكـة، والتـاج عـلى رأسـها.. ونقـول اللـه يوفّقهـا، وتـرى أيامـاً أحـلى.. في كنـف مـن تحـب وتـرضى.

نـزل هـذا الـكلام بـرداً وسـلاماً عـلى الأم والابنـة، عندمـا وصـل إليهـما، بلسـان أحـد المتعاطفـين معهـما، من أبنـاء العائلـة. وزاد مـن ثقتهـما بـأن الأمـور تسـير عـلى مـا تشـتهيان، ولا ينقـص،

إلا عـودة جـمال.

كانــت محبّــة عــلى تواصــل دائــم مــع ســما وأمهــا. تتابــع أخبارهـما، وتعمـل عـلى التخفيـف مـن معاناتهـما، وتسـاعدهما في أعــمال البيــت، لتتفــرّغ الأم إلى إدارة شــؤون زراعتهــا، والاهتـمام بجلـب مـا يفـي بقـوت بقرتهـا التـي تـدرّ عليهـا، مـا يكفيهــا مــن الحليــب، ومشــتقاته، ويزيــد.

زادت مشــاوير جرجــي مــن أمــام بيــت أم جــمال، وكــثرت رؤيتـه لوجـه سـما. وتجـرّأ أخـيراً.. عـلى القيـام بزيارتهـا، برفقـة شـقيقته، بحجّـة الاطمئنـان عـلى صحّـة الوالـدة، والسـؤال عـن الغيّــاب.. لم تكــن ســوى زيــارة قصــيرة، شرب فيهــا الضيفــان مـن يـدٍ ترتجـف، وعـينٍ تحـطّ نظرهـا في الأرض. كانـت زيـارة خاطفـة.. ولكنهـا روت جنينـة عطـشى.. وزادت مـن بريـق أمـلٍ، أكـثر مـا تجـلّى في العيـون..

كانـت الزيـارة الأولى فاتحـةً لزيـارات متعـدّدة برفقـة الشـقيقة، ومـن ثـم الثانيـة، والثالثـة، مـن الشـقيقات. ولم ينفـرد جرجـي في الزيــارة، إلا بعــد عــودة جــمال مــن الســفر.. وكانــت تلــك، أولى بـوادر الخـير، في إتمـام الأمـر الموعـود.

كان جرجــي مطمئنًّــا إلى وضعــه باعتبــاره «لافيــاً» إلى بيــت غريـب.. و»اللفـي»، أو اللُّـف، هـو بدايـة قرابة جديـدة، تتكرّس بالخطبــة والــزواج. وكان مــن النــادر أن يلفــي أحدهــم إلى بيـت، ويطلـع خائبـاً أو خائنـاً. اللفـي وقبولـه مـن أهـل الفتـاة، شرط أن يكـون تحـت أعينهـم، هـو بمثابـة الخطبـة، بالمعنـى

الحديـث.. الخطبـة المتفلّتـة مـن أي قيـود، إلا مـا يرتضيـه الخطيبـان نفسـهما.. ولا بـأس إذا تـمّ النصيـب أو لم يتـمّ.. أمـا في الضيعـة، وفي تلـك الأيـام، وبالممارسـة، فـإن الإخـلال بواجبـات اللفـي وتقاليـده، يحكـم عـلى الفتـاة بالعنوسـة والعزوبـة مـدى الحيـاة، إلا في الحـالات القليلـة النـادرة. وحتـى في حـالات اللفـي والخطوبـة، كان يمكـن للفتـاة أن تـروح مـع أحدهـم، وهـي مسـميّة عـلى شـخص آخـر. والخطيفـة هنـا إجـراء متّبـع، وإن خلّـف خصومـات، ومواجهـات، ولـو إلى حـين.. إذ عـادةً مـا تعـود الأحـوال إلى طبيعتهـا، بـرضى الطرفـين، ومصالحتهـما، فتهـدأ الأحـوال.

لم يكتمـل اطمئنـان جرجـي، إلّا بعـد أن لمـس خفـوت اعـتراض عائلـة سـما، ومـن ثـم اضمحلالـه، بهمّـة مخاييـل، الرجـل الأكـثر تعقّـلاً، في عائلـة رفـول، لسِـعة صـدره، ومحبّتـه لأهـل الضيعـة، ولصداقتـه مـع المختـار.. وقـد كان، لموقفـه مـن مسـألة زواج سـما، أن توطّـدت هـذه العلاقـة، ودامـت عـلى أوجهـا، إلى أن انتقـل الرجـلان إلى جـوار ربّهـما.. وقـد اسـتمرّت هـذه العلاقـة مـع الأبنـاء والأحفـاد، وزادت بعامـل القرابـة الجديـدة.

مـرّت الأشـهر الثلاثـة ببـطء شـديد في ذهـن النسـوة الثـلاث، وهـي الفـترة المحـدّدة لزيـارة البرازيـل، مـع إمكانيـة التجديـد.. كانـت سـما ومحبّـة مطمئنتـين لعـدم التجديـد.. أمـا الأمّ، فكانـت خائفـة مـن التصريـح عـما تفكّـر فيـه. وكانـت تطلـب مـن اللـه، في الـسرّ والعلـن، أن يكـذّب أفكارَهـا السـوداء. وفي يـوم لـن ينسـينه، جـاء، راكضـاً، مَـن قـال لمريـم، بـأن جـمال رجـع.. وهـو في طريقـه إلى البيـت.

5

لم تصدّق أمّ جمال ما سمعت.. سما على العين تملأ جرّتها، ومحبّة في منزلها توضّب أغراضه.. ماذا عليها أن تفعل..؟ تركض لملاقاته؟؟ وإذا كان الخبر كاذباً..؟ كيف تتصرّف؟ وماذا تقول للناس..؟ وماذا سيقولون..؟ أمّ جمال جُنّت..؟ خسرت زوجها.. وهي الآن تدور في الطرقات، تحسّراً على خسارة وحيدها..؟؟ لا.. لا، لن تبرح مكانها.. وإذا أتى سيصل.. أين سيروح..؟ هذا بيته، ومطرحه..

وصلت سما.. الأمّ تبكي.. تدور في مكانها، ولا تعرف، ما عليها أن تفعل..

- عم يقولو إجا أخوكِ..

- ييبي.. يا الله.. أين هو..؟؟

- إسّا ما وصل.. ما بعرف.. يمكن كذب..

- سأذهب لآتي بمحبّة.. هوا.. وأعود..!

لحظات، وعادت سما ومحبّة، مع ضجيج وصراخ، في الجانب الآخر من الدرب.. تصفيق وزغردة.. وإجا جمال الأبرص.

وصل الثلاثة إلى باحة الدار معاً.. ما رآه الناس، ليس بكاءً، ولا صراخَ فرح.. ليس عرساً، ولا مأتماً.. إنه مزيج من كل شيء.. اختلط فيه العويل بالضحك.. التمايل بالرقص..

الدمـوع بالزغـردة الخارجـة مـن الحناجـر بـرذاذ ريـق المحبّـة.. كلّ ذلــك.. ولم يــرَ أحــدٌ وجــهَ أمّ جــمال، ولا جســدها.. ولا أحـدَ التفَـتَ إليهـا.. إلّا جـمال.. كانـت منبطحـة عـلى الأرض، في خشــوع، جبهتهــا تلامــس الــتراب.. لا حركــة، إلّا خلجــات تظهـر مـن كتفيهـا.. انحنـى جـمال، وحملهـا بـين ذراعيـه، وهـو يبـكي، بصـوت مسـموع.. هـذا أنـا يـا أمّـي.. هـذا أنـا.. إفرحـي وتهلّـلي.. هـذا أنـا..

لم تعــرف مريــم، أمّ جــمال، كيــف تتطلّــع إلى ابنهــا، مــن تحــت إلى فــوق، أو مــن فــوق إلى تحــت.. كيــف عليهــا أن تقيسـه.. مـن هـذا الكتـف إلى ذاك..؟ أم مـن ذاك إلى هـذا..؟ أخـيراً تطلّعـت في عينيـه.. لم تـرَ إلا ضبابـاً، ارتسـم عليـه وجـه وحيدهـا.. أغمضتهـما، وغمرتـه.. وشـدّت عـلى قـدّ مـا لديهـا مـن قـوّة.. ولـدي.. حبيبـي.. وبقيـت عـلى هـذه الحـال، إلى أن قـدّرت أنّ باسـتطاعتها رؤيتـه بالوضـوح الـلازم. تطلّعـت فيـه جيـداً، ولمسـت خـدّه، مـن هنـا، ومـن هنـا.. مـرّرت يدهـا عـلى جبهتـه، ولامسـت عينيـه، ونزلـت إلى شـفتيه وذقنـه.. غطّـت عنقـه بوجههـا، وقالـت..

– الآن صدّقت أنك عدت.. أهلا حبيبي.. أهلا..

كلّ ذلـك، حصـل أمـام نظـر سـما ومحبّـة.. سـما لم تلمسـه.. ولا سـلّمت عليـه.. في تلـك اللحظـة، جـاء دورهـا.. الدمـوع في عينيهـا، تسـيل عـلى وجههـا، وتتنهّـد.. هجمـت عليـه، وغمرتـه..

– أهــلا أخــي.. أهــلا بنــور عينــي.. غمرتــه وشــدّت، وهــي

تبـكي.. فرحُهـا تحـوّل إلى دمـوع مـدرارة، لم تعـرف كيـف توقفهـا، ولا أخوهـا سـاعدها في إيقافهـا.. إلا عندمـا قـال لهـا..

- خليني سلّم على محبّة..

لم تعـرف محبّـة كيـف عليهـا أن تتـصرّف، أمـام هـذه الجمـوع المرحّبـة.. تقدّمـت منـه، ببـطء ظاهـر، ومـدّت يدهـا، بخجـل..

- الحمد لله على سلامتك، جمال.. نوّرت الدار..

- اللـه يسـلّمك محبّـة.. الـدار منـوّر فيكـم.. ومـدّ يديـه الاثنتـين، لتسـتقبلا يدهـا.. وفي هـذا.. المعنـى المعـبّر.. وكـم كان بـودّه، أن يأخذهـا بأحضانـه.. كـما أمّـه وأختـه.. ولكـنّ الموقـف لا يحتمـل..

إكتـظّ البيـت بالمرحّبـين، وامتـلأت الباحـة، وانسـدّت الـدرب.. جـمال محبـوب، وكلّ الضيعـة تحلـف بحياتـه.. كلهـم يريـدون التمـلّي مـن وجـه أمّ جـمال، ليعرفـوا بالبرهـان، كـم هـو حنـان الأمّ، وكـم هـي محبّتهـا.. وعـلى أي درجـة مـن سـلّم فرحتهـا تربّعـت، أمـام أنظـار الـكلّ.. الحركـة، والتمايـل، ولمعـة العينـين.. وحركـة اليديـن، دلائـل عـلى أنّ الدنيـا ضاقـت عليهـا.. ومَـن قـال إن الـكلام، وحـده، يعـبّر عـن المشـاعر، ويُظهـر العاطفـة؟؟ مـا ظهـرت عليـه مريـم، أم جـمال، لا يسـعه كلام، ولـو تجمّعـت كل لغـات العـالم.

لم تنحـصر فرحـة أمّ جـمال، بعـودة ابنهـا سـالماً، وهـو لم يغِـب إلا شـهوراً ثلاثـة.. ومـا ظنّـه الكثـيرون، ممّـن لا يعرفـون معاناتهـا،

ودقائـق حياتهـا، أنهـا بالغـت في إظهـار فرحتهـا، وقعـوا في وهم كبـير. فرحـة الأمّ بعـودة ابنهـا، ثـأرٌ مـن رَوحـة زوجهـا، وبقائـه هنـاك، دون أي تفكـير بالرجعـة، وإعـادة ربـط مـا انقطـع، عـلى مـدى عشريـن مـن السـنين.. بعـد أن تركهـا في عـزّ صباهـا، وفي رعايـة طفلـين، وهـي، بعـدُ، لا تـدرك مـن أمـور الحيـاة شـيئاً، ومنهـا.. مـا يحـوي أمـور التربيـة والاعالـة. فرحـت مريـم، لأن ابنهـا عـاد، ولم يمـشِ عـلى خطـى أبيـه.. هـذه هـي الفرحـة الكـبرى.. وكل مـا عـدا ذلـك تفاصيـل.

– الحمـد للـه عـلى سـلامته، يـا أمّ جـمال.. عـودة مباركـة.. كلام المختـار أهابهـا، فجمَـدت.. وقفـت، لتسـتقبل يـده بيديها..

– يطـوّل عمـرك يـا مختـار.. الحمـد للـه الـذي بمشـيئته، رجـع إلي.. الحمـد للـه..

لم تنتبه أمّ جمال، أن جرجي يقف خلف والده.. فجلست..

– الحمـد للـه عـلى سـلامة جـمال امـرأة عمـي.. الحمـد للـه، عـلى عودتـه بخـير..

انتبهـت أمّ جـمال، وهـي لا تـزال في مـا يشـبه الـشرود، مـن فرحهـا.. وحاولـت أن تنهـض.. شـدّ جرجـي عـلى يدهـا لتبقـى، وانحنـى ليقبّـل يدهـا.. فلـم تمانـع.. إشـارةٌ لهـا دلالتهـا، فهمهـا جرجـي جيـداً، كـما فهمهـا الحـاضرون، وعـلى رأسـهم المختـار.. وقـد همهـم بصـوت كاد أن يُسـمع.. صـارت البنـت بالـدار.

بقـي جـمال مشـغولاً، طيلـة مـا تبقّـى مـن النهـار، وبدايـات

الليـل.. جـاءت القناديـل مـن أهـل الجـيرة.. وحـضر اللوكـس مـن دار المختـار.. وشعشـع بيـت أمّ جـمال بالأنـوار.. كان فرحهـا لا يوصـف.. انتقـل البيـت مـن واحـة، في صحـراء، إلى بيـت عامـر، بالضـوء والنـاس.. كلّ ذلـك، بفضـل جـمال.. كيـف لهـا أن لا تجـنّ، مـن الفـرح؟؟ الرجـل زينـة البيـت، ولـو كان حجـراً.. فكيـف إذا كان بجـمالِ جـمال، وطلّتـه؟

توغّـل الليـل في دخولـه، وخفّـت حركـة الزائريـن.. محبّـة قبالتـه، تسـترق النظـر إليـه، وجـمال لا يشـيح ببـصره عنهـا، إلا للـردّ عـلى تحيّـة، أو الاجابـة عـن سـؤال. جـرأة إزاء خجـل.. كـما الذكـورة إزاء الأنوثـة.. كانـت تعـرف أنّ جـمال في شـوق شـديد إليهـا.. حركتـه ونظراتـه تنـمّ عـن ذلـك، دون أي محاولـة، لإخفـاء شـوقه، أو تخفيفـه. وهـي تبـذل الجهـد الكبـير، لاخفـاء توهّجهـا بلقيـاه..

- قومـي يـا بنـت.. تأخـر الوقـت.. ولنـدَع جـمال يرتـاح، مـن تعـب السـفر.. كان هـذا كلام جـبران زينـون، شـقيق محبّـة، آخـر الباقـين، مـع أمـه وأختـه، في بيـت أم جـمال..

وقفـت محبّـة.. اسـتعداداً لمرافقـة أمّهـا وأخيهـا، عندما سـمعت جـمال يقـول.. وقـد فاجأهـا بقوله..

- أرجـوكِ يـا امـرأة عمـي، دعيهـا قليـلاً، إذا أردتِ مغادرتنـا مـع جـبران، وأنـا أوصلهـا بعـد قليـل.. أرجـوك، يـا جـبران.

طلـبٌ جـريء.. لم يحسـب جـمال إمكانيـة رفـض الأمّ، أو الأخ.. بقيـت محبّـة واقفـة، دون حركـة.. تـروح أو لا تـروح..؟ الفصـل

في ردّ أمّها وأخيها.. وصعبٌ على الأمّ أن تردّ الطلب، وجمال قادم من سفر طويل.. ساد الصمت لفترة، تطلّعت الأمّ في وجه ابنها.. لم يبدِ حراكاً، حسبت ذلك موافقة.. طال أوان الردّ.. أكثر مَن أحسّت بطوله محبّة.. إلتقت نظراتها مع نظرات أمّها، ولكن بجمود وصمت، مطبقين..

– طيّب.. إبقي، ولكن لا تطوّلي القعدة، جمال تعبان، وعليه أن يرتاح..

قالت الأمّ، وهي تدير ظهرها.. وجبران وراءها، بلا أي كلمة.

أحسّ جمال بأن شيئاً ثميناً، وقع بين يديه.. لم يحسّ إلا أنه انحنى على يد إمرأة عمّه، يقبّلها مرة، في إثرها مرّة ثانية.. ولو لم تسحبها، لألحقها بقبلة ثالثة، أمام بهجة محبّة وفرحها، بما قالته أمها.

– تصبحون على خير، لا تطوّلي يا ابنتي.. قالت الأم مودّعة، مع نظرتها الفرِحة، لفرح ابنتها، وصمتِ جبران..

– إيه.. الآن صار فينا نحكي.. اقعدي بجانبي.. قعدت. رافق هذه الكلمات، تسلّلُ يد جمال لتلمس يد محبّة، في مشروع احتواء.. جفلت محبّة، وسحبت يدها خجلاً، وسط ضحكة خافتة من سما، وتجاهُل مقصود من أمّ جمال.. تجرّأ واحتوى يدها، وشدّ عليها..

– هل أنا مخيف إلى هذا الحد..؟ أنت لست فقط خطيبتي.. أنت حبيبتي، ونور عيوني.. وشوقي للقياك

تخطّـى كل الحـدود..

- هـاي.. نحـن هنـا.. قالـت سـما ضاحكـة، واقتربـت لتغمـر الاثنـين بذراعيهـا، بينـما ذهبـت أمّ جـمال لتنـام.. لم يعرفـوا ذلـك، إلا عندمـا قالـت.. تصبحـون عـلى خـير.. لا تطوّلـوا.. جـمال تعبـان.. والأيـام طويلـة.

اكتفـى جـمال بذلـك، وأحـس أنّ مـا قالـه، وبلمسـةِ يـد محبّـة، قـد أشـعلا شـوقاً مغايـراً، أضرم نـاراً في الجسـد، أضافَـهُ إلى شـوق مكـين.. دفعـه إلى أن يقـف، بعـد فـترة قصـيرة، وبعـد هـدوء في الجسـد، ليقـول.. مـع لمعـة في العينـين، تركهـا عـلى سـجيّتها..

- تفضّلي.. علينا أن لا نجعل أمّك تنتظر..

- يلّلا سما قومي.. لا تخلّيني وحدي معه..

قالـت ذلـك، في شيء مـن المـزاح.. المتبـوع بالخوف، مـن رؤيتهما معـاً في خلـوةِ ليـل.. نظـرةٌ شـزرة مـن جـمال.. وقَومةٌ من سـما.. وإيصـالٌ إلى بيـت المرحـوم نسـيم، و.. تصبحـون عـلى خير.

رجـع جـمال وسـما إلى البيـت، مـع كل مـا يمكـن، مـن رشـقات الـكلام الحلـو، والتعابـير الرافعـة مـن قيمـة محبّـة، في نظـر جـمال.. الطيبـة واللطـف.. الحنـوّ، وملازمـة الأم والأخـت، وكأنهـا مـن أهـل البيـت.. وسـيرة جـمال التـي لا تنقطـع، عـلى لسـانها.. والدعـاء الـذي لا يـكلّ بالتوفيـق، في كل خطـوة.. والعـودة بالسـلامة إلى أمّـه، وأختـه، و.. إليهـا. دخـلا البيـت، وإذا بـأمّ جـمال قاعـدة تنتظـر..

- ما بك يا أمّي.. افتكرنا أنك نمت.. خير؟

- فيني نام وإسا ما حكيتك.. تقبرني..؟

- بكرا بتحكيني أمّي.. شو صاير.. الأيام طويلة..!

- قعاد حبيبي.. قعاد.. وبلا حكي فاضي.. احكيلي.. كيف وصلت، وشو أكلت، وكيف نمت، ووين.. وكيف قضيت هالأيام.. حكيلي.. تقبرني أمي.. وضمّت رأسه إلى صدرها، وهي تشمّه وتفرك شعره بيد مرتجفة، وحنوّ أمّ اشتاقت لوحيدها..

- كل هذه الأسئلة.. ولا سؤال واحد عن أبي وأحواله.. إلى هنا، وصل الجفاء..؟

- ما لي وله يا حبيبي.. لماذا أسأل عنه.. ما يربطني به، بعد هذه السنين..؟ ما حاجتي إليه، والأيام الصعبة والمريرة راحت..؟ أنت صرت رجلاً ملء العين، وأختك زينة بنات الضيعة.. هكذا صرتما بغيابه.. وتفتّقت جروحي عندما قرّرتَ زيارته، وأنا صامتة.. أعدتَ لوعةَ الغيبة لتحرقني، بعد أن همدَت لوعةُ غياب أبيك..

- لا يا أمّي.. لا تزيديها.. وعدتك سأعود، وأقسمت بحياتك، وحياة أختي، أنّي سأعود.. وها أنا عدت..

- الخوف يا حبيبي.. الخوف.. الحمد لله لم تطلَع مثل أبيك.. الحمد لله.. لقد أعدتَ إلى نفسي بهجة الحياة.

ضـمّ جـمال وجـه أمّـه إلى صـدره، وهـو يقبّـل شـعرها، بدمـوع ظاهـرة في العينـين، ودمـوع مـدرارة سـقطت مـن عينَـي سـما.. وهــي تــرى، لأول مــرّة، هــذه المشــاعر الجيّاشــة، بــين أمّهــا وأخيهـا.. لم تتذكّـر أنهـا رأت هـذا المشـهد مـن قبـل، إلّا لحظـة الـوداع منـذ أشـهر ثلاثـة.. أمـا الأمّ، فقـد خبّـأت مـا ذرفـت مـن دمـوع، في صـدر ابنهـا، قبـل أن ترفـع وجههـا نحـوه، وتُمطـره بالقبـل عـلى الوجنتـين..

- يلّلا قوموا ننام.. والصباح رباح.. يتسع للقول الكثير..

نهضـت مريـم، أمّ جـمال، مـن النـوم قبـل صيـاح الديـك، والليل مـا زال يتهيّـأ للرحيـل، والانقشـاع لم يصـل إلى حـدّ التمييـز بـين الكـرسيّ والعتبـة.. نهضـت.. وهــي بالـكاد أغمضـت عينيهـا.. لم يقاربهـا النـوم، لفرحـةٍ لا تسـتكين، ولأمـلٍ عـاد يفتـح أمامهـا مـدارج أيّـام تخـال أن تكـون جميلـة.. جـمال.. سـما، محبّـة.. جرجـي.. بـلا خـوف ولا قلـق مـن مسـتقبلٍ، سـيكون أحـلى مـن كل المـاضي الـذي مـرّ.. واطمئنـانٍ وراحـة بـال، بأنّهـا مشـت في هـذه الـدرب الموحلـة، والممـرات الشـائكة، ونجحـت في إيصـال ولديهـا إلى بـرّ الأمـان.. وكل مـا عـدا ذلـك لا يهـم.. فقـد راح، وارتاحـت.

دخلـت مريـم إلى مـا يمكـن تسـميته بالمطبـخ، ردهـة طويلـة ببـاب مسـتقلّ، يوصـل إلى مربـط البقـرة، في العمـق.. وِجـاق وأوانٍ نحاسـية عـلى جانـب، مـع رفّـين مـن الخشـب مزيّنَـين بتطريـزات ملوّنـة، مـن شـغل سـما، وصحـون معدنيّـة وخزفيّـة، مـع أكـواب بيضـاء للشـاي، والأصغـر منهـا للقهـوة، أكـواب مـن الزجـاج مرصوفـة، بترتيـب وأناقـة.. وموقـد ترقـد عليـه طنجـرة

نحاسية صغيرة.. وكرسيّان من القشّ، على الجانب المقابل، مع كرسيين آخرين، في منتصف الرواق.

بدأت تعدّ أمّ جمال الترويقة الأولى لابنها، بعد عودته.. البيض المقليّ بالسمنة الزبدية، والقريشة البيضاء.. اللبن الرائب، وكأنه قطع من الجبنة، الصعتر البلدي مع زيت الزيتون النادر الوجود في تلك الأيام، وإبريق الشاي الذي عليها أن تعدّه، حالَ مجيء جمال وسما، ليبقى ساخناً..

- يلّلا يأ أولاد.. قوموا.. الترويقة جاهزة.. صار الظهر..

- يا الله.. لم يطلع الضوء، بعد، يا أمّي.. صرخت سما.. وأفاقت جمال..

- شو في.. ماذا حصل..؟ صرخ جمال.. وقد نهض جالساً..

- الترويقة يا عيني.. أمّك تنادينا على الترويقة..

- سما.. الله يرضى عليك.. اندهي لمحبّة لتتروّق معنا..

- روق خيي.. روق.. بعدها نايمة.. بلا جلاقتك هلأ.. مرة تانية منعزمها، قبل..

تطلّع جمال إليها بحنق.. وسكت.

- الله يا أمّي.. من أين هذا كلّه.. وكيف وجدته، بهذه السرعة؟؟ من زمان.. لم آكل أكلاً طيباً، كهذا.. اشتقت إلى أكلك يا أمّي.. اقتربت منه أمّه لتحضنه.. سبقها وانحنى على يديها، يشبعهما تقبيلاً، وسما تتمايل من ورائهما، بفرح ظاهر، وضحكة من القلب.

6

عـاد يوسـف، أبـو جـمال، إلى منزلـه، مكسـور الخاطـر، ملبّـد البـال، بعينـين زائغتـين، بالـكاد تكشـفان لـه مسـيره، يتهـادى عـلى الطريـق، ويتمنّـى أن تطـول أمامـه، ليزيـد تفكّـره بمـا وصلـت إليـه الأمـور، مـع رجعـة ابنـه إلى الوطـن، ولقائـه مـن جديـد لأمّـه وأختـه.. وحبيبتـه. وهـو هنـا يسـتعيد مـا مـرّ معـه في الحـاضر، ويسـترجع آلام تلـك الأيـام الصعبـة التـي فصلتـه عـن أسرتـه، وابنتـه كانـت مـا تـزال جنينـاً في بطـن أمهـا، وفي أشـهرها السـبعة.

كان يعـرف تمامـاً، أن غرقـه المتواصـل في العمـل دواؤه الوحيـد، ليزيـح هـذا الهـمّ، بـل الإثـم، الـرازح عـلى صـدره.. كيف قـدِرتُ عـلى تـركِ مـن أحِـبّ..؟ كان التوغّـل في إغـراق نفسـه في العمـل، الوسـيلة الوحيـدة للهـرب مـن الجـواب.. ويعـرف، كـما تعـرف زوجتـه وأهـل بيتـه، الجـوابَ الـذي لا بـدّ منـه.. إنـه الفقـر، بـل الدرجـة الأدنى مـن الفقـر، الموصلـة إلى الجـوع القاتـل.. وقـد وصـل الكثـيرون إلى هـذه الحالـة، ومنهـم أهلـه وأقاربـه، بعـد سـنوات قليلـة مـن هجرتـه.

هنـا، مـرّ عـلى بالـه، مـا أخـبره بـه أخـوه نجيـب، عنـد وصولـه، عـمّا حصـل لابـن جـاره جرجـس حنـا، مخاييـل.. وهـو يعرفـه معرفـة بسـيطة. وهـو خـبر قطّـع قلبـه، وقلـب كلّ مـن سـمعه مـن المهاجريـن..

قـال نجيـب لأخيـه يوسـف، وهـو يفـرك يديـه.. لم يبـقَ شيء عنـد مخاييـل لـلأكل، إبـان الحصـار وزحـف المجاعـة. ثلاثـة أبنـاء وزوجـة يتضـورون جوعـاً.. يسـمع الـصراخ، ويبـكي. والدنيـا في عـزّ الشـتاء.. فتـح البـاب.. خـرج وأغلقـه. لم يـردّ عـلى زوجتـه لمّـا سـألته.. اختفـى مخاييـل.. وضـاع في عـالم مجهـول.. إلى أن وصـل إلى البرازيـل.. وصلـت أخبـاره إلى يوسـف رفـول، والمنطقـة مقصـد البواخـر مـن السـاحل اللبنـاني.. تعـرّف عليـه وفهـم منـه، أنـه يعمـل في التجـارة المتنقلـة والحالـة مسـتورة.. وغـاب عـن النظـر.. دون أن يعـرف منـه أي شيء آخـر..

تذكّـر يوسـف رفـول مـا عرفـه مـن أحـوال مخاييـل حنـا عـلى بسـاطتها، وراح عـن بالـه، إلى أن أتى نجيـب عـلى ذكـره.. سـأله المزيـد عـن أخبـاره.. وعـرف منـه بـأن الزوجـة، وأطفالهـا الثلاثـة، ماتـوا جوعـاً، بعـد أن تركهـم الـزوج والأب، وهـرب. ولم ينـسَ أن يخـبره، بـأن أخـاه جرجـس أطلـق أسـماء أبنـاء أخيـه المتوفّـين، عـلى أولاده، عندمـا تـزوّج ورُزق بالأبنـاء والبنـات.. إلّا اسـم مخاييـل.. الاسـم الـذي لم يظهـر، بعـد ذلـك، في عائلـة حنـا..

عـرف مخاييـل بمصـير أسرتـه، بعـد ذلـك بسـنوات طويلـة.. أتت المعرفـة بالصدفـة، ولم يسـأل.. وكان أن اضطـرّ إلى سرد حكايتـه لمـن أخـبره، بمـا حصـل لأسرتـه في الضيعـة.. وصـارت حكايـة تُحـكى في سـاو باولـو، ومحيطهـا في البرازيـل، وفي الضيعـة.. وقـد انضمّـت إلى لائحـة الحـوادث الموجعـة التـي ضربـت لبنـان، إبـان الحـرب الأولى، وأدّت إلى مجاعـة قضـت عـلى الكثيريـن.

عـاش مخاييـل بقيـة حياتـه في البرازيـل، مـات ودُفـن هنـاك، ولم يصـل منـه خـبر واحـد، إلى الضيعـة.

تقـول الحكايـة المسـتقاة مـن مخاييـل نفسـه، عـلى لسـان راويهـا، إنـه لم يتوقّـف إلا في المنيـة، البلـدة الأقـرب إلى الضيعـة، عنـد صديـق والـده حسـين علـم الديـن، ليمـدّه بمـا يمكـن أن يوصلـه إلى بـلاد اللـه الواسـعة، فيَحسـب اللـه ثوابـه، ويَسـترجع مالـه إذا تيـسّر.. أخـذ مـن المـال خمـس عثمليـات، وراح دون أن يلتفـت إلى الـوراء.. مؤمنـاً بـأنّ اللـه سـيتدبّر أمـر أسرتـه.. وصـل إلى الميناء، عـلى ظهـر حنطـور يحمـل الليمـون، واعتـلى الباخـرة، بعـد أن دفـع مـما يحمـل، أربـع. ولم يسـأل إلى أيـن.. لا أوراق ولا هويـة. سـجّلوا اسـمه، ليصبـح مـن عـداد الراكبـين. حطّـت الباخـرة في البرازيـل، وصـار مخاييـل مـن قاطنيهـا.. لم يعـرف أنـه صـار في البرازيـل إلا بعـد شـهور. ولم يعـرف مـا حـلّ بأسرتـه الصغـيرة، ولا حـاول أن يعـرف.. أو أن يتعـرّف عـلى أحـد، مـن أبنـاء بلـده أو ضيعتـه.. وكان في البرازيـل منهـم كثـيرون. عمـل وجاهـد، وألغـى مـن ذاكرتـه كل مـا يمـتّ إلى أهلـه بصِلـة.. إلى أن عـرف مـا حصـل، فحـكى حكايتـه، لعلّـه في ذلـك يخفّـف مـن فعلـه الشـائن.

حمـدَ يوسـف رفـول اللـه وشـكرَه، لاتّخـاذه قـرار الهجـرة، ولقيامـه بهـذه الخطـوة التـي اعتبرهـا إلهامـاً منـه، بعـد أن وصلتـه حكايـة مخاييـل. كـما حمـدَه أهلـه وزوجتـه.. فقـط، لأنـه اسـتطاع مدّهـم بمـا يكفـل عـدم المـوت جوعـاً، ولـو إلى حـين.. وقـد عـرف مـا حـلّ بـأسرة مخاييـل بـأمّ الأذن. وهـو مـا

كان يمكـن أن يحصـل لأسرتـه وأهلـه، لـو بقـي قاعـداً، ينـدب حظّـه ومصـيره.

كان أبـو جـمال، يعـزّي نفسـه بهـذه الخلاصـة، محـاولاً أن ينـسى مغـادرة أسرةٍ في بدايـة بنائهـا، ولا معيـل لهـا سـواه.. ولا ثمـة، مـا يغطّـي غيـاب الـزوج والأب، إلا الهمّـة التـي تمتّعـت بهـا الزوجـة والأمّ.

وصـل أبـو جـمال إلى المنـزل، ركـن سـيارته، ودخـل المكتـب، وما زال مكبّـاً عـلى التفكـير في حالـه وحـال ابنـه، وسـفره المفاجـئ، دون أن أن ينـسى ضرورة هـذا السـفر، ليبقـى إلى جانـب أمّـه وأختـه، وإن كان يأمـل أن لا يكـون ذلـك، إلا إلى حـين. وكان يـدرك تمامـاً أن زيـارة ابنـه وتعـوّده عليـه، في هـذه الفـترة القصـيرة، أيقظـت لديـه حنينـه إلى أسرتـه الصغـيرة، ورغبتـه الجامحـة في انضمامهـا إليـه، ولـو كلّفـه ذلـك جهـداً كثـيراً في الإقنـاع.. أمـا المـال، فـلا أهميـة لـه، أمـام لَـمّ الشـمل.

عـاد أبـو جـمال ليتفكّـر في حالـه، وفي مـا آلـت إليـه أمـوره، بعـد وصولـه إلى البرازيـل، قبـل أكـثر مـن عشريـن سـنة، وحلولـه ضيفـاً عـلى قريـب لـه، مـن قريـة مجـاورة، وتعهّـده لـه بتدبـير أمـر عملـه، بالسرعـة اللازمـة.. حـضر إلى ذاكرتـه مـا كانـت عليـه حالـه، وهـو بانتظـار إيجـاد العمـل المأمـول، عـلى أي وجـه، كان شـكله.. همّـه أن يحصـل أولاً بـأول، عـلى مـا يكفـي لـردّ الناولـون إلى صاحبـه، وتدبـير أمـر منامتـه، ليفـكّ الثقـل عـن مضيفـه ابـن الأصـول. وكلّ مـا بعـد ذلـك، هـيّن..

أمرٌ هـذا شـأنه، يجعـل مـن صاحـب الحاجـة مجـدًّا في عملـه، مثابـراً فيـه، عاملاً عـلى إجادتـه، مهـما كان نوعـه.. لأن الحاجـة ليســت فقــط أمّ الاخــتراع، بــل هــي أيضــاً، أمّ التفنّــن وأمّ التضحيـة، ليكـون العمـل عـلى أفضـل مـا يمكـن..

هكـذا ظهـرت نتيجـة جهـد أبـو جـمال وإخلاصـه في العمـل، مـن اللحظـة التـي عرّفـه فيهـا قريبـه، عـلى صاحـب مصنـع المفروشــات الخشــبية.. كان همّــه أن يتقــن العمــل، وهــو صاحـب نظـرة فيـه. وكان يؤمـن بـأن الاتقـان، والحفـاظ عـلى الوقـت، واسـتثماره، جـوازُ المـرور إلى قلـب ربّ العمـل.. وقـد حظـي جـمال بقلـب ربّ عملـه.

قفـز تذكّـر أبـو جـمال إلى مـا كان عليـه في الوطـن.. عائلـة كبرى مـن أب وأمّ، وسـبعة إخـوة وأخـت، ثلاثـة منهـم متزوجـون مـع أبنائهـم، في بيـت واحـد.. وأرض صغـيرة لا تكفـي مؤونـة الأفـواه الجائعـة، في قريـةٍ لا يرحمهـا عسـكر السـلطة العثمانيـة التـي عليهـا تدبّـر مصاريفهـا، مـن الضرائـب المفروضـة عـلى الأهـالي، ولـو كلّفهـم ذلـك التخـلّي عـن الثـور أو البقـرة أو الدواجـن للدفـع.. والغـلاء الـذي يـأكل المـال قبـل أن يُـصرف، واحتـمال تجنيـد غـير المسـلمين، بعـد أن سـاد زمـن الاصلاحـات، ومـن ثـم توقّـف.. ليعـود. والتفتيـش عـن أي طريقـة للهـروب، غـير المـوت.. كل ذلـك، خفّـف مـن حـدّة ضغـط الذنـب الـذي مـا زال يحـسّ بـه أبـو جـمال، منـذ تلـك اللحظـة التـي أدخلتـه بطـن الباخـرة، قاصـداً البرازيـل.

عـاد ليتذكّـر مـا واجهـه في بـلاد الغربـة.. عمـلٌ متواصـل، وجهـد

لا يصرفـه غـيره، إلّا عـلى عمـل لمالكِـه، لا لأجـيرٍ فيـه. نشـاطٌ ملحـوظ، أمانـة خالصـة، إتقـان في العمـل، وتدرّجـه إلى أن صـار خبـيراً فيـه، بعـد أن كان مجـرّد فعـلٍ عضـليّ يقـوم عـلى نقـل الأخشـاب وتجميعهـا.. تعلّـم المهنـةَ في فـترة قياسـية، وصـار معلّـماً في نـشر الأخشـاب وتجميعهـا، عـلى مقاسـات دقيقـة، وصـوَر هندسـية مرسـومة.. أتقـنَ فـنّ نقـلِ الصـورة مـن الـورق إلى الخشـب، بتماثـل أثـار إعجـاب زملائـه، وربّ عملـه، مـا جعلـه يتبـوّأ منصـب رئيـس الورشـة، ولم يمـضِ عـلى بـدء عملـه، أكـثر مـن سـنوات خمـس.

أسـند أبـو جـمال ذقنـه بيـده، عندمـا مـرّت تلـك اللحظـة التـي دعـاه فيهـا ربّ عملـه، إلى مكتبـه.. ذهـب، وهـو لا يـدري مـا يُضمـره الطلـب. وكان مـن النـادر، أن يدعـوه إليـه في مكتبـه.. كان يلتقيـه دائمـاً في الورشـة، ويطلـب منـه مـا يريـد.

- خير يا معلّم..

- إجلـس يـا معلّـم يوسـف.. خـير. أنـا أرى، يـا يوسـف، مـا تفعلـه في مصنعـي.. وأعـرف أنّ مـن المسـتحيل أن تفعـل أكـثر مـن ذلـك، لـو كان المصنـع ملـكاً لـك.. لا أدري كيـف يمكننـي أن أردّ إليـك الجميـل.. تطـوّرَ العمـل أكـثر بكثـير، عـما كان عليـه منـذ خمـس سـنوات، وهـذا بفضلـك، وفضـل إخلاصـك، وأمانتـك.. أطلـب وتمـنّ. طلبـك مُطـاع، ولـو كان المصنع نفسـه..

- أشـكرك جزيـل الشـكر يـا معلّمـي.. شـهادتك أعتـزّ بهـا.. أنـا لا أريـد شـيئاً لنفـسي، سـوى الـرضى، والسـلامة..

- طيّب.. ثمة مصنع للمفروشات قريب من هنا، معروض للبيع.. سأشتريه لك، مع كامل موجوداته، والخشب من عندي.. والموديلات ستكون خاصة به.. لا ينتجها مصنعي.. كلّ ذلك لك.. إعمل واجتهد، وادفع نصف الرأسمال، على راحتك، والنصف الثاني، هدية مني.. وزبائني مشتركون بيني وبينك، وزبائنك لك وحدك.

- لم يصدق أبو جمال ما سمعه من معلّمه.. وقف دون إرادة منه، وقال..

- هذا كثير يا معلمي.. جميلك حملٌ ثقيل عليّ، لا أعرف كيف أردّه..!

- تستحقّه يا يوسف.. تستحقّه.

هذا ما حصل.. وغيّر مسرى حياة يوسف.

تململ أبو جمال في مقعده الوثير.. وهو يسترجع كلاماً سمعه من زمان. كلام كان فاتحة إطلالته على الصناعة والتجارة، في مقاطعة سان باولو. تابع شريطُ ذكرياتِه مرورَه الذي لم يدُم، في حال العزّ، أكثر من بضع سنوات، قبل الكساد الكبير الذي أخذ كل ثروته، وترك له أراضٍ شاسعةً، لا نفع منها ولا فائدة، في عصر التضخّم الذي أكل كلّ شيء، إلّا ما كان بين الأيدي من ذهب ومصاغ، وأرض وبناء ومعدّات، لا أحد يسأل عن أثمانها.

هنا، مرّت في خاطره، السنوات العجاف التي أُتخِمت

بوصـول المهاجريـن مـن بـلاد المـشرق، ومـن سـورية ولبنـان، عـلى الخصـوص.. آلاف مؤلّفـة، وميادين عمـل ضيّقـة، وقبـول بـأي عمـل متوفّـر، مهـما كان شـأنه.. تجـارة الكشّـة كانـت السـائدة.. يحمـل فيهـا البائـع مـا خـفّ حملـه، وضيّع فيـه مبلغ شرائـه، مـع تسـاهل أصحـاب التجـارة، بمدّهـم بالبضاعـة، بدفـعٍ مؤجّـل اتّـكالاً عـلى كفيـل، أو سـحنة الوجـه، وصفـاء العينـين.. ولم ينـسَ يوسـف الذيـن قضـوا في مجاهـل البـلاد، وغاباتهـا، دون أن يـدري بهـم أحـد، حتـى أهاليهـم الذيـن شـكُوا مـن عقـوق أبنائهـم، وهـم لا يـدرون أنهـم ضاعـوا في المجاهـل، ولم يحظـوا بمـن يصـلّي عليهـم، ويدفنهـم.

أمـا الأقلّيـة، وهـو منهـم، فقـد نجحـوا في تدبـير أمورهـم، وبرزوا في عـوالم متعـددة، ليسـت التجـارة إلا واحـدة منهـا. ومـن سـوء الطالـع، أن قضـت الأزمـة العالميـة عـلى النمـوّ، وأوصلـت إلى الكسـاد والفقـر، وتوقّـف أعـمال التجـارة، إلا بمـا هـو ضروري، لاسـتمرار العيـش، بانتظـار تغـيّر الأحـوال.

في حـمأة هـذا الوضـع، كانـت زيـارة جـمال لأبيـه.. مـا رآه وخـبره، مـا كان إلا تركـةً مـن أيـام العـز.. إن كان في المنـزل وهندسـته، أو في المفروشـات وأناقتهـا.. وحتـى في السـيارة، والعاملـين في المنـزل.. ونوعيـة الطعـام.

عـاد جـمال، وهـو لا يعـرف شـيئاً عـن وضـع أبيـه المـالي، وتأثـير الأزمـة عليـه.. ولا أبـوه أسرّ إليـه بـشيء.. عـاد وهـو يعـرف أن أبـاه كان عـلى أفضـل حـال.. وأن الوضـع في أزمـة، ولا بـدّ إلا أن تنجـلي عـلى خـير. وهـو يـدرك تمامـاً أنّ الجـوّ في البرازيـل، غـير

الجـوّ في الضيعـة، بوجـود الأهـل والحبيبـة، وبندقيـة الصيـد، والأصحـاب.

كان في خاطـر أبـو جـمال أن يخـبر ابنـه، بنيّتـه المصمّمـة عـلى جلـب الأسرة إلى البرازيـل. ولكنـه بقـي مـتردّداً، ولم يفصح إلا عن بعـض التلميحـات.. لم يمتلـك، بعـد، القـدرة عـلى تنفيـذ إرادتـه المصمّمـة.. الوضـع مـا زال عـلى حالـه مـن السـوء.. والمسـتقبل لم تظهـر معالمـه الواضحـة.. ولا يريـد أن تكـون خطوتـه ناقصـة، فيزيـد هـمّاً جديـداً عـلى همـوم أعمالـه..

إلا أن مجـيء جـمال، ورجعتـه بهـذه السرعـة، أيقظتـا لديـه إرادة الفعـل، وأحـسّ بالمقـدرة عـلى تنفيـذ مـا يأملـه، بعـد سـنتين مـن عـودة جـمال.. إلى الوطـن.

في رسـالة مؤثّـرة جـداً، كتـب أبـو جـمال، بلغـة برتغاليـة صافية، مـع حوالـة ماليـة بـآلافِ عملـةِ تلـك الأيـام، يطلـب مـن أسرتـه أن تقـوم بتجهيـز معامـلات السـفر، بعـد موافقـة السـلطات البرازيليـة عـلى طلـب الهجـرة، لثلاثـة أشـخاص.. ومـا عـلى جـمال، إلاّ مراجعـة القنصليـة البرازيليـة، في بـيروت.

لم يفاجـأ جـمال بالأمـر.. سـمع كلامـاً في هـذا الخصـوص، وإن تلميحـاً، لمّـا كان في كنـف أبيـه.. ولكنـه لم يـأت عـلى ذكـر ذلـك، أمـام أمّـه وأختـه.. والآن، مـاذا عليـه أن يفعـل.. وقـد وضعـت الرسـالةُ الأسرةَ، أمـام واقـع جديـد..؟

لم يظهـر هـذا الأمـر عـلى وجهـه، إلّا بعـد أن قصد جـمال مترجماً في المدينـة، دلّـه عليـه لطـف اللـه.. وكان أن ترجـم النـص إلى

العربيـة، بلغـة جميلـة، واتقـان نحـوي بديـع.. وبـدون مقابـل..

- ولو؟؟ الأستاذ لطف الله له علينا الكثير.

جمـع جـمال أمّـه وأختـه، وقـرأ عليهـما الرسـالة، في حضـور محبّـة.. أحـسّ بتململـ الأم، وتنهُّـد الأخـت، وانكتـام نفَـس محبّـة، لعـدم ذكـر اسـمها في الرسـالة.. أنهـى القـراءة، والتفـتَ إلى أمـه.. لنـترك الأمـر إلى الغـد، وليتفكّـر كل منّـا، بمـا حملـت.

تفطّنـت محبّـة سريعـاً، إلى عـدم ذكرهـا، في رسـالة أبـو جـمال.. وقـد أرعبهـا الأمـر، وأخـذ مـن عينيهـا النـوم، وأوقعهـا في لجّـة عميقـة مـن القلـق، الممـزوج بالتفكـير في حالهـا، ولمـا تمـضِ سـنوات قليلـة عـلى مجـيء جـمال، مـن هنـاك. مـاذا عليهـا أن تفعـل، إذا قبِـل بمـا أراده أبـوه؟؟ تسـاءلت مـع نفسـها أولاً، قبل أن تُـسرّ بهواجسـها إلى جـمال. مـا شـغل بالهـا أكـثر تسـاؤلٌ، خافَـت أن يأخـذه جـمال، عـلى غـير مـا أخذتـه.. مـاذا لـو كان الأب يُـصرّ عـلى إحضـار أسرتـه، بدونهـا، أو بعـد تجاهلهـا؟ إنـه، بـدون أدنى شـكّ، يـدرك أنّهـا لـن تحـضر، إذا لم يطلـب منهـا المجـيء، بعـد زواجهـا مـن جـمال، وبإذنـه ومباركتـه..؟ هـل فعـل ذلـك، ليرفـع العتـب عـن كاهلـه، فيُريـح ضمـيره، ويـترك العنـان لرغبتـه في الـزواج، مجـدّداً، وليعمـل عـلى تأسـيس أسرة ثانيـة، تقِيـه شر الوحـدة.. وتؤمّـن لـه مَـن يـرث تركتـه، بعـد المـوت..؟

لم تنَـم محبّـة، ولا طاقـت الانتظـار.. اسـتعجلت طلـوع الصبـح بصـبر نافـد.. تركـت البيـت عـلى عجَـل لتلقـى جـمال.. كان

نائمـاً.. أيقظتـه، وهـي تعلـم أنـه لا يطيـق أن يوقظـه أحـد، حتـى وإن كانـت محبّـة..

- خير شو في عند هالصبح؟؟

- خاطرٌ خطر، وأريد أن أُشرِكَك فيه.. ولكن من دون زعل..!

- خير.. خير.. أخفتيني.

- خير..

خرجت الكلمات من فمها، وكأنها حفظتها غيباً..

ضحـك جـمال، حتـى أطبقـت عينـاه، وغمـر يدهـا بحنـوّ ظاهـر.. وتطلّـع في عينيهـا..

- هـل تظنّـي أن هـذا الاحتـمال لم يخطـر في بـالي.. إنـه أكـثر مـا راودني في تحليـلي لموقـف أبي.. قدومـك بهـذه السرعـة، وإيقاظـي في عـزّ نومـي، دليـل عـلى أنّـك خائفـة مـن هـذا الأمـر.. هـل يُعقـل ذلـك.. هـل يقتحـم عقلَـك تفكـيرٌ مـن هـذا النـوع..؟ لا عجـب.. هـذا هـو جنسـكم..!

قال هذا الكلام ليستفزّها، ربما تسترضيه، بما يأمل..

- ألا يحـقّ لي أن أخـاف..؟ هـا أبـوك راح.. ومـن يـدري.. ربمـا تـروح أنـت أيضـاً..!

- تعرفـين أنّي رحـت، ورجعـت.. البرازيـل كلّهـا لا تسـتوي، مـع نظـرة مـن عينيـك..

قـال هـذا.. واسـتغفلها بغمـرة، كان يطمـح أن تكـون بمبـادَرة منهـا.

- ماذا يا أمّي.. ماذا تقولين..؟

كانــت أمّ جــمال مشــغولة بتحضــير فطــور مميّــز، بوجــود محبّـة.. حـضرت عـلى أثـر النـداء، تبعتهـا سـما. جلسـتا.. وسـما تنظـر بعينـين واجفتـين، إلى محبّـة.

- مـا بعـرف.. الـرأي رأيـك، ورأي أختـك، يـا حبيبـي.. الـلي بتريـدوه أنـا معكـم.

قالــت، وهــي تــدرك أن ابنهــا وابنتهــا، عــلى طــرف آخــر، في نظرتهـما إلى المسـتقبل.. ومحبّـة عـلى صمـت، أقـرب إلى صمـت القبـور.

- عرفـتِ يـا أمـي أن لا ذكـر لمحبّـة في هـذه الرسـالة، وكأنهـا غـير موجـودة.. وهــي في نظـري، أغـلى مــن البرازيــل كلّهــا.. كيـف يريـدني أن أهاجـر، وهـو يعـرف موقعهـا عنـدي؟؟

أحـسّ بيـد محبّـة تلامـس يـده، بخفـوت لامـسَ شـغاف قلبـه.. نظـر إليهـا.. أدارت بوجههـا..

- ومـاذا نقـول للمختـار.. وقـد تعلّـق ابنـه بسـما؟؟ وإن كان أبـوك عـلى غـير علـم بارتباطهـما..؟

قالت أمّه، بقلق ظاهر..

- لا أعـرف يـا أمّـي.. لا أعـرف. هـذا مـا يريـده أبي في رسـالته..

وعلينا أن نعقد رأينا على قولٍ واحد، نردّ فيه على طلبه، إن كان بالرفض، أو الموافقة..

- يا أمي.. يا حبيبي.. من الآخر، أقول لك.. أنا سأبقى معكم، إن رحتم، أو بقيتم.. ولكن حذار من التفكير في إمكانية ذهابي وحدي إليه.. عشت معه ثلاث سنوات.. عشت معكما خمس وعشرين.. أنا معكم.. بوجوده، وبدونه.

رقص قلب محبّة وسما، وانفتحت الطريق أمام رأي جمال، ليقوله جهراً، وهو على ثقة من صحّة رأيه..

- إذاً.. سنبقى هنا ولن نسافر.. وليكن الله في عون أبي، وليفعل ما يشاء.

غمرت مريم ولديها، والدموع في عينيها، ولم ترَ محبّة نفسها، إلّا وهي تضع يدها على رأس جمال، والثانية على كتف سما، ورأسها يلامس رأس مريم، أمّ جمال.

بقي جمال على تفكير مطوّل، في ما يمكن أن يجيب أباه.. وهو يدرك أنّ هذا الطلب، جاء نتيجة تفكّر عميق من والده، قرّر فيه إعادة بناء أسرته، بالتحاقها به في البرازيل.. وكان أكثر اقتناعاً بصدق قراره، لِما خبره من خلال ملازمته له، وما رآه من معاناة عيشه وحيداً، لا رفيق ولا أنيس، إلّا ما تتيحه الأعمال.. والأعمال ما كانت يوماً، قادرة على ردم فجوة العواطف، والمعاشر.

ولكـن.. لمَ لم يـأت عـلى ذكـر محبّـة..؟ وقـد عـرف تفاصيـل مـا يربطـه بهـا، ومـدى محبّتـه لهـا..؟ هـل سـها عـن بالـه ذلـك.. أم تقصّـده، ليقطـع الطريـق عـلى القبـول بالحضـور مـن دون محبّـة؟؟ كان باسـتطاعته أن يطلـب مـن ابنـه الـزواج، ومـن ثـم التهيئـة للسـفر، ليكـون الطلـب مقنعـاً، وبعـد ذلـك، تقـرّر الأسرة السـفر أو ترفضـه.. هنـا، أحـسّ بصـواب مـا كان مـدار تفكـير محبّـة، في نظـرة أبـو جـمال إليهـا.

أدار جـمال الأمـر في رأسـه، مـن كل وجوهـه. ولكنـه لم يـشرك أحـداً في مـا فكّـر فيـه، حتـى محبّـة نفسـها. لقـد تـرك النسـوةَ الثـلاث عـلى قناعتهـنّ في عـدم الهجـرة. إلا أنـه لم يسـتطع السـكون إلى هـذه القناعـة، دون محاولـة تقديـر موقـف والـده مـن مسـألة زواجـه، وإظهـار رغبتـه، عـلى الأقـل، بمـا هـو مـدوّن في الرسـالة.. في الهجـرة إلى البرازيـل، بـدون زواج.. وبـدون زوجـة. وعـاد ليتعمّـق في التكهّـن. هـل يريـده أبـوه أن يعمـل، في البدايـة، عـلى تأمـين مسـتقبله، وإظهـار قدرتـه عـلى تأسـيس أسرة تطمـئنّ لمصيرهـا، وبعـد ذلـك يتـزوج؟ أم أنـه لا يريـد لـه الـزواج السريـع، ليعيـش وزوجتـه عالـة عـلى غـيره، وإن كان المعيـل أبـاه..؟

شـغل هـذا الأمـر جـمال، أكـثر مـن أي أمـر آخـر، جـال في خاطـره. وأعـاد التفكـير بمجمـل مـا جـاء في الرسـالة.. وقـد تعجّـب مـن وصولـه إلى هـذا العمـق، في تحليـل مسـلك أبيـه، وتفسـيره بمـا يتطابـق، في جـزء منـه، مـع تفسـير محبّـة. إلا أنـه عـاد ليتسـاءل، بينـه وبـين نفسـه، كيـف يمكـن أن يشـغله

هـذا الأمـر، وقـد عـاش حيـاة قاسـية، بـدون أب، طيلـة خمـس وعشريـن سـنة، وهـو لم يعـرف أبـاه، لأكـثر مـن شـهر وبعـض أيـام..؟ ومـا أهميـة رأيـه، أو قـراره، في مسـألة تخصّـه ومحبّـة، وهـي مـن جملـة مسـائل اتخـذ قراراتـه فيهـا، بمعـزل عنـه، ودون الاحسـاس بوجـوب استشـارته، وهـو يعـرف أنّـه حـيّ يـرزق، وإن كان بعيـداً؟ هـا هـي أمّـه لمّحـت، وفي مناسـبات عـدة، بقبـول عريـس لابنتهـا، بعـد أن أحسّـت برغبتهـا، دون الحاجـة لاستشـارته، أو اسـتمزاج رأيـه، وإن بالمراسـلة.. ولم تؤجّـل أمـر الموافقـة، إلّا لغيـاب ابنهـا، وليـس زوجهـا.

إذاً، عليه أن يحزم أمره.

خـرج جـمال مـن بحـر أفـكاره، بقـرار اتّخـذه وحيـداً.. ليـس فقـط، برفـض الهجـرة، وهـو قـد اتّفـق مـع أهلـه وخطيبتـه على ذلـك، بـل بعـدم الـردّ عـلى الرسـالة، لا بالسـلب ولا بالإيجـاب..

وليكن الله في عون الجميع..

كتـم جـمال مـا كان يشـغله، عـن أمّـه وأختـه.. وأكـثر مـا فاجأه، قـول أمّـه، بعـد أن سـألته، إذا أجـاب عـن رسـالة أبيه..

- لا يـا أمّـي.. لم أجـب، ولا أريـد أن أجيـب.. وليفعـل مـا يشـاء. لقـد تجاهـل أمـر محبّـة.. ولـن أغفـر لـه ذلـك.

- لا يـا حبيبـي، لا.. أجبـه.. لنكـن أحسـن منـه.. قـل لـه لـن نـأتي.. وليسـامحه اللـه عـلى كل شيء.. يـا ولـدي، قلـب الزوجـة دليلهـا. يعـرف أننـا لـن نهاجـر. طلـب ذلـك، ليحـرّر نفسـه.

سيتزوّج يا حبيبي.. أبوك سيتزوّج.. مبارك له زواجه. ونحن سنبقى هنا. في أيّام الحاجة استغنينا عنه..

- لا تظلميه يا أمّي. إنه وحيد هناك.. ويحقّ له أن يطالب بأسرته. ولكن، ظروفنا لا تسمح.. وأنت أدرى.

لم تظلمه مريم أمّ جمال..

بعد شهرين، أو يزيد، وصلت رسالة ثانية من يوسف، أبو جمال، يتساءل فيها عن سبب عدم الردّ، ويستعجلهم المجيء، ولن يطلب ذلك ثانية..

- أجبه يا ولدي.. أجبه، واتّكل على الله.. لا تشغل باله، وليفعل ما يشاء.

- سأجيبه يا أمّي.. سأجيبه. طوّلي بالك عليّ.. لا تقلقي.

دبّج جمال رسالة طويلة.. فصّل فيها كل ما على الأب معرفته، عن أوضاع الأسرة، والزوجة التي قضت نصف عمرها وحيدة، ومجاهدة، والابنة التي على وشك الزواج من رجل مناسب، ابن المختار الذي يعرفه الأب جيداً.. وهو الذي لا يمكن أن يهاجر بدون محبّة.. والحال في الضيعة بدءاً من أهله، مروراً بأقربائه، ووصولاً إلى كل أهلها.. وهو يعمل، والحالة مستورة.. ولا ينقص، إلا أن يكون هو بين أسرته، وأهله ومحبّيه.

كانت الرسالة الأخيرة. انقطع التواصل بعدها. وزادت الحرب الثانية من البعاد بين يوسف، أبو جمال، في البرازيل،

وأسرتـه في شـمال لبنـان. أكـثر مـن عقـد ونصـف، لا خـبر ولا رسـالة.. ذهبـت صـورة الأب مـن ذاكـرة جـمال. وانقطـع ذكـره بـين أفـراد الأسرة.. وبـدا وكأن أبـو جـمال أيضـاً، قـد اسـتغنى عـن التواصـل مـع أسرتـه.. عـلى زعـل، أو هكـذا نظـر جـمال إلى الأمـر، وفـسّره.

لم يعـرف أهـالي الضيعـة بمـا يحصـل في العـالم، إثـر نشـوب الحـرب العالميـة الثانيـة.. ولم يحسّـوا بهـا، إلّا بعـد وصـول فرقـة مـن جيـش الحلفـاء، تمركـزت عـلى مشـارف الضيعـة، وبَنـت الاسـتحكامات، والمتاريـس، لحمايـة السـاحل مـن أمكانيـة مجـيء تعزيـزات عسـكرية لقـوّات المحـور.. كانـت هـذه المناسـبة فرصـة للتعـرف عـلى العسـكر الأسـترالي، بقبّعاتهـم المتميّـزة والمطعُوجـة مـن جانـب منهـا. بنـى أهـالي الضيعـة معهـم علاقـات وثيقـة، وتحلحـل وضعهـا، نتيجـة المقايضـة بـين مـا يحملونـه مـن مـواد غذائيـة معلّبـة، بالخضـار والفاكهـة، والسـمن، واللـبن، والحبـوب.. وقـد بنـى هـؤلاء أيضـاً، صداقـات متينـة مـع رجـال القريـة.. وقـد عـرف الأهـالي، لأول مـرة، مـن خـلال هـذه العلاقـات، أشـكال العملـة الأجنبيـة، ومـشروب الـكاكاو.. ومـا كانـوا يعرفـون، قبـل ذلـك، إلا الشـاي والقهـوة، ومـا يجنونـه مـن الأعشـاب المفيـدة. ومـن جملـة مـا أخـذه الأهـالي، مـن هـؤلاء، الأسـماء الأجنبيـة للذكـور، وإن كانـت أقـل مـما أخـذوه مـن أسـماء الإنـاث. مـن هـذه الأسـماء، غراهـام، وملاتيـوس، وداني، وجـورج، ولينـدا، وكرسـتين، وماتيلدا، وجانيـت، وغيرهـا الكثـير.. وعندمـا انسـحبت هـذه الفرقـة، كان وداعهـا صعبـاً.. وقـد نُمـي للأهـالي، بعـد حـين، أنّ الباخـرة التـي

نقلتهـم تعرّضـت للقصـف في عـرض البحـر.. لم يتأكـدوا مـن الأمـر. إلا أنهـم حزنـوا عليهـم حزنـاً شـديداً.. هـذا وحـده، مـا جعلهـم يعرفـون أن ثمـة حربـاً قائمـة، وأناسـاً يموتـون.. وبقـي، في كل حـال، أهـون بكثـير، مـما تعرضـوا لـه في الحـرب الأولى.

عـاد اسـم يوسـف رفـول إلى الذاكـرة، بعـد سـنوات مـن انتهـاء الحـرب الثانيـة، بمجـيء مغـترب ضنـاوي، عـلى علاقـة وثيقـة بأبـو جـمال.. حـضر إلى الضيعـة، لزيـارة أسرة يوسـف رفـول.. لا يعـرف أحـداً.. اسـتدلّ عـلى البيـت.. وصـل وسـلّم، وسـأل عـن جـمال..

- أهلاً وسهلاً بك.. تفضل..

اسـتقبلته أم جـمال، بترحابهـا المعـروف، وعرفـت أنـه قـادم مـن بـلاد بعيـدة.. قبّعتـه وطقمـه دلّا عليـه، قبـل أن يفتـح فمـه بالـكلام.

- جـمال في رحلـة صيـد.. وسـيأتي متأخـراً. يمكنـك أن تنتظـره.. أهـلاً وسـهلاً.. وإلا سـيذهب هـو لزيارتـك.. اسـمك الكريـم.. وحاجتـك؟؟

- لا شيء.. لا شيء.. أنـا قـادم مـن البرازيـل، ولكـم سـلام مـن يوسـف، أبـو جـمال.. أنـت زوجتـه، أليـس كذلـك؟..

- أهـلاً.. أهـلاً .. تعـرف يوسـف؟؟ كيـف هـي أخبـاره.. أرجـو أن يكـون بخـير.. هـذه محبّـة، زوجـة جـمال.. سـلّمي عـلى عمـك يـا ابنتـي.. لا تؤاخذهـا.. إنهـا حامـل في شـهرها السـابع،

وقومَتُها صعبة.

لم تجبه عن كونها زوجة يوسف، أم لا.. إنها فطنة النساء..

- أهلاً عمي.. أهلاً.. يوسف بخير.. بخير.. كلّفني بزيارتكم والاطمئنان عليكم.. هو يسلّم عليكم.. لا شيء غير ذلك.. على كل حال، أنا من عاصون، واسمي عفيف الخوري.. أرجو أن أحظى بزيارة جمال.. شكراً.. السيارة بانتظاري..

نهض لينصرف، قبل أن تقوم أم جمال بواجب الضيافة..

لا رسالة.. ولا أي شيء آخر جاء مع هذا الرجل.. ولم تدرِ فعلاً إذا كان عفيف، هذا.. جاء بتكليف من زوجها، أو من تلقاء نفسه.. ربّما ليقول شيئاً، ولم يكن وقت القول مناسباً..!

انتظرت الأمّ مجيء ابنها.. وصل بعد تأخّر، فاستقبلته بالخبر الجديد.. أبوك بيسلّم عليك..

- ماذا تقولين؟؟ أبي..؟ وبعد هذه السنين؟؟ أين الرسالة..؟ ماذا يقول فيها..؟

- لا رسالة يا ولدي.. رجل جاء من هناك.. لم ينتظر، وأنت طوّلت. من عاصون، هو.. واسمه عفيف الخوري.. ويأمل أن تزوره في بيته..

لعب الفأر بعبّ جمال.. وأثاره الفضول. ثمّة شيء جديد لدى الوالد، وعليه أن يعرفه، ولن يطيق صبراً للغد.. أبقى على هندام الصيد، أعاد التمَنطُقَ بصفّ الخرطوش، حمل

بندقيتـه ومـشى، حتـى دون أن يتنـاول غـداءه، و.. إلى عاصـون، القريـة الوادعـة، المتّكئـة عـلى سـفح جبـل الأربعـين، في الضنيـة الخـضراء.

7

وصل جمال إلى عاصون، سيراً على الأقدام، منهوك القوى، تعَباً وهمّاً وجوعاً. والسؤال لم يذهب من ذهنه، لحظة واحدة.. ما عساه يكون وضع أبيه.. ولماذا جاء خبر منه، بعد طول مدة القطيعة..؟ وهل صدق حدس الوالدة..؟ هل تزوّج أبوه..؟ هل طرأ شيء جديد على حياته، يستحقّ أن نعرفه..؟ هل هو مريض يطلب السماح..؟ أسئلة كثيرة دارت في ذهنه، وهو يطرق باب الخوري ابراهيم، قريبه، ووالد مطانيوس، صديقه الحميم، والخوري فيما بعد.

– أهلاً وسهلاً يا ابني.. اشتقنا لك.. هكذا استقبلته الخوريّة، وهي تغمره، بحنانها المعهود.. كان أبونا غائباً.

– بدي آكل جوعان.. جايي من الصيد، وما حوّلت على البيت..

– تقبرني نشالله.. لحظة وبيكون الأكل جاهز..

أكل جمال وشرب، وأشعل سيكارته، قبل أن يصل الخوري إبراهيم، ويسلّم عليه..

– من هو عفيف الخوري يأ أبانا، القادم من البرازيل..؟

– ايه عفيف.. ابن عمّنا.. إنه مقيم، منذ زمن طويل هناك.. ما به؟

- زارنـا في الضيعـة، ولم أكـن موجـوداً.. يبـدو أنّ لديـه أخبـاراً مـن أبي، وأريـد رؤيتـه..

- لنذهب إذاً.. هل انتهيت..؟

- نعم.. تفضّل.

ذهـب جـمال مـع الخـوري إلى منـزل أهـل عفيـف.. كان هنـاك. اسـتقبل جـمال معانقـاً، بعـد أن عرّفـه بنفسـه.. وانحنـى عـلى يـد الخـوري، مقبّـلاً..

- إيـه.. إيـه.. عرفتـك.. كنـتَ عنـد والـدك مـن سـنين طويلـة.. إيـه.. أهـلاً وسـهلاً.

- إيـه يـا عمّـي عفيـف، أخـبرني عـن الوالـد.. كيـف صحتـه وأحوالـه؟؟

- الوالـد بخـير، تحسّـنت أوضاعـه.. وعائلتـه بخـير.. ويسـلّم عليكـم.. في الحقيقـة، لم يطلـب والـدك منـي، أن أزوركـم، أو أخبركـم عـن أحوالـه.. جئـت مـن تلقـاء نفـسي، لتعرفـوا كلّ شيء عنـه.. وهـو لا يـزال عـلى زعـل..!

- أفهم من كلامك، أنه تزوّج، وصارت له أسرة؟؟

- نعـم.. نعـم. أنـا أعـرف أخبـاره معكـم بالتفصيـل.. أبـو جـمال يُـسرّ إلي بـكل شيء. وعرفـت أنّكـم رفضتـم الهجـرة إلى البرازيـل، رغـم إصراره.. بعـد ذلـك، بسـنة أو سـنتين، أي 1935، قـرّر الـزواج، وانتقـى سـيدة برازيليـة.. تـزوّج منهـا، في احتفـال

مختـصر، حـضره أصدقـاؤه الخلّـص. ولـه منهـا ثلاثـة صبيـان، وبنـت.. وهـم عـلى أتـمّ صحـة وسـلامة.. مجلّـون في دروسـهم.. كان عـليّ أن أخبركـم بذلـك، وفـاءً لكـم، وللـكلام الكثـير الـذي سـمعته منـه عنكـم، وإراحـةً لضمـيري، لأني رأيـت أنّ واجبـي يقـضي بـأن أخبركـم عـن أحوالـه، بعـد هـذه السـنين.. لا أدري إذا كان سـيُسرّ بإخباركـم، أم سـيحرَد، ويقاطعنـي..

– شـكراً عـمّ عفيـف.. لقـد أرحتنـي بهـذا الخـبر.. وأرجـو لـه التوفيـق والسـعادة، هـو وأسرتـه.. إنهـا أسرتنـا أيضـاً، وأبنـاؤه أخـوة لي ولشـقيقتي.. وإن كانـت زوجتُـه ضرّةً لأمّـي..

ضحكـوا سـويّة، مـع خبطـة مـن يـد الأب إبراهيـم، عـلى كتـف جـمال.

– أريـدك عـمّ عفيـف أن تخـبره، إذا سـألك، أو إذا أردتَ أن تخـبره، مـن تلقـاء نفسـك، لا يهـمّ.. أني تزوّجـت ولـديّ خمسـة أولاد، ثلاثـة صبيـان وبنتـان.. كبيرتهـم في الرابعـة عـشرة، وزوجتـي حامـل، بعـد سـت سـنوات مـن آخـر ولـد.. وأختـي سـما رُزقـت بسـتة، ثلاثـة صبيـان وثـلاث بنـات، كبيرهـم في الخامسـة عـشرة. والجميـع بخـير.. وأحوالهـم جيّـدة، ولكـن.. أرجـوك، لا تبلّغـه سـلامنا..

– عيـب يـا جـمال.. مـا هكـذا يكـون الـبرّ بالوالـد، مهـما كان وضعـه..

قال الخوري ابراهيم بهدوء، وعتاب.

لقـد صحّ، إذاً، مـا توقّعتـه أمّ جـمال بالضبـط. أمـا توقُّـع جمال، فـكان وارداً، مـن ضمـن تخمينـات أخـرى. لقـد أراحـه الخـبر اليقـين، دون أن يكلّـف نفسـه التفكـير، بسـبب راحتـه تلـك.

عـاد جـمال إلى الضيعـة، ولا يعـرف كيـف عليـه أن يخـبر أمّـه، بمـا تَحَصّلـه مـن معرفـة أخبـار الوالـد.. هـل عليـه أن يخبرهـا..؟ أم يـترك الأمـر، ويكتفـي فقـط بإيصـال السـلام والـكلام..؟ توقّف عـن التفكـير، وتـرك الأمـر، لمجريـات الحديـث مـع الوالـدة..

– أهلا يا عمري.. خير؟ كيف كانت أخبار الوالد..؟

هكذا استقبلت أمّ جمال ابنها بلهفة..

– خير يا أمّي.. خير.. أحواله جيدة، ويسلّم علينا..

– هكـذا فقـط..؟ قـال لنـا الرجـل هـذا الـكلام هنـا.. لـو كان هـذا فقـط، مـا طلـب منـك رؤيتـه، ليقـول مـا قالـه هنـا.. أخـبرني بمـا قـال.

– لا شيء غـير ذلـك يـا أمّـي. يريـد أن يـراني، بعـد أن تعـرّف عـليّ في البرازيـل.. هـذا كل شيء. ومـن أجـل أن يرفـع الملامـة عنـه، إذا سـأله أبي.

– قلـب الأم دليلهـا يـا حبيبـي.. يـا تقـبر أمـك.. أبـوك تـزوّج، أليـس كذلـك؟ قـلّ لي.. تـزوّج..؟

– تـزوّج.. أو لم يتـزوّج.. يـا أمّـي، مـا الفـرق، وهـو غائـب عنـك وعنّـا، منـذ أكـثر مـن أربعـين سـنة..؟

- لا فرق، يا حبيبي.. لا فرق. ولكنه تزوّج.. أليس كذلك؟

- نعم، تزوج.. ومنذ خمس عشرة سنة، بعد أن قطع الأمل منّا.. تزوّج، وله ثلاثة صبيان وبنت واحدة.. كبيرهم بعمر ابني يوسف، وابن أختي كريم.. وهم بخير.

قامت مريم، أمّ جمال، لتُشغل نفسها في حركة عجلى، لتخفي دموعاً تجمّعت في عينيها، وعملت على تحضير الشاي، ليهدأ خاطرها.. عادت تحمل الصينية، وعلى وجهها مسحة حزن، جهدت لإخفائها، ولم تنجح.. وقد تعجّبت، هي نفسها، من هذه الحال التي أصابتها.. لم تجد تفسيراً لها.. وقد حاولت. ربّما لأنّها أحسّت بقطع هذه الشعرة التي كانت لا تزال تربطها بزوجها.. ليس باعتباره كذلك، وهي مقطوعة من زمان.. بل باعتباره أباً لابنيها.. وقد رافقها، منذ تلك اللحظة، إحساسٌ بأن جمال وسما صارا يتيمين.. وأسدلت الستار.

استمرّت الحياة في مسيرتها الرتيبة، والضيعة غارقة في تدبّر أمورها الحياتية، ببطئها المعهود. ولم يطرأ أي شيء يشي بالتغيّر، إلا دخول بشارة في السلك العسكري، أول وظيفة عامّة تحظى بها الضيعة.. ولأن بشارة يعرف القراءة والكتابة، حظي بهذه الوظيفة، والفضل في ذلك، لمدرسة الضيعة التي أدارها جمال. وأقام شابان منها، بإنشاء معمل لحجارة البناء، مع بدء تحويل البيوت الترابية، إلى بيوت حديثة، بالحديد والباطون. أول موردَين، أدخلا مالاً من خارج نطاق العمل الزراعي. تبع ذلك العمل اليدوي

اليومـي، في مشـاريع عمرانيـة قريبـة. كان ذلـك في بدايـة الخمسـينيات. وهـو عقـدُ التحـول الـذي بـدأ ينقـل الضيعـة، مـن حـال إلى حـال مغايـرة، أكـثر مـا تبلـوَرَت، وأظهـرت الفـرق، في الربـع الأخـير مـن نهايـةِ قـرن، وبدايـة قـرن جديـد.

سـبق كل ذلـك، عمـلُ جـمال في حِـرَف لا تمـتّ إلى الزراعـة بصِلـة.. وإن كانـت مـوارده متأتّيـة مـن العمـل الزراعـي الـذي يقـوم بـه الفلاحـون. وقـد تحصّلـت ميزتـه وبـانَ تميّـزه عـن الآخريـن، مـن مـال الهجـرة، أولاً؛ ومن مـردود الحلاقـة والتعليم، ثانيـاً؛ ومـن شـطارته التقنيّـة في الصيـد والعـلاج، ثالثـاً. لذلـك لم يتأثّـر بانقطـاع أبيـه عنـه، إن كان في الأخبـار، أو الأمـوال. وأدرك، مجرِّبـاً ومختـبِراً، أنـه يسـتطيع العيـش باسـتقلال عـن الوالـد، وعـن كل مـا يمكـن أن يـأتي منـه. أحـسّ بذلـك، بعـد ثـلاث عـشرة سـنة مـن آخـر خـبر سـمعه عـن أبيـه.. وكان لهـذا الإحسـاس، سـببُه الفاصـل في قطـع أي صلـة بالوالـد.

اسـتلم جـمال رسـالة مـن الخـوري مطانيـوس، ابـن الأب ابراهيـم، القـادم مـن البرازيـل، وقـد كتبهـا بخـطّ يـده عـلى لسـان أبـو جـمال.. يطلـب منـه، ومـن أختـه، توكيـلاً رسـمياً، في التـصرف بمـا يملكـه.

لم يفاجَـأ جـمال برسـالة أبيـه، وهـو يـدرك أن لا رجـاء منـه، ومنـذ زمـن بعيـد. ولأنـه تعـوّد عـلى حيـاة خاليـة مـن وجـود الأب، واهتمامـه، رأى أن موافقتـه عـلى طلبـه، لا تؤكّـد عـلى هـذا التوجـه، فحسـب؛ بـل أيضـاً، عـلى عـدم حاجتـه إلى والـده، وإن كان لـه، ولأختـه وأمـه، الحـقّ في ذلـك.

لم يعـرف جـمال كيـف أنّـه مـا زال مع أمّـه وأخته في عهـدة أبيه، وعـلى خانَتِـه، وهـو في البرازيـل، وقـد مـرّ عـلى هجرتـه، أكـثر مـن نصـف قـرن.. ولم يعـرف كيـف تدبّـر أبـوه أمـرَه، ليتـزوج مـرّة ثانيـة، وهـو مسـيحي متـزوّج، ولـه زوجـة وولـدان.. كل مـا عرفـه أنّ أبـاه طلـب إعطـاءه مطلـق الصلاحيـة، ليتـصرّف.. والابـن لـن يمنعـه عـن ذلـك.. ولكـن، عليه أن يستشـير شـقيقته، وصهـره المختـار جرجـي الـذي حـوّل الأمـر إلى ابنـه المتعلـم، والعـارف بأمـور القانـون. وكان الجـواب، عـدم ردّ طلـب الوالد.. ولـه، مـن بعـد، أن يفعـل بملكـه مـا يشـاء.

لم يتأخّـر جـمال عـن فعـل الـلازم، بعـد أن كلّـف ابنـه أمـين، وهـو لمـا يـزل دون الثالثـة عـشرة مـن عمـره، أن ينفّـذ مـا أراد أبـوه.. فـكان لـه مـا أراد.

طالـت الغيبـة، ودخـل لبنـان في أتـون الحـرب الأهليـة في العـام 1975، وغـاب عـن الأسرة أي خـبر عـن الأب والجـد، إلى أن حصـل اتصـال، بالصدفـة مـع البرازيـل، مـن أسـتراليا، في العـام 1980. وقـد عـرف جـمال، مـن خلالـه، أن أبـاه تـوفّي، منـذ خمـس سـنوات، وأخـوه هنـاك، لم يكلّـف نفسـه إخبـار إخوتـه في لبنـان، عـن وفـاة شـقيقه. وكان قـد تـوفّي، هـو نفسـه، بعـد ذلـك، بسـنتين.. ولم يعـرف أحـد أنّهـما توفّيـا، إلا بعـد ذلـك، بثـلاث سـنوات، سـنة الاتصـال مـع البرازيـل.. هـذا، كان مـن تداعيـات الهجـرة، ومـن مصائبهـا عـلى أبنـاء الأسرة الواحـدة.. ولـولا التواصـل الـذي حصـل مـن أسـتراليا، لمَـا عـرف جـمال، ولا أعمامـه، أن أبـاً وعـمّاً ماتـا، دون أن يـدري بموتهـما أحـد مـن

العائلـة.

كان هـذا التواصـل فاتحـة علاقـة جديـدة، بـين أبنـاء جـمال، وأعمامهـم في البرازيـل، وإن بقيـت فقـط، عـن طريـق المراسـلة.. ورغـم وعـد الابـن الأكـبر، بالسـفر إلى البرازيـل، للتعـرّف عـلى أعمامـه، أخلـف بوعـده، لأن تسلسـل الأحـداث في لبنـان منعـه مـن ذلـك، وتـوفّي دون أن يفـي بهـذا الوعـد.. هكـذا، قرابـة بقيـت مـن بعيـد، ولم يحصـل اللقـاء.. حـالات كثـيرة تشـبه هذه الحالـة، حصلـت بـين مقيمـين ومغتربـين، منعتهـم ظروفهـم مـن اللقـاء، وإعـادة بنـاء العلاقـات.. وذهبـت في مهـبّ ريـاح الحياة التـي تسـير، دون الالتفـات إلى مصائـر النـاس، وعواطفهـم.

8

إلتفـت جـمال إلى مـا آلـت إليـه أوضاعـه، وأوضـاع أسرتـه الصغـيرة، مـع أنـه مـا زال عازبـاً، وفي عهدتـه أمّ وشـقيقة.. هكـذا كان، وسـيبقى، إلى أن تتـزوج سـما. وبعـد ذلـك يتـزوج، وتنضـمّ محبّـة إلى بيـت أمـه الصغـير.

لم تمـرّ سـنة عـلى زواج أبـو جـمال، في البرازيـل، إلا وجـاء المختـار طنـوس الحلبـي زائـراً مـع زوجتـه، ووجـوه مـن عائلتـه، ليطلـب يـد سـما للـزواج مـن ابنـه.. لم يكـن جرجـي موجـوداً، ولكنـه كان في مـكان قريـب، ويـكاد يسـمع مـا يتفـوّه بـه الحـاضرون.. أعلمـت مريـم أسـلافها، ليحـضروا طقـس طلـب اليـد، لم يسـتجب إلا مخاييـل، صديـق المختـار، والمقـرّب مـن مريـم وجـمال.

طلـب المختـار يـد سـما مـن الأم والشـقيق، وسـما مشـغولة بصنـع القهـوة والشـاي، للحاضريـن..

– نحـن يـا أمّ جـمال، نتـشرّف بطلـب يـد سـما، لإبننـا جرجـي.. والـكلام لـك، أيضـاً، يـا جمال.

– تفضّل يا جمال.. قل كلمتك..

قالت مريم، وهي ترمق ابنها بنظرة الحب والحنان..

– أنـت تـاج رأسي يـا أمّـي.. أنـت تقولـين، وأنـا موافـق.. بعـد موافقـة سـما، طبعـاً.. تعـالي يـا سـما.

- حـضرت سـما، مـع صينيّـة الضيافـة. ظهـر وجههـا، وكأنـه لا يفـرقُ كثـيراً، في لونـه، عـن لـون الشـاي الـذي تحملـه..!

- نعم يا أخي..؟ جئت!

- يطلب المختار يدك، يا سما، لابنه جرجي.. ماذا تقولين..؟

قالت مريم، وهي ترمق ابنتها بعين الأمّ المحبّة..

- القول قولكم، أنتِ وأخي، يا أمي.. ولعمّي مخاييل..!

- الله يبارك فيكِ، يا عمي.. قال مخاييل مرحّباً..!

- يعني موافقة، يا أختي..؟

- المهم أن توافق أنت، يا عيوني.. هكذا أجابت سما..

وقد سبقتها أمّها بالرد على المختار..

- أعطيناك يا مختار.. إذا الله أعطاك.

- عـلى بركـة اللـه.. قـال المختـار.. والعـرس بعـد شـهر، برعايتـه وعونه..

كان عرسـاً مجلجـلاً.. عـرسٌ عـلى أيـامٍ، بلياليهـا.. قائـم عـلى رقـص، ودبكـة، وأغـان ومطاليـع.. طبـل يـضرب، ومزمـار يعـنّ، وأجسـاد تتمايـل عـلى رقـص بديـع، وشراب الـورد يـدور عـلى الحاضريـن، إلى أن حـان وقـت الحلاقـة للعريـس.. أجمـل طقـس يمكـن أن يحظـى بـه رجـل في حياتـه.. ملـكٌ غـير متـوّج،

يحضنه حلاقٌ صامت، وهو ليس إلا جمال نفسه، و«كرمال عيون» المختار.. والعريس صهره. العالم كلّه عند جمال، كان محصوراً بشَعر العريس ووجهه.. لا همّ له إلّا أن يخرج من بين يديه، وكأنّه أجمل رجل في الدنيا.. يستكمل بهاءه راقصون وراقصات، يتمايلون حوله، بثياب العرس التي عليه أن يرتديها، حالَ انتهائه من الحلاقة، وفي الساحة نفسها. منظرٌ جميل، بحضور الناس جميعاً، محاط بالشباب من كل الجوانب، إلى الدرجة التي لا يمكن أن يبِين مِن خارج الحلقة. يتناوب هؤلاء على خلع ملابسه، كلّ ملابسه، وإلباسه ثياب العرس، من البابوج إلى الطربوش، وسط أهازيجهم، وأغاني النساء وزغاريدهن. يكتمل الهندام.. يُجلسونه على منصته العالية، بانتظار انتقال الموكب إلى الكنيسة، لإتمام مراسم الاكليل.

أما ما يسبق ذلك، فهو التعبير عن محبّة العريس، من أقربائه خصوصاً، ومن الفتيات بالتحديد، والحاضرون يعرفون تماماً، دلالة ذلك. هذا طبعاً، بالاضافة إلى الشباب، من أقربائه وأصدقائه.. يحمل كلّ منهم قطعة من لباس العريس، من العقال والشملة إلى الحذاء.. والجوارب.. ومن القميص والصدريّة إلى الثياب الداخلية، بالاضافة إلى الشروال والزنّار والجاكيت المطرّزة.. كل ذلك، وسط ضربات الطبل، وصوت المزمار على نغمة الدلعونا، ومطلوع «يا حلاق حلقلو، وتأنّالي عليه».. وهو محنيّ الرأس بين يديّ الحلاق الذي لا يعنيه شيء، إلا أن ينهي عمله على أجمل صورة، وكأنه يُبدع لوحة جميلة، في مطرح قصيّ.

بعـد الانتهـاء مـن ترتيـب أوضـاع العريـس، ووصـول خـوري المطرانيـة إلى الضيعـة، طلـب العريـس مـن شـقيقه نجيـب، أن يذهـب مـع «جاهيّـة» ينتقيهـا مـن رؤوس العائلـة، إلى بيـت أهـل العـروس، ليتحـضّروا لملاقـاة موكبـه في سـاحة الضيعـة، قبـل التوجّـه إلى الكنيسـة سـويّة..

يعيـش في ذهـن نجيـب، كـما في أذهـان أهـل الضيعـة، أنّ مـن آداب العـرس، أن لا تنتظـر العـروس مجـيء العريـس، بـل عـلى العريـس أن ينتظـر مجـيء العـروس، ولكـن ليـس إلى وقـت طويـل.. يكفـي فقـط، خطـوات معـدودات لا تتعـدى الخمسـين.. والطرفـان، طـرف العريـس والعـروس، يـدركان جيـداً، وطـأة الحساسـيّات التـي يمكـن أن تتجمّـع في لحظـات اللقـاء هـذه.. وعـادةً مـا تكـون حساسـيّات أهـل العـروس، أكـثر بمـا لا يقـاس، مـن حساسـيات أهـل العريـس.. وفي العـادة، يتغـاضى أهـل العريـس، عـن هفـوات صـدرت عـن أهـل العـروس، عفـواً أو بالقصـد.. ربمـا منشـأ ذلـك، تـأتّي مـن المقارنـة بـين خسـارة هـؤلاء، وربـح أولئـك.. منطـق عـدم التـوازن الـذي يوصـل عـادة، وفي أمـور كثـيرة، إلى مـا يشـبه الجحيـم. وقـد حصـل ذلـك مـرة.. وهـي مـن مـرّات كثـيرات..

اعتلـت عـروسٌ مـن الضيعـة فرسـاً أصيلـة، ليوصلهـا أهلهـا إلى مـكان انتظـار العريـس، وأهلـه. سـمع قريبُهـا أن أحـد أقربـاء العريـس الـذي جـاء، مـع غـيره منهـم، لمرافقتهـا، قـال كلامـاً لم يعجبـه: «أخدنـا أحـلى عـروس في الضيعـة، لـو في شـباب مذوقـين مـا بيخلّوهـا تطلـع»..

- نـزلي وليـه.. قـال قريـبٌ للعـروس.. مـا بقـى في عـرس.. ارجعـي عالبيـت..

نزلـت العـروس، وجمـدت.. تدخّـل العقـلاء.. حـضر العريـس بذاتـه.. رجـاء وتوسّـل، وطلـب السـماح.. لا أحـد يسـمع.. وأخـيراً..

- بيدفـع الشـب المـذوِق عـشر لـيرات في الديـر.. وبيمـشي العـرس..

كانـت أتعـاب الخـوري لا تتجـاوز الخمـس لـيرات.. لم تكتـفِ العـروس بذلـك، بـل أرادت، بصمـت، أن تـردّ الاعتبـار لأهلهـا، ولتبـيّن مـدى محبّتهـا لهـم، وغلاوتهـا عندهـم. وصلـت إلى بـاب الكنيسـة، وتوقّفـت.. العريـس بجانبهـا.. إلتفـت إليهـا.. لم تنظـر إليـه.. سـألت عـن عمّهـا عيـسى، وهـي تعـرف تمامـاً، أنّـه غائـب عـن الحفـل، لأنـه عـلى خصومـة، وزعـل، مـع أبيهـا.. أدارت وجههـا للجمـوع..

- لن أدخل إلى الكنيسة، إلّا على يد عمّي عيسى..

بهـت الحـاضرون، ونظـروا إلى العـروس مدهوشـين.. وقفـت، ووقفـوا.. سـاعة مـن الوقـوف والانتظـار.. رواحٌ ومجـيء.. إلى أن أطـلّ عيـسى. لاقـاه أبـو العـروس. تعانقـا ودخـلا معـاً، برفقـة العروسـين. لم يعلـم أحـد مـا حصـل بعـد ذلـك، بـين العريـس والعـروس.

كان لخـروج سـما مـن بيـت أمهـا، وكأنهـا انقطعـت عـن بيـتٍ

وُلـدت فيـه.. نشـأت وتربّـت، وقضـت أينـع سـنوات حياتهـا، وأحبّهـا إلى قلبهـا.. وإن كانـت تنقـص رعايـة الأب، وتخلـو مـن عطفـه وحنانـه. مـا خّفـف عنهـا عـذاب الخـروج، حبُّهـا لعريسـها، ومبادلتهـا حبـاً بحـب.. وإلى بيـت لا يبعـد عـن بيتهـا.. إلا خطـوات. بكـت وانتحبـت وكأنهـا في مأتـم.. لم تُبـكِ أمهـا وأخاهـا فحسـب، بـل أبكـت أيضـاً، جميـع الحاضريـن، مـن الرجـال والنسـاء.. لم تذكـر إلا أمّهـا وأخاهـا، ولم تطلـب إلّا منهـما الرضـا.. لم يسـمع أحـد مـن الحاضريـن، أنهـا خصّـت أباهـا بكلمـة، أو.. حتـى ذكرتـه. وهـي التـي كانـت تـترك لدموعهـا العنـان، لمجـرد تذكّرهـا أنّ لديهـا أبـاً.. أبٌ لم تعرفـه قـط، ولا أقعدَهـا في حضنـه، كـما يفعـل آبـاءُ الآخريـن.. لم تذكـره .. ولا خطـر في بالهـا، أن تسـأل نفسـها، لمَ لم تفعـل ذلـك.

إلتقـى العروسـان في السـاحة، وسـار الموكـب الهوينـى إلى الكنيسـة، مـع صـوت الطبـل والمزمـار، والرقـص سـيراً عـلى الطريـق، وسـط رشّ الزهـور، والأرزّ، وحبّـات الكرميـل والبافـكا، وتدافُـع الأولاد بـين الأرجـل، للـمّ مـا يمكـن الفـوز بـه، مـن الأطايـب.

انتهـى الاكليـل عـلى خـير، مـع ضجيـج الأصـوات والزغاريـد، مـع «اللـه يهنّيهـم»، عبـارة تنطلـق مـن هنـا وهنـاك، بفـرح وحبـور. بعـد التهنئـة، راح الحـاضرون إلى بيـت العريـس، ليكملـوا فرحهـم.. إلّا أهـل العـروس.. كان مـن المهـمّ أن يعـودوا إلى بيوتهـم، ولا يشـاركوا في إكـمال فرحـة العريـس، فقـط لأنـه هـو ربـح عروسـهم، وهـم خسروهـا.. عـادة قديمـة.. لم تتغـيّر،

إلا بعـد أن تغـيّرت عـادات وبعـض تقاليـد الأعـراس برمّتهـا.

كان مـن أجمـل مـا تحملـه الأعـراس في الضيعـة، الليلـة الأخـيرة، بحضـور العريـس والعـروس معـاً.. سـهرة ينتظـر فيهـا الجميـع «المُجَعـوِد» الـذي يقـوم بحـركات مضحكـة، في ثيابـه الرثّـة المهلهلـة، مـع الرقـص، وتقليـد أصـوات الوجهـاء في الضيعـة وحركاتهـم، يخلطهـا بأصـوات الحيوانـات المعروفـة منهـا، في صـور هزليّـة، وسـط ضحـك السـاهرين، والصغـار منهـم، عـلى الخصـوص.. إنـه مهـرّج الضيعـة ومُضحِكُهـا، أبـو يوسـف ساسـين، المحبـوب مـن أهلهـا جميعـاً.

عـاد جـمال إلى البيـت مغمومـاً، يحـاول أن يهـدّئ مـن جيشـان عاطفـة أمّـه، وهـو بالـكاد يحبـس دموعـه.. مـاذا عليـه أن يفعـل، وهـذه سـنّة الحيـاة، وفعـل القـدر. عليـه أن يتدبّـر أمـوره وحيـداً، إلى جانـب أمّـه.. لم يبـقَ لـه مـن هـذه الدنيـا سـواها، وإن كانـت أختـه قريبـة منـه.. ولكنهـا تزوّجـت.

لم تغـب محبّـة عـن بـال جـمال لحظـة، حتـى في حفـل الاكليل.. وكان يلحـظ نظراتهـا نحـوه، وكأنهـا تقـول، متـى سـنكون نحـن بـين يـديّ الخـوري، في أحـلى لحظـة، يمكـن أن نعيشـها؟؟ هكـذا ظـنّ.. وهكـذا هـي تخيّلـت.. وقـد أقـرّت لـه بذلـك.. عندمـا سـألها.

ولكـن هـل عليـه أن يسـتغرب؟؟ وهـل ثمـة أجمـل مـن هـذه اللحظـة لأي فتـاة..؟

– أنـا لا أقصـد أن تسـتعجل.. ولكـن، يحـقّ لي أن أتخيّـل تلـك

اللحظـة.. قالـت ذلـك، عندمـا لمحـت عـلى ثغـره ابتسـامة لطيفـة، بعـد أن عـرف مـا في قـرارة نفسـها..

- لم أقـل شـيئاً.. وهـل تعتقديـن أني لا أترقّـب تلـك اللحظـة؟ عـلى أي حـال قربـت.. لم أرد الـزواج قبـل أن أطمـئن عـلى أختـي.. وهـا أنـا عـلى اطمئنـان.. سـيأتي دورك قريبـاً.. قـال هـذا بوجـه ضاحـك.. لم تبخـل عليـه، بعـد ذلـك، بتكشـيرة، ثـم ضحكـة، وضربـة كـفّ عـلى الزنـد.

زاد زواج سـما مـن غـير عائلتهـا، مـن بعـاد عائلـة جـمال عنـه، وعـن أمّـه. كـما زاد جـمال مـن الجفـاء أكـثرِه، بابتعـاده عـن أعمامـه، لضعـف الأواصر الشـادّة لعصـب القرابـة، بغيـاب أبيـه، وانتـماء أمـه لعائلـة الحلبـي؛ العائلـة نفسـها التـي انتقلـت إليهـا أختـه بالـزواج، وحبّـه لمحبّـة ابنـة العائلـة الثالثـة، زينـون. ذهـب هـذا الجفـاء بجـمال، إلى بنـاء علاقاتـه داخـل الضيعـة، مـن غـير الأقربـاء، ومـن خارجهـا، مـن غـير مذهـب ودين. سـاعده في ذلـك، قدرتـه العجيبـة عـلى بنـاء العلاقـات، والحفـاظ عليهـا باللقـاءات الدائمـة، والزيـارات المتبادلـة. لم ينتـقِ مـن أعمامـه، إلّا وهيـب المجايـل لـه، عمـراً، والأقـرب إلى قلبـه، والفاتـح لـه طريـق المدينـة، والتعـرّف عـلى لطـف اللـه، قبـل سـفره إلى البرازيـل.

كان مـن غرائـب الأمـور، أن لا يلحـظ جـمال عـدم وجـود عمّـه وهيـب، إلى جانبـه في عـرس سـما.. تذكّـر أخـيراً.. وراح عـن بالـه، أن يتفقـدّه، أو يسـأل عنـه.. هـل هـو عـلى زعـل، كـما الباقـون مـن أعمامـه؟ لم يـرَ إلا عمّـه مخاييـل، وزوجـة عمّـه سـارة.. ولم

ينتبـه لوجـود أبنائهـما..

ولكن لماذا وهيب..؟ وهو الأقرب إليه؟

ما كاد الصباح يطلع، حتى كان وهيب على الباب..

- قُم.. ألا تزال نائماً..؟ الظُهر على الأبواب..

قال وهيب، بصوت عال.

- أيـن كنـت يـا رجـل..؟ كثـيرٌ عليـك أن تكـون بجانبـي، في عـرس سـما؟ أخـذوك إلى تخومهـم؟؟

- لا يـا جـمال.. لا.. أنـت تعـرف معزّتـك عنـدي.. وليسـت بحاجـة إلى برهـان.. وكذلـك عروسـنا الحلـوة.. مبـارك مـا عملتـم.. والعقبـى لـك يـا ابـن أخـي. قضيـت يومـين في سـورية، مـع لطـف اللـه..

- خير..؟

- مشـكلة كبـيرة، بـين مطـران اللاذقيـة أبيفانيـوس والبطـرك.. أعلـن أبيفانيـوس اسـتقلاله عـن البطريركيـة، بتأسـيس الكنيسـة الأرثوذكسـية المسـتقلة مـن اللاذقيـة إلى عـكار. تمامـاً، كـما فعـل لطـف اللـه في طرابلـس، مـن قبـل. وقـد أعلـن لطـف اللـه انضمامـه إليهـا، مـع المؤيّديـن لـه، ضـد البطـرك. وقـد أعلـن ذلـك مـن اللاذقيـة. بقينـا هنـاك يومـين.. هـذا سـبب غيـابي، اعـذرني، واحتضـن جـمال، مقبّـلاً.

- أخبرني المزيد، عن هذا التحرك الجديد..

سُرّ العمّ وهيب، باهتمام ابن أخيه بأخبار الكنيسة، بعد ان انقطع عنها زمناً.. أجاب، بزهو العارف..

- أطلق أبيفانيوس يد لطف الله في طرابلس. وطلب منه أن يرفع اسم أبيفانيوس في الصلوات، بدل البطرك.. وأن يدعوه في كل مناسبة، تقضي ذلك، على أن يبقى منزله مركزاً للقاءات والصلوات؛ وهو المركز الذي نشأ، بعد الأزمة مع مطرانية طرابلس، وإعلان كنيسة طرابلس المستقلة..

- يا الله.. يبدو أن هذه الانقسامات تحصل فقط في كنيستنا.. الباقيات ليست كذلك.. لماذا يا ترى..؟

أدرك وهيب، أن حدود معرفة جمال، بأحوال الطائفة، ضيّقة، وسرّه أن يوسّعها له، ليكون على بيّنة مما يحصل في داخلها، وبين قادتها الروحيين والزمنيين..

- تركيب كنيستنا مختلف يا عمي.. قال وهيب لابن أخيه. لا رأس صاحبَ أمرٍ، من رئيس إلى مرؤوس.. لا سلطة فعلية من البطريرك على المطارنة.. بمعنى، أن لا تراتبيّة صارمة في الكنيسة الأرثوذكسية.. ولا طاعة عمياء.. لا وجود لتعبير، نفّذ ثم اعترض.. البطريرك ليس سوى مطران متقدّم بين متساوين.. الرتبة فقط تختلف.. لا أمرَ موجباً.. وأي خلاف يمكن أن يقسّم مجلس المطارنة. وفي قمّة الانقسام، يعمل الجميع، من روحيين وزمنيين، على التسوية، ولو وصل الانقسام، إلى استقلال مطرانية، أو أكثر، عن جسم البطريركية، أو عن جسم المطرانية، كما حصل في اللاذقية،

عـلى يـد أبيفانيـوس، وكـما حصـل في طرابلـس، عـلى يـد لطـف اللـه.. هكـذا هـي طائفتنـا.. وفي هـذا، مـا هـو إيجـابيّ، مثـل إطـلاق حريـة الـرأي والتدبـير، والعمـل عـلى تقويـم أي اعوجـاج؛ وفيـه مـا هـو سـلبي، يوصـل إلى الخلافـات والتضـارب والانقسـام..

– أين أنت يا عمي، من هذا كله..؟ سأل جمال..

– أنـا مقتنـع بمـا يقـوم بـه لطـف اللـه.. صـادق، جـريء.. ولا يريـد شـيئاً لنفسـه.. يريـد أن تتحـرّر الطائفـة مـن فكـرة المؤسّسـة، وصاحبـة الشـأن والسـلطة، لتلتفـت إلى شـؤون رعاياهـا، وتدبـير أمورهـم الحياتيـة، والانـصراف إلى توطيـد العلاقـات، مـع بقيـة الطوائـف، والعمـل عـلى إعـلاء شـأن الانتـماء المشـترك إلى بلـد واحـد، في وحـدة حيـاة، ووحـدة إرادة ومصـير..

انتقـل وهيـب، هنـا، وهـو في قمـة شرحـه لأحـوال الطائفـة، إلى شرح مواقـف لطـف اللـه، في طرابلـس والمحيـط..

– هـل تـدري يـا جـمال أن لطـف اللـه، هـو أول مـن نـادى بـإشراك المسـيحيين، في الحيـاة العامـة، في طرابلـس، ليكونـوا متسـاوين فعـلاً مـع غيرهـم، مـن أبنـاء المدينـة..؟ وأول مـا تقـدّم بـه، هـو إشراك المسـيحيين، بحصّـة في المجلـس البلـدي، لأن الأكثريـة السـاحقة سـينتخبون ممثلـين مسـلمين عنهـم، ولـن يبقـى مـكان للمسـيحيين.. إذ كيـف عـلى المسـيحيين أن يحسّـوا بأنهـم مـن أبنـاء المدينـة، إذا لم يشـاركوا في إدارة

شـؤونها..؟ والقانـون لا يلحـظ ذلـك، ويـترك الأمـر لمـن يفـوز..؟ وفي هـذه الحـال، لا فـوز لمسـيحيين بوجـود 70% مـن المقترعـين المسـلمين..؟ قـال لطـف اللـه هـذا الـكلام، منـذ العـام 1913، ونـشره في جريـدة الحـوادث..

– وما كانت النتيجة..؟

– بقـي مـصرّاً عـلى هـذا الـكلام، إلى أن بـدأت تتشـكّل اللوائـح، بوجـود ثلاثـة مـن المرشـحين المسـيحيين.. وهـذا مـا أوصلهـم إلى المجلـس البلـدي، وإن جـاءت دورات خاليـة مـن الوجـود المسـيحي. والأحـلى في الأمـر، أن دَرَج المجلـس البلـدي عـلى انتخـاب نائـب رئيـس البلديـة، مـن الأرثوذكـس.

– وماذا عن تمثيل المسيحيين في مجلس النواب؟؟

– أنـت تعلـم أننـا ورثنـا وجودنـا الطائفـي، مـن نظـام الملـل العثـماني.. واسـتمرّ مـع إعـلان لبنـان الكبـير، والتوزيـع الطائفـي للحكـم في لبنـان.. لـكل طائفـة حصّتهـا في كل شيء.. وخصوصـاً للطوائـف السـت الكـبرى، عـلى أن يكـون الباقـون، تحـت عنـوان الأقليـات.. في هـذا التقسـيم، يصـير نائبـاً، بعـد الاقـتراع، مـن حـاز عـلى أعـلى الأصـوات، حسـب العـدد في كل دائـرة، وبالتسلسـل، إلى أن يكتمـل عـدد الفائزيـن، حسـب كل طائفـة، وكل دائـرة.. في طرابلـس، يفـوز في اللائحـة الأرثوذكـسي الـذي ينـال أكـثر الأصـوات في المدينـة، وهـم بطبيعـة الحـال، مـن المسـلمين في أكثريتهـم السـاحقة. وهـذا يعنـي، أن فـوز النائـب الأرثوذكـسي، يقـوم عـلى أصـوات المسـلمين، وليـس عـلى

أصوات الأرثوذكس. وبالتالي، لا همَّ له إذا انتخبه الأرثوذكس أو لم ينتخبوه.. كيف يمكن أن يحصل ذلك؟؟ وكيف يمكن أن يكون ممثلاً لأرثوذكس المدينة؟؟ هذا ما لم يقبل به لطف الله.. وعمل على وضع اقتراح تغيير القانون، ليكون أكثر إنصافاً لأرثوذكس المدينة.. ولأي أقلّية ضمن أكثرية، في لبنان كله.. ولكن لم يستمع إليه أحد..

– ماذا فعل لتجاوُز هذه المسألة..؟

– قدم اقتراحاً رائداً، لم يسبقه إليه أحد في العام 1925، قبل وضع الدستور اللبناني. وعمل جاهداً، على إيصاله للمسؤولين، في كل لبنان.. يتلخّص في العمل على اختيار مرشحَين أو ثلاثة من قِبل كل طائفة تمثّل أقلية بوجود طائفة كبرى.. والمختارون في طائفتهم، بالاقتراع طبعاً، يترشّحون لخوض الانتخابات.. والفائز يكون ممثلاً لطائفته فعلاً، قبل أن يكون ممثلاً لمنطقته وللبنان ككل.

– إقتراح جيّد ومفيد، يؤمّن مشاركة الجميع في إدارة الحكم، طالما النظام يقوم على تمثيل الطوائف، وعلى المحاصصة الطائفية في الإدارة. أكيد لم يقبل به أحد، لأنه يخفّف من سطوة الزعماء، ومن أرادتهم في انتقاء ما يناسبهم، للتحكم في شؤون البلاد والعباد..

– لذلك لم يأبه أحد، من ممثلي الطائفة، والمنتفعين منها، بما قاله لطف الله، لأنه ينقل ما بيد المطران ورجال الدين، إلى يد الناس في انتقاء ما يناسبهم.. وهذا ما يخفّف

مـن سـلطتهم في رعايـة الأتبـاع، ويخفّـف مـن وهـج العلاقـات، مـع رجـال السياسـة في البلـد.

- ومـاذا عـلى رجـال الديـن أن يفعلـوا غـير ذلـك..؟ وقـد أعطِيـت لهـم سـلطة كـبرى عـلى رعاياهـم..؟ والمطـران، وحتـى البطـرك، تغريهـما هـذه السـلطة المعطـاة لهـما، في بلـد يقـوم عـلى الاقتسـام الطائفـي، في السياسـة، وفي الإدارة، وفي كل شيء.. هـل ثمّـة مـن يضمـن حـصرَ همومهـم في شـؤون الرعايـا، وتـرك الأمـور الأخـرى المتاحـة لهـم..؟

- مـا تقولـه جميـل يـا جـمال.. هنـا لـبّ المشـكلة.. كيـف علينـا أن نعمـل، لينـصرف نشـاط رجـال الديـن إلى تدبير شـؤون الرعايـا، دنيويـاً وروحيـاً، ليـس باعتبارهـم رعايـا، فحسـب؛ بـل أيضـاً، مواطنـين. وليتركـوا أمـور السياسـة، والسـلطة الزمنيـة، إلى أهلهـا، دون أن يمنعهـم أحـدٌ مـن بـثّ رسـائل التوجيـه والارشـاد، بالخطـب والرسـائل.. ليكـن للديـن حاملـو رسـالته الروحيـة والأخلاقيـة، وللسياسـة رجالهـا في كل مـا تتيحـه لهـم، مـن ضروب الحنكـة، والمخادعـة والنفـاق، بالاضافـة إلى مـا هـو إيجـابي في ممارسـتها، باعتبارهـا فـنّ الممكـن، للوصـول بالمجتمـع، إلى الأفضـل.

- طريـق صعـب مـا ترسـمه يـا عمّـي، رجـال الديـن مـن النـاس، ولهـم مـا للنـاس، مـن طمـوح مقـرون بحـب الجـاه والسـلطة..

- نعـم.. نعـم.. هنـا، عـلى القانـون أن يقـول كلمتـه، ويطبّقهـا

فعلاً.. بعد نشرِ ما يقنع الناس، بأن الدين جاء لتشريف الحياة، لا الحياة لتشريف الدين.. وأن السياسة جاءت لترتقي بالمجتمع، بالعمل الصالح، والفعل الراقي.. ولكن، كما تعلم، دون ذلك محاذير كثيرة، تفرضها النزعة الفردية، وغريزة السيطرة، والتملّك والطمع.. في السياسة، سلوك إنساني يحتمل الصواب والخطأ، النزاهة والفساد، الاستبداد والتسامح، وفي المطلق، ما فيه خير وما فيه شرّ.. لأنها فعل إنساني.. أما الدين، فرجاله نذروا أنفسهم، لخدمة ما يقتضيه الدين، وما يأمر به.. سموّ الأخلاق هدفهم، بما أنه هدف الدين، والإيمان والتقوى يفرضان المسلك الديني القويم، بما هو مسلك إنساني، بمقتضى الوصايا الإلهية، لدى كل الأديان..

- ولكن، ليس هذا ما نعرفه عن رجال الدين، ونعرف أن أقوالهم تختلف عن أفعالهم..

- نعم يا جمال.. وأنا مسرور جداً مما تقول.. لقد تبلور تفكيرك ونضج.. وصرت على ثقافة عالية.. ولكن، عليك هنا أن تميّز بين السياسة والدين.. اختلاطهما معاً، أساس المشكلة ومصدر البلبلة.. استغلال الدين، للوصول إلى المآرب السياسية، ولو أدّى ذلك إلى فتنة بين الأديان، متوسّلةً الدين لخدمة السياسة.. واستغلال السياسة من رجال الدين، للوصول إلى مآرب سياسية، تعلّي من شأنهم في نظر السياسيين، وتسمح بالتدخل المباشر في شؤونهم، ما يوصلهم إلى تنكّب مهام سلطة ليست لهم، والافادة منها،

في تنمية النزعة الفردية، واستغلال النفوذ الديني، للوصول إلى ترسيخ النفوذ السياسي..

- كيف الطريق إلى منعهم، وهم أصحاب سلطة، ومتحالفون مع الزعماء السياسيين، في كل طائفة؟

- هنا بيت القصيد.. الوعي يا جمال.. الوعي. نشرُ الوعي المهمة الأساسية.. هنا يأتي دور الارشاد والتوجيه.. هنا دور المتنوّرين والمثقّفين.. عندما تصل الرسالة إلى الناس، بأنّ السياسة تستفيد من الدين، لاعلاء شأن السياسيين، وترسيخ نفوذهم؛ وبأنّ الدين لا يستفيد من السياسة، إلا بما يؤذي الدين، بإبعاده عن الناس، وبتقوية النزعة الفردية لرجال الدين، وترسيخ سلطتهم الدنيوية، مع بُعدهم عما يقتضيه الدين.

- طيّب.. وإلامَ يمكن أن يصل الأمر، في هذه الحال..؟

- السياسة مع الدين، تزيد من نسبة التعصب والتوتير الطائفي.. السياسة المتّكئة على الدين، تطلب المنافع وكأنها لمصلحة الطائفة، وهي ليست إلا لمصلحة المنظورين فيها، سياسياً. وهذه المصلحة تقضي بفعل أي شيء، للحفاظ على قوّة الطائفة، سياسياً، مقابل بقية الطوائف.. وهي عملياً قوة زعمائها. ولأن مصالح الطوائف متغيّرة، بتغيّر قوّتها، صعوداً وهبوطاً، تتغيّر العلاقة فيما بينها، لتحسين المواقع، أو المحافظة عليها.. ومن الطبيعي أن يمثّل هذه النشاطات جميعاً، الزعماء السياسيون بالتكافل والتضامن، مع رجال

الديــن، سرّاً وجهــراً.. لتبقــى الطوائــف في حــال توتّــر دائــم، مخفــيّ حينــاً، وظاهــر حينــاً آخــر. سِــلمٌ متقطــع، في سلســلة مــن التوتّــرات والحــروب الدائمــة..

- هل تعني.. ما طرأ على ذهني الآن..؟

- ما طرأ..؟

- علينــا أن نطالــب بفصــل الديــن عــن الدولــة، لتســتقيم الأحــوال؟؟

- يحــرز دينــك.. هــذا مــا علينــا المطالبــة بــه.. وهذا مــا جعلني أكــون إلى جانــب لطــف اللــه، في نظرتــه الحــذرة، والمعارضــة لموقــف رجــال الديــن.. ليــس في كنيســتنا فحســب، بــل لموقــف كل رجــال الديــن في كل الطوائــف.. الديــن شرف الحيــاة، وليــس علينــا أن ندنّســه بأمــور السياســة.. مــا دخلــت السياســة الطائفيــة إلى أي شيء، إلا وأفســدته.

طالــت جلســة جــمال مــع عمّــه وهيــب، وجــاءت مريم بالشــاي مرّتــين، وبالقهــوة مــرّة واحــدة، وهــما عــلى حديثهــما الــذي لم تفهــم أمّ جــمال منــه، إلا أنــه يحــكي عــن الديــن، ورجالــه.. لم تشــغل نفســها بذلــك، وتعــود، في كل مــرة تقــترب منهــما، إلى تدبــير شــؤون البيــت، والعمــل عــلى تحضــير الغــداء لإثنــين، ولأول مــرة.. دون تدبــير مــن ســما.. ودون مشــاركتها.

- طيّب.. بخاطركم. وقف وهيب لينصرف..

- تغدَّ معنا، يا عمّي..

- - دايمــة بالأفــراح.. أكــرّر التهنئــة، بــزواج ســما، والعقبــى لجــمال، بعــرس مجلجــل، بهمّــة الوالــدة..

هنا، لم تتأخّر مريم في الردّ عليه، بعتاب ظاهر..

- بوجود أعمامه، وأقاربه، بإذن الله..

تلقّـى وهيـب المسـمار، بـروح بـاردة، مـع هـزّة رأس. أمـا جمال، فتطلّـع في وجـه أمّـه، دون أن يقـول كلمـة واحدة.

تعجّـب جـمال مـن علـوّ ثقافـة عمّـه وهيـب، وتبحّره في شـؤون السياسـة، والطائفيـة السياسـية، واسـتطاع بحسّـه العفـوي، أن يفهـم الفـرق بـين الإيمـان الدينـي، والانتـماء الطائفـي المخلـوط بالنزعــة السياســية.. وقــرّ رأيــه في الأخــير، عــلى اتبــاع هــذا النهـج الجديـد، في التعاطـي مـع أمـور السياسـة، والديـن.. وكان اقتناعــه كامــلاً، بــأن الإيمــان الدينــي، لا يتعــارض مــع فصــل الديـن عـن السياسـة، بـل يقـوّي هـذا الإيمـان، ويزيـده صدقـاً، ويفعّلـه في مسـلك الحيـاة العمليـة.

9

«عقبـال» جـمال.. كلمـة، نزلـت عـلى قلبـه بـرداً وسـلاماً.. سـيتزوج أخـيراً.. لا بـدّ. عـاد إلى داخـل نفسـه، في علاقتـه مـع محبّـة، وأهلهـا.. هـو يـدرك تمامـاً، أن محبّـة لم تحـسّ بفرحهـا الداخـلي، المتـأتّي مـن مصـدر يخصّهـا، أو يخـصّ أهلهـا، وهـي قـد وصلـت إلى سـن الـزواج، وتوغّلـت فيـه.. فقـدت ثلاثـة مـن أهلهـا، وهـي لمـا تصـل إلى العشريـن.. أب أخـذه سـفر برلـك، ولم يـردّه.. أقيمـت الصـلاة عـن روحـه، بغيـاب جثمانـه.. ولم تعـرف، لا هـي، ولا أهلهـا، في أي أرض دُفـن.. تـوفّي أخوهـا ابراهيـم بمـرض النقـرس، رغـم جهـود الطبيـب قمـر، وهـو دون العشريـن.. توفّيـت أختهـا سـليمة في المخـاض، وبقـي نصـف الجنـين في بطنهـا.. وراح معهـا.. أمّ ثـكلى لا تعـرف الـكلام، مـن زمـان.. وأخ دائـم الالتفـات حواليـه، ولا أحـد، إلا أختـه، تنتظـر الاشـارة منـه، لتلبيـة مـا يريـد، علّهـا بذلـك، تخفّـف مـن ثقـل معاناتـه، أو تُشـعره بـأن الدنيـا لا تـزال في خـير.. وهـو دائـم الحركـة، في البيـت وفي الحقـل، يُشـغل نفسـه بمـا يمكـن أن يسـاعده، مـع أمـه وأختـه، لمواجهـة تكاليـف الحيـاة.. والثلاثـة ألغـوا مـا يمكـن أن يسـمّى فرحـاً، في مـسرى حياتهم، أو سـعادة، يمكـن أن تهبـط عليهـم مـن فـراغ، خالـوا أنـه سـيزيلهم، ولـن يـزول..

عمـل جـبران عـلى توفـير مـا يلـزم، مـن ضرورات الحيـاة، لأمّـه وأختـه محبّـة، وإن كان ذلـك، عـلى قـدّ الحـال.. عاشـوا

مستورين.. وما خفّف عن كاهل جبران، أنه اختصر العالم كلّه في أمّه وأخته، وفي أرضه.. مصدر رزقه، وكافلة عيشه..

كان جبران من جملة الفلاحين الذين استلموا أراضيهم بالضمان، من قِبل مالكين من خارجها، ومن غير دين. فلحوها وزرعوها بالمرابعة.. مقابل إيراد ضمان للمالكين، يقدّره خوليٌّ مختصّ، يدفعه الفلاح في نهاية الموسم، حبوباً أو نقداً، على أن يكون ربع مساحة الأرض، ملكاً له.

نشأ عن هذه العلاقة، نمط عيش يقوم على الكفاف. وصاحب الحظ من الفلاحين، أو الحظوة، يتنعّم بما هو أكثر من الضروري.. إما لوسع المساحة، أو للعلاقة مع المالكين، لقاء خدمات معلومة.

كان جبران، وأبوه قبله، مجدّين في علاقتهما مع الأرض، ومبدعين في أمور الزراعة، وتنميتها.. أرض مميّزة في نقاء تربتها، وجمال أشجارها، وترتيب حيطانها، وأسوارها التي تحميها من الصيادين، والسارقين.. وفواكه وخضار قلّ مثيلها في الضيعة، والجوار.. حتى قمحهما المزروع، يختلف عن قمح الآخرين بلونه وجودته، وطعمه في الكبّة النيّة؛ الأكلة النادرة، والمميّزة، والمفضّلة، لدى فلّاحي الضيعة..

لم يشذّ جبران عن مسلك أهل الضيعة، في علاقته بالطعام. كان يكتفي، كما الكلّ، أن تكون أكلة الكبّة النيّة، مرة واحدة في الأسبوع، يوم الأحد، وأحياناً في الأسبوعين. ليس عليهم، إلّا أن يسمعوا نداء: يا سمين.. يا الله، ليعرفوا أن عجلاً انذبح،

أو خروفاً أو معزاة، فيذهب مَن بيده الحيلة، ليحصل على ما يستطيعه من اللحم، لصنع الكبّة، مع الكثير.. الكثير من البرغل.. أما بقيّة الأيّام، فلا خوف عليها.. ما تنتجه الأرض، وسواعد الفلاحين، يكفي حاجاتهم، ويزيد.. ولأن الزراعة متلازمة مع وجود الحيوانات، كان من البديهي أن يكون في كل بيت، البقرة والحمار والدجاج، وثورَا الفلاحة لدى الأكثريّة؛ يحصل الفلاح على كل ما يحتاج إليه.. وما زاد عنه، أوجَدَ من يشتريه، ويصرّفه في المدينة.. ولا عجب، بعد ذلك، من سماع المَثل الشعبي الذي يقول.. «فلاح مكفي سلطان مخفي».

عاش جبران سلطاناً في بيته.. لم ينقصه شيء، إلا تلك البسمة التي تكتمل فيها سعادته.. ولكنها هربت منه، لِما عاناه في حياته، من فَقدِ أحبّ الناس إلى قلبه. وما كان عليه، إلّا أن ينتظر كوّة صغيرة، في جدار سميك من الحزن، حاول أن يتأبّد، في قلب جبران، وأخته محبّة.. أما أمّ جبران ومحبّة، فقد غادرتها أحلام السعادة والفرح، وكأنها ماتت.

عملَ جبران، من تلقاء ذاته، ودون مشورة أخته وأمّه، على تحضير فرح لمحبّة، لا يدانيه فرح.. ليس حبّاً في الظهور، ولا إظهار الكرم، بل في محاولة لقهر الحزن والعذاب، والتغلّب على اليأس، وللبرهان على أن الدنيا في خير، ولا تستحقّ ما يُحزِن.. والحزن واليأس، كما الفرح والسعادة، من صنع الانسان، وإن كان لتدخّل القَدَر نصيب. كان جبران على إيمان مكين، أن الحزن واليأس صنيعة القضاء والقدر، أما الفرح

والسـعادة، فمـن صنـع الانسـان، وإن كان في مواجهـة القـدر. النجـاح في تجـاوُز المحـن والأزمـات، بمـا يشـحذ همَـمَ الرجـال، علامـات يسـجّلها القـدر، ويقرّهـا، كـما المحـن والأزمـات.

- تعالي يا محبّة.. لي حديث معك. لا تخبري أمك، بالأمر..

- نعم، يا أخي.. قُل..!

- أريـد منـك، أن تذكـري لي، كل مـا تحتاجـين إليـه، في جهازك.. لا أريـده أن ينقـص شـيئاً.. المال موجـود.. كل شيء.

- لا أريد إلّا سلامتك، يا خيي..

- إيـه.. إيـه.. وأيضـاً جهـازك.. عرسـك سـيخلق فينـا الفـرح مـن جديـد، يـا عمـري..

أدمعـت عينـا محبّـة، وغمـرت أخاهـا، وأجهشـت بالبـكاء. غادرتـه، والدمـوع في عينيهـا، وتوجّهـت صـوب أمّهـا، لتكلّفهـا بتحديـد مـا هـو ضروري، لجهازهـا، دفعـاً للاحـراج، ورأفـة بزنّـار أخيهـا.

تعـرف محبّـة مـدى تعلّـق أخيهـا بهـا، وهـو أيضـاً، عـلى أبـواب زواج، ولا تريـد أن ترهقـه بمطالبهـا.. وتعـرف أن حياتهـا مرهونة بـه، وبتضحياتـه.. كان يمكـن أن يعيـش بدونهـا، ولا يمكـن أن تعيـش بدونـه. هـي الصغـرى، وهـو الكبـير البكـر. تـدرك أنّـه لا يمكـن أن يتـزوج، قبـل أن تخـرج هـي، إلى بيـت زوجهـا.. وعليهـا أن تخـرج، كـما قـدّرت مـن موقـف أخيهـا، عـلى أفضـل حلّـة ممكنـة، وأفضـل جهـاز.. النـاس لهـا أعـين، وعليهـا أن

تـرى.. وعـلى جـبران وأمّـه، أن يقولـوا للنـاس بـدون كلام، أنّ أيـام العـذاب والقهـر انتهـت.. وهلّـت أيـام الفـرح والسـعادة، وإن كانـت عـلى حسـاب خسـارة الابنـة والأخـت.. تبقـى هـذه، مـن أجمـل الخسـائر.. إنهـا سـنّة اللـه في خلقـه. هكـذا هـو الـزواج.

بـدأت محبّـة في تحضـير الجهـاز. وجـاء اليـوم الـذي أسرّ إليهـا جـمال فيـه، بـأن أمّـه، وأختـه وصهـره، سـيزورون أهلهـا، لتحديـد موعـد العـرس.. ويـوم «القطـع»..

– يعني ما بدّك تجي معهم؟؟ سألته محبّة، بعين مواربة..

– ومتى كان طالب القرب، يطلب لنفسه؟؟

غمزت محبّة بعينها، وأدارت ظهرها، ضاحكة..

حـدّد جـمال موعـد العـرس، وأصرّ عـلى أن يكـون بسـيطاً، دون طنّـة ورنّـة.. سـكتت أمّـه، ولم تسـكت سـما.. سـكتت محبّـة وأمّهـا، ولم يسـكت جـبران..

– لمـاذا..؟ مقطـوع مـن شـجرة؟؟ نحـن لسـنا مقطوعـين.. نريـد أن نفـرح ونهلّـل ونرقـص.. انتهينـا مـن العـذاب والبـؤس والقهـر.. والعـرس، مناسـبة لإظهـار ذلـك.. قـولي هـذا الـكلام لجـمال.. وليهـدأ..

كان كلام جبران قاطعاً.

نزلـت محبّـة مـع أمّهـا وأخيهـا، برفقـة جـمال وسـما، إلى

المدينـة، «للقطـع» وتجهيـز لـوازم العـرس، مـع مصوغـات العـروس وثيابهـا، ولـوازم البيـت.. إلتزمـت محبّـة الصمـت.. لم تطلـب شـيئاً، ووافقـت عـلى كلّ مـا عرضـوه عليهـا.. حظيـت بخاتمـين وعقـد وإسـوارة.. مـن العريـس، وخاتـم وصليـب مـع سلسـاله، مـن أخيهـا.. ومـا عـدا ذلـك، جـاء مـن أهـل العريـس. أمـا جهازهـا هـي، فينتظـر مـن ينقلـه مـن بيـت أهلهـا، إلى بيـت زوجهـا، بالهَيصـة المعروفـة، غنـاءً ورقصـاً وتمايـلاً.

كان عرسـاً مهـولاً.. ولكـن بـلا طبـل ولا حـلّاق.. لا حـلّاق في الضيعـة، يحلـق لحـلّاق.. حلـق جـمال في المدينـة، وقـصّ شـعره، وهنـدس شـاربيه الأشـقرين المعقوفـين، يـوم القطـع.. ولا حاجـة لإعـادة الكـرّة، إلا للذقـن، وحـول الشـاربين. أجمـل مـا رآه جـمال في عرسـه، تجمّـع أعمامـه، وأقاربـه حولـه، وهـم يهزجـون ويصفّقـون، عـلى وقـعِ مزمـار عمّـه خليـل، وتمايـلِ عمّتـه رضـا، ورقـصِ الشـباب والصبايـا.. إلّا أنّ أجمـل مـا يمكـن أن يخطـر في البـال، إنـزال العريـس إلى الرقـص، بعـد إلحـاح مـن ابنـة عمّـه جليلـة، جارتـه وأقـرب أقاربـه إلى نفسـه.. رقـص العريـس وتمايـل، وسـط التصفيـق والزغاريـد، والهتـاف بحياته.. رقـص.. ربمـا للمـرة الأولى، عـلى مـا قـال بعـض المحتفلـين.. ومـن شـبه المؤكّـد، أنّـه تمنّـى، مـن كلّ قلبـه، لـو رأتـه محبّـة..

كان عـلى موكـب العـروس، أن يمـرّ مـن أمـام بيـت العريـس، في الرَّوحـة إلى الكنيسـة، للاحتفـال بالاكليـل. تحـرّك الموكـب، بعـد أن أبلـغ أحدهـم العريـس، بـأن لطـف اللـه، والخـوري غريّـب، في باحـة الكنيسـة.. كان مـن حُسـن الواجـب أن يسـتقبل

العريس عروسه، قبل وصولها إلى بيته، على المفترق الموصل إلى بيت أهلها.. هذا ما فعله، وقد أخذ معه كل من كان في الدار. العريس مع عائلته، وأنسبائه، وأصحابه، للقاء العروس مع عائلتها وأنسبائها ورفيقاتها.. أهل الضيعة كلّهم في الطريق.. استدار بعضهم، وأكمل غيرهم الطريق في حشد قلّما عرفته الضيعة، مع المزمار، والأكفّ المصفّقة، والرقص والتمايل.. ورشّ الأرزّ، على غلاوته، والملبّس والزهور. وكما في كل عرس، التهنئة، وإستكمال الاحتفال في بيت العريس، من دون أن يكون أحد، من أهل العروس.. تقليد راسخ، كان من الصعب إخفاؤه، إلا ما ظهر منه.. أما ما بطُنَ، فالكثير منه، ما زال حياً يُرزق.

لم تسَع الفرحة قلب مريم، أمّ العريس.. لم تجفّ دموعها، من اللحظة التي استقبلت فيها العروس، بعطر البخّور، وصينية الخميرة، ورمّانات البركة.. إلى جلستِها في صدر الدار، بجانب العريس..

تروح مريم وتجيء.. ترقص وتتمايل وتبكي.. دموع تجرّها دموع.. بكاء على فرح، ممزوج بالحسرة.. هذا ما بدا على وجه الأمّ.. وهذا ما لم يصعب فهمه من العروسين، ومن سما.. ومن جلّ الحاضرين.. إنه الفرح بزواج جمال، الممزوج بحسرة الغياب، لوالدٍ، لم يقدّر له أن يشارك أسرته فرحها..

خرجت سما من بيت أمها، لتدخل محبّة إليه، مع فارق في ثقل الفرح، ونوعه.. فرح ممزوج بالحسرة، لفراق ابنتها؛

وفـرح ممـزوج بفـرح قـادم، عـلى أجنحـة الـزواج، أضفتـه محبّة عـلى حماتهـا، عوّضـت عـن خسـارة سـما، وزاد مـن محبّتهـا لمحبّـة.. عـلى نـدرة المحبّـة التـي يمكـن أن تكنّهـا الحـماة للكنّـة.

صـار جـمال زوجـاً.. وصـارت محبّـة زوجـة لـه. انضـما تحـت جناحَـي أمّـه..

لم تختلـف مسـيرة جـمال عـما كانت عليه، أيـام العزوبـة.. الصيد خيـار أوّل.. والعمـل خيـارات أخـرى، توزّعـت بـين التعليـم، والمعالجـات البسـيطة، والحلاقـة.. عمـل يومـي، يتوقّـف عنـد حلـول أي فرصـة للصيـد، بقـدوم الموسـم، أو الترحـال إلى أماكـن بعيـدة، لصيـد مـا هـو غـير متوفـر، في محيـط الضيعـة.. منهـا الحجـال والأرانـب والغـزلان.. رحـلات تمتـدّ إلى بضعـة أيـام.. لا حسـيب ولا رقيـب.. زوجتـه في كنـف أمـه، وأهلهـا.. ويكفيـه هـو فخـراً، أن يعـود، لـيروي مآثـره في الصيـد، وتفوّقـه عـلى الصيّاديـن.. ويسـتأنف عملـه في الحلاقـة والتعليـم، وكأنهـما أوقـات اسـتراحة بـين حفـل صيـد، وحفـل آخـر.. ومـن أطـرف مـا كان يفعلـه، تهيئـة أدوات صيـد السـمك.. شِـباك العـبّ وضروب الديناميـت، وكبسـولاتها، وشـنتة الصيـد، مـع البندقيـة والخرطـوش.. لا يجـوز الذهـاب إلى الصيـد، بـدون بـارودة، حتـى وإن كان الصيـد سـمكاً.. هكـذا كان يقـول..

مـن أخطـر مـا كان يفعلـه جـمال، تركيـب كبسـولة التفجـير.. يمسـح الفتيـل عـلى سـوية الكبسـولة.. لمـاذا؟؟ حتـى ينفجـر الديناميـت لحظـة تجمّـع السـمكات، عـلى شيء غريـب.. وكأنـه طعـام.. فيحصـد أكـبر كمّيـة ممكنـة منـه.. عمـلٌ محـترف

ولكنّه خطير.. إذ ربما، ينفجر بين يديه، لقصر المسافة بين الإشعال والانفجار..

- روح ولاه.. قُول هالكلام لواحد غشيم..

هكذا كان يردّ، عندما يلمس خوفاً في أسئلة أحد من محبّيه.. وأولاده، فيما بعد.

كان كثيراً ما يتحدّث عن مغامراته، في صيد الحجال.. الحجل عندما يهمّ بالاقلاع في طيرانه، يُوقع البارودة من يد الصياد، إذا لم يكن قدّها. فكيف عليه أن يقوّصه ويصيبه..؟ كان جمال يتباهى، بأن لا حجل نجا من خُردق بارودته.

من أجمل ما كان يرويه ابنه أمين، وهو مَن كان يحبّ أن يذهب معه إلى صيد السمك، أنه رآه يرقص ويتمايل، على حافّة النهر عندما وُفّق في صيد سمين. صخرة عالية في الماء، بينها وبين حافّة النهر مسافة قصيرة.. والمياه عميقة.. خمّن جمال أنّ في ذلك المطرح، سمكاً كثيراً.. أعمَلَ فكره ليعرف كيفيّة صيده.. حافّة عالية.. الوقوف فيها صعب، وعلى السمك أن لا يهرب.. لم يقل شيئاً.. هبط وتوجّه إلى نبتة كثيفة من الدفلى.. قصّ منها غصناً طويلاً، عرّاه من الأوراق، دون أن يقول كلمة واحدة.. وأمين ينظر إليه بدهشة..

ربط قطعة الديناميت برأس قضيب الدفلى جيداً. أحضر الكبسولة.. أزال منها الفتيل القصير، ووضع مكانه فتيلاً أطول بمرّتين.. أشعل سيكارته، وصعد إلى الحافّة. أشعل

الفتيـل بـكل هـدوء، وأنـزل القضيـب عـلى مهـل وغطّسـه بالماء. لحظـات، وحصـل الانفجـار.. ويـا لهـول مـا رأيـاه.. أسـماك كثيرة، لا يمكـن حصرهـا، طفـت عـلى وجـه المـاء.. بـدأ هـو بالرقـص والتمايـل، قبـل أن ينـزل عـن الحافّـة، ويدخـل في النهـر.. بـدأ السـمك يسـير الهوينـى مـع جريـان المـاء.. العـبّ في يـد الابـن يلتقـط مـا يسـتطيع، ويـروح الباقـي.. ركـض جـمال، مـع جريـان المـاء، ليلتقـط مـا يصـل إليـه.. ومـن ثـم عـاد، ليفـرغ العـبّ، وليعيـد تعبئتـه مـن جديـد، مـن السـمك الباقـي في الميـاه العميقـة والهادئـة.. سـمك كثـير.. لم يسـتطيعا حملـه. تـرك جـمال الموقـع.. إلى الضيعـة جريـاً ليـأتي بالحـمار، والخِـرج، ليحمـل مـا جمعـاه مـن السـمك.. يـوم مشـهود، عرفـه جـيران جـمال، مـع رائحـة السـمك النـيء، والمقـلي.

10

لم تـترك سـما أمهـا مكسـورة الخاطـر، بعـد خروجهـا.. صباحيّـة اليـوم التـالي، حـضّرت نفسـها لزيارتهـا.. أبلغتهـا حماتهـا، أن لا يجـوز للعـروس، أن تخـرج مـن بيتهـا الجديـد، قبـل مـرور أسـبوع، و«بـردّة إجـر» معتـبَرة، لهـا أصولهـا وتقاليدهـا.. وبعـد ذلـك، تذهـب أنّى تشـاء. لم تصـدق سـما أنهـا لـن تـرى أمهـا، وأخاهـا، طيلـة أسـبوع.. ليـس هـذا فقـط.. بـل ليـس عليهـا أن تـرى، إلّا أهـل بيتهـا الجديـد، وهـي لم تـرَ بعـد إلّا حماتهـا، التـي بكّـرت بالقومـة، لتنـشر ثيابـاً مغسـولة، أمدّهـا بهـا وليدهـا العريـس.

– امرأة عمي.. الله يخليكِ، أراهما وأعود..

– لا يجـوز يـا عـروس.. حبيبتـي أنـت.. عيـب. يضحكـون علينـا إذا رحتِ..

لحظـات، وهـي عـلى عتبـة البيـت، لمحـت أخاهـا جـمال، قادمـاً نحوهـا.. رأتـه الحـماة.. دفعتهـا إلى الداخـل، وأغلقـت البـاب.. وصـل، وحـاول الدخـول.. مقفـل. نَـدَه سـما.. ردّت مـن الداخل، وبكاؤهـا سـبقها..

– لا يمكنك أن تراها، عيب.. ليس من الأصول.

ترجّاهـا، وألـحّ في الرجـاء، دمعـت عينـاه، وهو يطرق عـلى الباب أن افتحـي.. خيـي.. مـع بـكاء وصراخ، يأتيانـه مـن الداخـل..

والحـماة مسـمّرة عـلى البـاب لا تزيـح.. رجـل يبـكي، لـيرى أختـه، حـماة تقسـو، لمنـع الرؤيـة.. وإن تسـاهلت، في حـوارِ لهفـةٍ وبـكاء. هكـذا عـاد جـمال مكسـور الخاطـر، وعـرف أنـه لـن يكـون، بعـد تلـك اللحظـة، مـع أختـه، كـما كان.. صـارت لرجـل آخـر، وفي بيـت غريـب.

كان جرجـي لسـما، تعويضـاً عـن جـمال.. وإن كانـت علاقـة الزوجـين، تختلـف عـن علاقـة الشـقيقين.. وحـب الزوجـين، مـن طينـة مغايـرة لحـب الأخويـن.. لم يبخـل عليهـا زوجهـا في شيء.. وكان دائـم الوجـود في البيـت، وهـو بيـت المختـار، إلا في حـالات الشـغل في البسـاتين، أو زراعـة الخضـار والحبـوب، في أوقاتهـا، وجنيِهـا في مواسـمها.. وكل مـا عـدا ذلـك، في البيـت، منشـغلاً بسـما، وبحرفـة مكمّلـة لعمـل الفلاحـين.. هـادئ، رزيـن.. لا كلام، إلا للاجابـة عـن سـؤال، أو ردّ السـلام، بمثلـه.. وأحسـن.

كان مـن محاسـن الصـدف، أن يكـون المختـار وجيهـاً في عائلتـه، عائلـة الحلبـي، ومتقدّمـاً عـلى أهـل الضيعـة، لعلاقاتـه مـع الجـوار، المنسـوجة مـن والـده قبلـه، تعـزّزت بحصولـه عـلى قسـطه مـن التعليـم، في البلـدة المجـاورة، لوجـود أقـارب لـه، تجمعـه معهـم رابطـة المصاهـرة.. أقـام، وتعلّـم، وحصّـل، مـا يمكـن أن يصـيّره مختـاراً. مركـز، قدّم له مكاسـب كثـيرة، لأهمّيته في تنظيـم نواحـي السـلطنة العثمانيـة. وأكسـبه منصبـه سـلطة إداريـة، باعتبـاره مختـاراً.. منهـا الاشراف عـلى جمـع الضرائـب، وأمـوال الضـمان للمالكـين، وغـضّ الطـرف عـن الهاربـين مـن سـفر برلـك. وقـد رأى مـرّة أيـوب، بـأمّ عينـه، ملفوفـاً في حصـيرة

مركونـة في الزاويـة، لصغـر قـدّه؛ وقـد غالـب نفسـه، لمنعهـا مـن الضحـك، وتجنُّـب الفضيحـة، أمـام دوريـة العثمـلّي. ولم يتأخّـر في تدخّلـه، لإعفـاء هـذا، أو ذاك، مـن الجنديّـة.. وقـد حصـل أن أعفـى ابنـه مـن المشـاركة في الحـرب الكـبرى، وهـو والـد جرجـي زوج سـما، بينـما تـرك، ربمـا مرغـماً، ابنـه الثـاني يـروح، ويهـرب مرتـين، ليعـود، إلى أن انتهـت الحـرب.. ولـولا وسـاطة أبيـه، كان أُعـدم لتهرّبـه مـن المشـاركة في المعـارك.

قدّمـت المخـتَرَة لأبـو جرجـي تسـهيلات كثـيرة.. منهـا، إشرافـه عـلى أمـلاك بعـض أبنـاء المدينـة، في الضيعـة، وبعـض مـا كان يحصـل عليـه نتيجـة اشـتغاله في تقديـر الضرائـب، وضـمان الأراضي، بالاضافـة إلى امتيازاتـه، باعتبـاره مختـاراً.. مقابـل مـا كان يعتـبر، أنّ مـن واجباتـه تأمـين حاجـات المقصّرين، مـن أبناء الضيعـة، واسـتقبال الوافديـن، مـن المأموريـن، ورجـال الأمـن.

عـاش المختـار، جـدّ جرجـي، ومـن ثـم أبـوه، في بحبوحـة عيـش، لم يتسـنّ إلا للأقليـة أن تعيشـها في الضيعـة.. هـؤلاء، مـن العائلة نفسـها، حصلـوا عـلى ملكيّتهـم الزراعيـة، في الضيعـة وخارجهـا، بجهودهـم، وعـرق جباههـم.. ومنهـم، مَـن اتّخـذ مـن اقتنـاء الغنـم والماعـز، وتوسُّـل الرعـي، وبيـع الإنتـاج، مصـدراً لرزقهـم؛ وهـم، مـن عائلـة جـمال.. أمـا بقيـة الأهـل، فهـم الفلاحـون الذيـن لم يحظـوا إلا بكفـاف يومهـم.. وتخبئـة القليـل، مـما يمكـن أن يبقـى، للأيـام السـوداء.

لم تكـن أعـراف الضـمان ظالمـة، ولكنهـا كانـت كثـيرة عـلى الفـلاح.. عـرف المختـار الأب، ذلـك.. حـاول إنقاصـه، بحجـج

المواسـم الماحلـة.. وخصوصـاً، مـا يتعلـق منهـا بالحبـوب.. استدعى ذلـك، حضـور المالكـين، قسـمةَ المحاصيـل عـلى البيدر، قبـل نقلهـا إلى البيـوت.. رقابـة، اقتضـت المواجهـة بالحيلـة. وذلـك يعنـي، إبقـاء قسـم مـن الحبـوب داخـل التـبن، وقسـمة مـا هـو ظاهـر، بعـد فصلـه عـن التـبن.. منْـعَ ممثـلي المالكـين، مـن النـوم عـلى البيـادر، بتلويـث الفـرش وتشـويكها.. ووصـل الأمـر أخـيراً، إلى الـضرب والدخـول إلى السـجن.. كلّ ذلـك، والمختـار مجـبَر عـلى الوقـوف إلى جانـب المالكـين، وإن كان في الخفـاء يغـضّ الطـرف، عـمّا يفعلـه الفلاحـون.

وصـل الأمـر إلى أقـسى مواجهـة، عندمـا قـرّرت دائـرة المسـاحة، تنظيـم أراضي الضيعـة، وتسـجيلها رسـمياً.. كان عـلى المختـار أن يشـهد بصحـة ملكيـة هـذا، أو ذاك، مـن المالكـين، أو الفلاحـين.. فـكان أن عمـل عـلى تسـهيل تسـجيل كل الأراضي لمالكيهـا، ولم يـترك شـيئاً للفلاحـين، سـوى مسـاحات بيوتهـم.. مـع التأكيـد عـلى ملكيـة الربـع، لـكل فـلاح في أرضـه المضمونـة، حسـب القوانـين والأعـراف التـي كانـت سـائدة مـن قبـل.. احتـجّ الفلاحـون مـن كل العائـلات، ووصـل الأمـر إلى التضـارب.. ولم ينجـح إلا فـلاح واحـد، صمـد في الدفـاع عـن حقـه، ونجـح في تسـجيل أراضيـه، باعتبارهـا ملـكاً لـه. أمـا الباقـون، فقـد ذهلـوا مـما حـدث، وقـد لمسـوا بالعـين، أن باحـة الكنيسـة ذاتهـا، سُـجّلت، باعتبارهـا ملـكاً لأحـد المالكـين.. ولم يُـترك في الضيعـة مـتر واحـد مشـاعاً. وقـد ظهـر، فيـما بعـد، أن أمـلاكاً كثـيرة، سُـجّلت باسـم المختـار.. ولم يكـن ذلـك، في ظـنّ الكثيريـن، إلا عرفانـاً بجميـل إخلاصـه، ووفائـه.. وكان جرجـي وأخـوه وارثَي

هـذه الملكيـة، وقـد أرضَيـا أخواتهـما البنـات، بمـا تيـسّر.

عمـل جرجـي، كـما أخـوه، ولسِـعتهما في العيـش، عـلى تعليـم أبنائهـما الذكـور في المدينـة، دون الإنـاث. وقـد اسـتندوا في ذلك، عـلى علاقتهـم بالمالكـين، مـن أفنديّـة المدينـة، أو مـن الأقـارب، مـن خـارج الضيعـة، وكان إثنـان منهـم مديرَيـن لمدرسـتين رسـميتين في المدينـة، عُرفـا بنزاهتهـما، وكرمهـما، وتسـامحهما، ونـصرة أحدهـما للفلاحـين. وحصـل أن حظـي أبنـاء جرجـي بالشـهادات الرسـمية الأولى في الضيعـة.. خوّلتهـم ليكونـوا معلّمـين.. بينـما أخفـق أبنـاء أخيـه. شـارك المختـار في هـذا المسـلك، آبـاء نـادرون، لم يتعـدّوا أصابـع اليـد الواحـدة.. نجـح بعـض أبنائهـم، وفشـل آخـرون. إلا أن جميـع هـؤلاء، أحسـنوا القـراءة والكتابـة..

كانـت ملكيـة عائلـة الحلبـي، ونسـبة التعليـم فيهـا، السـبب الرئيـس لوجاهتهـم في الضيعـة. ولأن الملكيـة الزراعيـة، والعمـل في الأرض، كانـا أسـاس الوجاهـة واليـسر، أدارت العائلـة ظهرهـا إلى الوظيفـة العامـة، أو العمـل تحـت أيـدي النـاس. مـالٌ كثـير، ومـصروف قليـل، في ضيعـة شـبه معزولـة، أدّيـا إلى زيـادة مسـاحة الملكيـة، وزيـادة الاتـكال عـلى الزراعـة مصـدراً رئيسـاً للعيـش. وقـد وصـل الأمـر، إلى رفـض حصـص مـن الوظائـف المهمـة، في شركـة النفـط، ومصانـع الخشـب والحديـد، قدّمهـا المختـار، ووجهـاء العائلـة، إلى شـباب مـن خـارج الضيعـة، لأنهـم يأنفـون الاشـتغال في الخدمـة. ذلـك كلّـه، حصـل في عقـد الخمسـينيات.. الـذي شـارف عـلى نهايتـه، مـع افتتـاح المدرسـة

الرسـمية.

لم يعمـل جـمال مـا عملـه صهـره، في النظـر إلى أبنائـه.. كان صاحـب مدرسـة. كيـف عليـه أن يرسـل أبنـاءه إلى مدرسـة، غـير مدرسـته، وليـس في البـال فكـرة اسـتثمار العلـم، مـن أجـل العمـل..؟ ومـاذا يقـول النـاس؟ يعلّـم أبناءنـا، ويرسـل أولاده إلى مدرسـة الحكومـة؟؟ ومـن أجـل مـاذا في الأخـير..؟ أليـس مـن أجـل أن يعملـوا؟؟ لمـاذا لا نـدع أبناءنـا يعملـون، بـدل ضيـاع أيامهـم في العلـم، ليعـودوا بعـد ذلـك ليعملـوا..؟

ربمـا كان موقـف جـمال نابعـاً مـن عجـزه عـن إرسـال أبنائـه إلى مدرسـة المدينـة، متّخـذاً مـن مدرسـته حجّـة لـه.. إذ أيـن سيسـكنون، ومـاذا يأكلـون، ويلبسـون، ولا معـين لهـم، لا في جيبـه، ولا في علاقاتـه..؟

وكان أن قـال جـمال هـذا الـكلام، بعـد ذلـك بكثـير، عندمـا سـأله ابنـه أمـين، عـن سـبب عـدم تعليـم إخوتـه.. فـردّ بالقـول، هكـذا سـتكون أنـت، لـو لم يقطـن أخـوك في المدينـة.

أرعـبَ أمينـاً هـذا الـردّ، وشـكر اللـه أن لديـه أخـاً يعمـل، ويسـكن، في المدينـة.

ذهـب أبنـاء جرجـي وسـما الثلاثـة إلى المدرسـة، وذهـب أبنـاء جـمال الثلاثـة إلى العمـل.. والأكـبر فيهـم، لم يتجـاوز الخامسـة عـشرة..

أمـا بقيـة أبنـاء سـما وجـمال، فقـد حالفهـم الحـظ بافتتـاح

المدرسة الرسمية في الضيعة، في أواخر الخمسينيات.. فتناولوا العلم على طبق الدولة الحديثة.. الدولة التي حاولت تعميم التنمية الاجتماعية والاقتصادية في البلد كلّه، ومنها ضيعة جمال وسما. نواة أولى لحقتها خطوات أوصلت المرافق الحياتية الأساسية للضيعة، من طرقات وكهرباء ومياه. وقد أنتج ذلك، تنمية محلية شملت الضيعة كلّها، من المستوى التعليمي، إلى الاجتماعي والاقتصادي. وقد ساهم ذلك كله، في الدخول إلى الوظيفة العامة، والخاصة، وفي رفع المستوى المعيشي العام.

لم يلحظ الكثيرون تغيّر نمط الحياة في الضيعة، وفي البلد كلّه.. تخلّفت الملكية الزراعية عن اللحاق بالتطوّر العام.. والاتّكاء على الزراعة أفقرَ المالكين.. وهؤلاء، لا مهنة لهم، ولا اختصاص أو معرفة، في غير العمل الزراعي.. وبَيع الأملاك عار.. انقلبت المعايير، ولا بديل عن عجز الموجود. تحوّل المالكون إلى عمّال ليسدّوا العجز في مداخيلهم، وارتقى الفقراء، من خلال عملهم، وجهدهم وتحصيلهم العلمي، ودخولهم في الوظيفة، والسلك العسكري، أو هجرتهم، لتحسين أوضاعهم، وبناء مستقبلهم.. تحوّلت الوجاهة، من ملكية الأراضي، إلى الارتقاء في الوظيفة العامة.. ثبات نتائج الملكية، وتقهقرها، مع غلاء المعيشة والتضخم، وحركة الوظيفة، والعمل الحرّ المتأتّي من التجارة أو الحرفة، أدت إلى تغيّر في النظرة إلى مواقع الناس، وإلى ما يشغلونه في مجريات حياتهم اليومية.

أفـاق جرجـي، بعـد رحيـل أبيـه المختـار، عـلى ملكيّـة واسـعة، ورثهـا مـع أخيـه، كـما ورث ختـم المختـرة.. سـعة عيشـه، مقارنة مـع أهـالي الضيعـة، تكفّلـت بتعليـم أبنائـه.. وسـاعدته حرفتـه عـلى إعانـة الفلاحـين، مـع مـردود ضئيـل، ولكنـه مفيـد.. لم يرضَ أن يأخـذ رسـماً عـلى المعامـلات التـي ينجزهـا.. لا حاجـة لـه في ذلـك. ولم يفعـل مـا يمكـن أن يـضرّ بأحـد.. يسـتقبل المرسَـلين، ويسـتضيفهم مـن جيبـه الخـاص.. ورجـال المخفـر أثقلـوا كاهله، وأكلـوا دجاجاتـه، ولا إمـكان للتهـرّب أو إغـلاق الأبـواب.. وسـما تعمـل، وإن كان عـلى غـير طيبـة خاطـر.. وكـذا بناتـه. ولكـن لا مفـرّ.. عليـه أن يقـوم بالواجـب.. أليـس هـو المختـار..؟

كان جـمال يعـزف عـلى وتـر آخـر.. آخـر همّـه مـا عليـه، تجـاه أسرتـه.. محبّـة تعـرف ذلـك جيـداً.. الصيـد دينـه وديدنـه.. ومـا يشـفع بـه، محبّتـه للنـاس وشـدّ أواصر العلاقـة مـع هـؤلاء، إن كانـوا مـن داخـل الضيعـة أو مـن خارجهـا.. أول مـن يسـتقبل الغريـب، بحكـم وجـوده الدائم، خـارج أوقات الصيـد. وأول من يبنـي علاقـات مـع هـؤلاء، بحكـم أعمالهـم الموقّتـة في الضيعـة، عـمّال الكهربـاء، موظفـو حمـلات التطعيـم، أصحـاب الدرّاسـات الآليـة، البائعـون المتجوّلـون.. مـن النـادر أن يمـرّ غريـب، ولا يتعـرّف عليـه، ويبنـي معـه علاقـة، تتحـول إلى صداقـة بتكـرار الزيـارات. يحصّـل مـا يعمـل فيـه، عينـات مـن انتـاج الضيعـة، ومـن عمـل أمّـه الزراعـي. لا لـزوم للـمال، إلا بمـا يلـزم لأمـور الصيـد، ولـوازم البيـت الضروريـة. عـاش أجمـل أيامـه، في زمـن قـوات الحلفـاء، مـن الأسـتراليين، الذيـن بقـوا في محيـط الضيعة، طيلـة أيّـام الحـرب الثانيـة.. عمـل حلّاقـاً لهـم، وتمـرّس في هـذه

المهنـة، بالقـصّ والحلاقـة.. كانـوا يكرمونـه بالدفـع، ومعلّبـات اللحـوم، وصنـوف الشـاي والـكاكاو.. وفي خروجهـم خـسر مـورداً مهـماً.. عوّضـه عليـه أبنـاؤه الذيـن دخلـوا مجـال العمـل باكـراً.. ولأنهـم مرضيّـون ومرَبّـون جيـداً، كانـوا يقدّمـون لـه كل مـا يقبضونـه مـن أمـوال، فيجـود عليهـم، بمـا فيهـا مـن معـدن، عـلى أن لا يتجـاوز النصـف لـيرة، في أحسـن الحـالات..

غالبـاً مـا كان أكـبر هـؤلاء، يوسـف عـلى اسـم جـده، يتباهـى بأنـه يشـتغل، بلـيرة وربـع يوميـاً، وفي الأسـبوع سـبع لـيرات ونصـف، يعطيهـا لوالـده، فـيردّ لـه النصـف لـيرة.. «خـلّي هيـدي معـك».. أمـا إذا كان العمـل خمسـة أيـام، فينفحـه ربـع لـيرة، بعـد السـؤال عـن النقصـان.. كان يوسـف يتنـدّر بهـذا الـكلام، عندمـا يلمـس البحبوحـة بـين أيـدي أبنائـه، فيلعـن التبذيـر الـذي لا فائـدة منـه، سـوى هـدر المـال عـلى الفـاضي.

اسـتمرّ جـمال وسـما، مـع أسرتيهـما، في تدبـير شـؤون الحيـاة اليوميـة الرتيبـة. ومـع تقـدّم العمـر تغـيّرت الأحـوال، وكـبر الأولاد، وطـرأ كل مـا هـو جديـد عـلى نمـط الحيـاة.. أسَرٌ بمهـام مسـتحدثة، ومسـؤوليات جديـدة، قلبـت المقاييـس. وتحـوّلُ حجـم العائلـة مـن وُسـعٍ فيهـا مـع كـثرة الأولاد، وأولاد الأولاد، بمـا يشـكّلونه مـن عـزوة، ووفـرة في اليـد العاملـة الزراعيـة، والاتّـكال المبكـر عـلى عمـل الأولاد، إلى زيـادة الاهتـمام بهـم، بتحوّلهـم مـن روافـد للدخـل، إلى قنـوات للمصاريـف الزائـدة، للتعليـم ومسـتلزماته. فتقـزّم حجـم الأسرة.. وصـار كلّ أب مسـؤولاً عـن زوجتـه وأولاده.. وتحـوّل هـؤلاء، مـن نمـط حيـاة

تقليديـة منتجـة، إلى نمـط حديـث مسـتهلِك.. وتحـوّل مصـدر الدخـل مـن أرض تعطـي، عـلى قـدر كميـة العمـل وأيـادي العاملـين، إلى مصـادر أخـرى، أوجدهـا النمـط الحديـث للانتـاج والدخـل.. هكـذا فـسّر أمـين تغـيّر نمـط الإنتـاج في الضيعـة، وتأثـير ذلـك عـلى تركيـب الأسرة وتوجّهاتهـا الجديـدة. وهـو يـدرك جيـداً، أن تغـيّر الأحـوال، والانتقـال مـن نمـط إلى آخـر، ما هـو إلّا نامـوس مجتمعـي، يتكيّـف معـه النـاس، ويسـاهمون في تسريعـه، عـلى قـدر وعيهـم بأهميـة التغيـير، ودوره.

أدركـت الأسرتـان ذلـك، كـما أدركـه الكثـيرون مـن أهـالي الضيعـة، وإن متأخّريـن.. وتحـوّل الأولاد الصغـار في الأسرتـين، إلى مسـتهلكين تعليـماً ولباسـاً وطعامـاً.. ظهـر ذلـك في أسرة جـمال، أكـثر.. ومـا طـرأ مـن تغـيّر عـلى أسرة جرجـي وسـما، أن البنـت مـا قبـل الأصغـر، قـد دخلـت مدرسـة الضيعـة لتتعلّـم مـع أخيهـا، بينـما أخواتهـا الثـلاث الأكـبر، لم يدخلـن مدرسـة، ولا حظـين بالتعليـم. وابنـا جـمال الأخـيران حظيـا بـه في الضيعـة، أولاً، قبـل أن ينتقـلا إلى المدينـة، وإن كان بهمّـة الأخـوة الأكـبر، ورضـا الأب وقبولـه.

كان مـن أهـم دلالات التغـيّر تركيـب أسرة كل من سـما، وجمال.. وتركيـب أسر أبنائهـما.. هـذا التغـيّر يـدل، بمـا لا يقبـل الشـك، عـلى سـيطرة نمـط جديـد مـن الحيـاة، عـمادُه اسـتقلالية الأسرة الصغـيرة، في كل شيء.. تغـيّرُ النظـرة إلى الأولاد، نشـأ عنهـا قلّـة في عددهـا.. الاهتـمام بالتعليـم والتربيـة الحديثـة، عـلى غـير مـا كان سـائداً. الاسـتقلال في اتخـاذ القـرارات، ورفـض السـلطة

الأبويـة.. تحديـد قنـوات الاسـتهلاك بمـا يتناسـب مـن مصـادر الدخـل.. تغيـير في طريقـة التوجـه باختيـار الأسـماء، وإن كان اسـم الجـد لا يـزال موجـوداً في الحفيـد البكـر، للابـن البكـر.

تشـكّلت أسرة سـما مـن ثمانيـة أبنـاء، وأسرة جـمال مـن سـبعة. وتراوحـت أعـداد الأولاد في أسر أبنائهـم، بـين ثلاثـة وأربعـة، وأسرة واحـدة وصلـت إلى خمسـة.. لم يفلـت أحـد، مـن أبنـاء هـؤلاء، مـن التعليـم.. ووصلـوا إلى درجـات عاليـة فيـه. كل ذلـك حصـل، في أكـثره، عـلى مـرأى ومسـمع جـمال وسـما، وإن لم يبقيـا إلى انتهـاء مرحلـة التحصيـل، لـكل الأحفـاد.

11

لم يلحظ جمال، ما يمكن أن يغيّر فيه حال الزواج.. لا هو تغيّر.. ولا محبّة لفتته إلى حاله الحاضرة.. تعوّد على نمط من الحياة، استحثّه للزيادة في التعمّق فيه.. بارودة ذاع صيتها، تُشغله أياماً.. تصل إلى يديه.. حرام حقّها.. «ما بيسوى صيّاد يحملها.. صيت عالفاضي». بارودة ثانية، ذُكرت أمامه.. يعاينها.. «إيه هيدي بارودة».. وللتدليل على إعجابه بها، يشتريها ولو بالدَين.. إلى أن يبيع إحدى بواريده، أو يفتحها الله في وجهه.. وفتحات الله قليلة وضيّقة.. إذا لم يتبعها الجهد والسعي..

عندما رزقه الله ابنته البكر، كان في رحلة صيد.. أم شفيق قامت بالمهمة، ولا بأس بلوحين من الصابون، شوفة خاطر، والمولودة بنت. ربما لو كان موجوداً، نفحها شيئاً آخر.. حلواناً على خلاص امرأته بخير.. نصيب.! لم يعلم أحد من أين أتى بالاسم الأجنبي لابنته، ولا مَن أشار عليه، بذلك.. جورجيت، اسم لم يكن معروفاً، ولا متداولاً في الضيعة.. والأهم، أنه لم يُظهر أي ردّة فعل على مجيء البنت، قبل الصبي. وصل إلى البيت وعرف أنه صار أباً، و..

– ألف مبارك، اللي بتجيب البنت بتجيب الصبي.. تربى بالعزّ والدلال..

لم يعد قادراً على الردّ، والناس متحلّقون حوله للتهنئة،

ومعرفـة ردّة الفعـل.. أحـسّ بالضيـق.. حـاول شـقّ النـاس، لـيروح.. أطـلّ وهيـب، عمّـه، وهـو يضحـك في حبـور ظاهـر..

- شـو يـا عـمّ، إجـاك بنـت؟ الحمدللـه عـلى السـلامة.. تـربى بدلالـك.. وعقبـال الصبـي.

- تسلم يا عمّي، نفرح لك بعريس..

لم يجـد جـمال بـدّاً مـن الخـروج، فاتّخـذ مـن عمّـه، عـذراً لذلـك..

- عمّي، أريد أن أكلّمك في أمر يشغلني..

- خير..؟

- لا شيء.. لا شيء.. ضـاق صـدري.. أريـد أن أتنفّـس.. ضجيـج وصراخ، وحـكي نسـوان.. لا أسـتطيع..

- وفوق ذلك، جاءت البنت.. قال وهيب ممازحاً..

- بنـت أو صبـي.. الحـال واحـدة.. والضجيـج واحـد.. وضيـق الخلـق واحـد.. لم أتعـوّد، بعـد، عـلى هـذا النمـط مـن العيـش.. وغـداً، خُـذ عـلى صراخ وقلّـة نـوم، وقيـام وقعـود.. أيـام جديدة وظالمـة تنتظـرني..

- يـا جـمال.. عليـك أن تتعـوّد عـلى حياتـك الجديـدة.. لم تعـد وحـدك.. صرتَ أبـاً، ومسـؤولاً عـن أسرة، وعليـك واجبـات..

- أعـرف.. أعـرف.. ولكـن.. دعنـي أفضفـض.. لمـن أحـكي إذا لم

يكـن لـك..؟

شـدّ وهيـب عـلى يـد جـمال.. خرجـا مـن باحـة الـدار، وتوجّهـا نحـو العـين، وهـما يُظهـران انشـغالهما بحديـث مهـمّ، ليـبرّرا خروجهـما، والمهنّئـون يتوافـدون.

- تـروح معـي إلى طرابلـس غـداً..؟ فترتـاح مـن هَـمّ الزائريـن، وأثقالهم..؟

فاجـأ وهيـب ابـن أخيـه بهـذا السـؤال، وهـو الـذي نصحـه بـأن يبقـى إلى جانـب محبّـة وأمّـه، والمهنئـون كثـيرون..

- خير يا عمّي، ما المناسبة..؟

- مـن يومـين، كنـت في المدينـة، وزرت الأسـتاذ لطـف اللـه، وهـو في قلـق عظيـم، نشـأ عـن أزمـة مسـتجدّة في الطائفـة.. اختلـف المطارنـة في مجلسـهم، ونشـأ عـن هـذا الاختـلاف انقسـام حـاد.. اللـه يسـتر.. ولطـف اللـه عـلى انشـغال بـال، وخـوف، مـن الأعظـم.. ومـن شـماتة الشـامتين.. نـروح ونسـتطلع، ونعـرف مـا يحصـل، وإذا كان علينـا أن نفعـل شـيئاً..

- هـذه حـال الطائفـة يـا عمـي.. سـطوة السـلطة والانبهـار بالتشـوّف، يسـيّران الجميـع.. مـا لنـا ولهـؤلاء.. الطائفـة، وإن تشـلّعت.. فسـتعود كـما كانـت.. الطامعـون والمتسـلّقون يذهبـون، وهـي باقيـة..

- مـن المهـم، أن نكـون عـلى علـم بأحـوال الطائفـة.. قوّتنـا مـن قـوة طائفتنـا يـا جـمال.. ألا تـرى مـا فعلـوا بلبنـان.. وكيـف

حوّلـوه إلى مجموعـة طوائـف..؟

- بـلى.. بـلى.. ولكـن، كيـف يمكـن لطائفتنـا أن تكـون قويـة، وقـد انتخـب مطارنتهـا بطريركـين، في الوقـت نفسـه، لهـا..؟ ألم تخـبرني عـن البطـرك أرسـانيوس، والبطـرك طحـان، كيـف صـارا بطركـين لبطريركيـة أنطاكيـا.. نتيجـة خلافـات المطارنـة وانقسـامهم؟ فرعـان بطركيّـان لبطريركيـة واحـدة..؟ وتكلّمنـي عـلى قـوة الطائفـة..؟

- بـلى.. بـلى.. ولكـن اللـه لطـف.. مـات أرسـانيوس، وبقـي الطحـان..

- ولو لم يمت.. ولو بقي حياً.. وبطركاً..؟

- عـلى أي حـال، أنـا سـأذهب غـداً.. إذا أردت مرافقتـي، أهـلاً وسهلاً..

- تـرك وهيـب ابـن أخيـه، واتّخـذ طريقـاً ثانيـة توصلـه إلى منزلـه، وعـاد جـمال إلى بيتـه، ليشـارك في اسـتقبال المهنئـين.

سـبقت سـما أخاهـا، بولادتهـا صبيّهـا البكـر طنّـوس، المسـمّى عـلى اسـم جـده المختـار. كان صبيّـاً جميـلاً فـرح بـه جرجـي، أبـوه، أيمـا فـرح، لوجهـه البهـيّ، ولتأمينـه اسـتمرارية الأسرة، حفيـداً مـن أب وجـدّ. وكان فـرحُ خالِـه مختلفـاً، فقـط لأنـه ابـن اختـه، وإن كان مـن عائلـة مغايـرة.. وهـو يعـرف تمامـاً، أن البنـت وابـن البنـت، أو ابـن الأخـت، ليسـوا لـه، إذا كانـوا مـن خـارج العائلـة.. بينـما الابـن وابـن الابـن، وابـن الأخ هـم السـند

والعضـد. كانـت فرحـة مجـيء ابنتـه وابـن أختـه منقوصتـين، وإن كانـا عـلى موجتـين مختلفتـين.. أمـا مريـم، فكانـت فرحتهـا مكتملـة إن كانـت بابنتهـا أو ابنهـا.. يكفـي أنهـا أصبحـت جـدّة لحفيديـن، وإن كانـا مـن عائلتـين مغايرتـين.

سـارت الحيـاة برتابتهـا المعهـودة، لسـنتين، جلبتـا معهـا صبيّـين، صبـيّ لسـما، وآخـر لجـمال.. اسـم يوسـف حـاضر عـلى اسـم الجـد، لجـمال ومريـم، واسـم سـمعان، لابـن جرجـي وسـما.. هكـذا بـدأت الأسرتـان تكـبران، وكأنّهـما في سـباق..

مـع مجـيء الحـرب العالميـة الثانيـة، وذهابهـا، واسـتقلال لبنان، صـار لسـما صبيـان وثـلاث بنـات، ولجـمال صبيـان وثـلاث بنات، ماتـت منهـن واحـدة.. وبعـد الحـرب، بسـنوات، ومـع بدايـة الخمسـينيات، اسـتقرت أسرة جرجـي وسـما عـلى ثمانيـة، وأسرة جـمال ومحبّـة عـلى سـبعة، بعـد أن فقـدت إحـدى بناتهـا.

كـبرت الأسرتـان، وعملـت السـنوات عملهـا في أجسـاد أفرادهـا.. وتحولـوا في سـنوات صعبـة مـن مسـتهلكين عـلى قلّـة في الانتـاج، إلى منتجـين في أكثريّتهـم، لتخفيـف عـبء الاسـتهلاك عـلى الأبويـن.. أراح ذلـك المعيلَـين الأساسـيَّين، وإن عمـلا عـلى إبقـاء السـلطة الأبويـة فاعلـةً في التعاطـي مـع الأبنـاء، ولكـن في طريقـة متفاوتـة بـين هـذه الأسرة، وتلـك.

كانـت أسرة جرجـي أكـثر حرّيـة في التعاطـي بـين أفرادهـا، لمـا لسـلطة التعليـم، ورمزيّتهـا، الفعـل الأسـاس الـذي خفّـف مـن وطـأة سـلطة الأب. بينـما بقيـت سـلطة جـمال عـلى مزيـد، كلما

تقـدّم أبنـاؤه في العمـر، مـع مـا كانـوا يقدّمونـه مـن معونـة ماديـة، لأبيهـم. كانـت شـخصيّته وقـوّة شـكيمته، وقسـاوته في التعاطـي مـع أبنائـه، مؤثّـرة في هـؤلاء، وجعلتهـم مطيعـين وهادئـين في التعاطـي معـه، ومـع الآخريـن.. عملـوا وجـدّوا وتعبـوا ليريحـوا والدهـم، وليقدّمـوا لـه الدعـم، ليبقـى، كـما تعـوّد أن يكـون.. متحكّـماً في عملـه، ونمـط حياتـه.. لم يغـيّره شيء، وإن كـبرت الأسرة، وزادت المسـؤوليات.. لم يعـنِ المـال لجـمال شـيئاً، إلا بمـا يكفـل اسـتمرار الحيـاة، وممارسـة هواياتـه المفضّلـة.. والشـدّة في تربيـة الأولاد.. وكل مـا عـدا ذلـك، هبـاء.

مـا زال يذكـر الكثـيرون مـن الأهـل، كيفيـة معاملـة جـمال لأولاده.. وأكـثر مـا كان يـسرّ الأخَ الأكـبر سـؤالُ الأخ الأصغـر، أمـين، عـن علاقتـه بأبيـه، عندمـا كان في عمـره، ليعـرف الفـارق في تعامـل الأب نفسـه، مـع ابنـين، بفـارق خمـس عـشرة سـنة.. يـروي الابـن الأكـبر يوسـف حكايتـه مـع أبيـه، بحبـور ظاهـر..

– يقـول، إذا رأيـتُ أحـد الأولاد يدخّـن، سـأقطع أصابعـه. والسـيكارة بـين أصابعـه.. كيـف يمنـع عنّـي مـا يفعلـه هـو؟ ولمـاذا التهديـد؟ لديـه خمسـة أولاد يدخّنـون، وهـو السـادس.. كلّ ولـد يـرى أن أصابـع أخيـه سـليمة، ولم يمسّـها مقـصّ.. فيشـعل سـيكارة.. كان علينـا أن لا نخـرج مـن البيـت إلا بعلمـه وإرادتـه.. الـكلام لـه والسـمع لنـا.. خطابـه ذو جهـة واحـدة.. ولا جـواب أو ردّ.. إلا بهـزّ الـرأس نـزولاً.

أمـا أطـرف مـا كان يحـدّث بـه يوسـف أخـاه الصغـير، ملاحقتـه لـه ببـارودة الصيـد ليقوّصـه، وكأنـه غـزال أو حجـل.. كان ذلـك

بعـد انتهـاء ثـورة 1958.

- أحببـت ابنـة عمـي، وهـي في الحقيقـة، ابنـة عـم أبي.. لم يعجبـه الأمـر، لأنـه عـلى غـير وفـاق مـع عمـه، ولأنهـا ابنـة عمـه اللـزم. لم يقتنـع بـأن تكـون كنّتـه، وهـو عمّهـا؟ لم يهضـم المسـألة.. ولكـن الحـب غـلّاب.

كان أخـوه أمـين يدفعـه إلى حكايـة المطـاردة.. لأنـه مـا زال يذكرهـا، وكان في الثامنـة مـن عمـره. لقـد أبـكاه منظـر أبيـه، وهـو يحمـل البـارودة، جريـاً وراء ابنـه ليقوّصـه.. منظـر، لا يمكـن أن يغيـب عـن ذاكرتـه، الأخ يركـض بـين الصخـور في القلـع، والأب عـلى مسـافة بعيـدة منـه، يلاحقـه ويقـوّص. لم يخطـر في بالـه، إلا أن أبـاه سـيقتل أخـاه.. فقـط، لأنـه يريـد أن يتـزوّج بابنـة عمـه، والأب لـن يقبـل.. والعنـاد طريـق القتـل.

كان الأخ الصغـير يرقـب المشـهد، مـع جمـع غفـير عـلى البيـادر، والأب خلـف الابـن مـع إطـلاق نـار.. بـكى كثـيراً. وظـن فعـلاً أن أخـاه سـيموت.. ولا مـن مهـدّئ لبكائـه، وخوفـه.. عـمّ أبيـه، يعقـوب، يـصرخ منادياً يوسـف، أخـاه البكـر، وفي يـده قضيـب مـن الرمـان يلـوّح بـه، بـأن اذهَـبْ نـزولاً، وهـو لا يلتفـت، ولا يسـمع.. ومـا هـدّأ بالـه، أنّـه رأى ثلاثـة، لم يتبـيّن ملامحهـم، يركضـون خلـف والـده، ليثنـوه عـن عزمـه.. وبقـي الأمـر عـلى ركـض، وإطـلاق نـار، إلى أن وصـل الراكضـون إلى الأب، وأوقفوه.. حينئـذ هـدأ بـال الأخ الصغـير، وارتـاح.

هـذا مـا لحظـه الأخ الصغـير، أمـين، ولكنـه لم يـدرِ كيـف دارت

الأمـور، بعـد ذلـك.. حضـوره هنـا، لم يكتمـل كـما في حضـوره هنــاك، لأنــه صغــير، والصغــار لا يحــضرون محافــل الكبــار.. مـا عرفـه بعـد ذلـك، أن الأب رضـخ للواقـع، بتوسّـط الأعـمام، وأختـه سـما التـي لا يخـرق لهـا كلمـة.. ومـا جـرى، بعـد ذلـك، أنّ أبــاه كان يرســله، لمنــاداة أخيــه يوســف، عنــد كل طــارئ. فيذهــب ركضــاً، لــيراه مــن الشــبّاك، ممــدّداً بجانــب محبوبتــه، الجالسـة عـلى البسـاط، يتناغشـان. فيقـوم متثاقـلاً، مـع سُـباب ابنـة العـم الـذي لـن يُسـمع.

مـا زال الابـن الصغـير أمـين، يذكـر كيـف حطّـم أبـوه بـارودةَ صيـدِ العصافـير، عـلى ظهـر أخيـه نسـيم، الأكـبر منـه، أمـام جمـع مـن النـاس، فقـط، لأن أحدهـم اشـتكى منـه، لأنـه خلـعَ السـياج مـع رفيقـه كـرم، ليصيـد في بسـتانه.. ويذكـر كيـف صمتـت شـقيقتاه، عندمـا بحـث معهما مسـألة الـزواج.. الأولى.. كـما تريـد يـا أبي.. الشَّـور شـورك.. والثانيـة، صمتُهـا كان دليـلَ موافقتهـا.. والصمـت أتبعـه الأب بمحـاضرة للأخـت في الأخـلاق، وفي كيفيــة التعامــل مــع الــزوج، وبيــت العــم الغريــب، بمــا يـرضي الجميـع، إلا مـا يمكـن أن يتعلّـق بهـا.

– عليـك أن تـرضي الـكل، وأن تطيعـي الـكل.. ولا هَـمّ غـير ذلـك.. وإذا وصَلنـي أي شيء معيـب، سـأذبحك مـن الوريـد إلى الوريـد..

الابـن الصغـير يسـمع.. وهـو يُظهـر النـوم.. ويرتجـف، ولم يصل، بعـد، في عمـره، إلى التاسـعة.

مـضى زواج ابنتـه الكـبرى، عـلى خـير.. عـرس كبـير لابـن أخ المختـار، ومسـتقبل عيـش بسـيط يقـوم عـلى الزراعـة، والاكتفـاء بالـضروري مـن العيـش. أمـا الابنـة الأصغـر، فقـد طـرأ مـا يمكن أن يهـدّد اسـتقرار أسرة جـمال، وهناءتـه في نمـط الحيـاة الـذي اختـاره وخلـص لـه.. ابنـة جميلـة، دارَ حولهـا كثـيرون.. عرفـت أنهـا جميلـة وغَنَجـت، برمَـت وجههـا عـن الـكل، ولم يعجبهـا عجـب.. توسّـط الكثـيرون، ولا فائـدة. هـي لا تـزال في السـابعة عـشرة.. وبكـيّر عـلى الـزواج.. شـو صايـر..؟

وصـل الأمـر إلى أن طلبهـا عـمّ أبيهـا لابنـه.. وهـو أول طلـب علنـي تتبلّغـه.. مـن كثيريـن.. أفـاق جـمال عـلى كابـوس قديـم، مـا عـرف كيـف تخلّـص منـه.. البنـت لا تعـرف إلا أنـه قريبهـا، لا كلمـة معـه، ولا نظـرة.. كيـف سـتقبل..؟ والأب عـاش تجربـة مُـرّة، بعـد رفـض زواج أختـه مـن ابـن عمـه، في زمـن سـبق. والآن الابنـة مـن ابـن عـم أصغـر..؟ تـرك الأمـر لمريـم، ابنتـه.. هـي التـي عليهـا أن تقـرّر، ويخـرج هـو مـن المواجهـة.. وكان أن قـرّرت مريـم الرفـض.. كـما سـما في مـا مـضى.. كيـف لي أن آخـذ ابـن عمـي وهـو بمثابـة أخـي؟؟ جـواب أراح جـمال.. وأتعـب عائلتـه، وأعـادت العلاقـة، بينـه وبـين أعمامـه، إلى المربّـع الأول.

بقـي الأمـر عـلى توتّـره، مـع اسـتمرار الوسـاطات، إلى أن جـاء مـن طلـب يـد مريـم، مـن خـارج الضيعـة، وهـو عـلى سـعة عيـش، ورفعـة مقـام.. فقبلـت، وقبـل جـمال.. وانفجـرت العلاقـة مـع العائلـة.

تجـاوز التوتّـرُ مـا حصـل سـابقاً مـع سـما.. ووصـل إلى التهديـد

والوعيـد.. ولم يخـلُ الـكلام مـن احتـمال رؤيـة الـدم، إذا حصـل مـا يخطّـط لـه جـمال.. باعتبـاره المسـؤول، عـما حصـل وسـيحصل. أحبطـت العائلـة كل الوسـاطات للتوافـق.. لا توافـق إلا بعـودة البنـت إلى أحضـان أهلهـا. وحجّـة الرفـض واهيـة، لأن كلمـة الأب هـي الـكل بالـكل. يـرضى الأب.. تـرضى البنـت. رأي العائلـة لـن يراجَـع.. والأب لـن يتراجـع، لأنـه أعطـى كلمتـه.. والرجـال يرتبطـون بكلامهـم، لا بـشيء آخـر.

وصـل الأمـر، إلى آخـره، مـن التـأزّم والتوتّـر.. وأهـل العريـس يعملـون عـلى إتمـام، مـا وصلـوا إليـه.. والاكليـل في الضيعـة، والمواجهـة قائمـة، لا محالـة.. وجـمال يـروح ويجـيء، يفكّـر في كيفيّـة تخطّـي الأمـر، دون إفشـال العـرس، أو عـلى الأقـل، دون إراقـة الدمـاء.. والاكليـل لا بـدّ قائـم.. جـمال لا يخلـف بوعـده.

رأى جـمال، أن أهـوَن الأمـور، نقـل حفـل الاكليـل، إلى خـارج الضيعـة.. المـكان متوفّـر، ومـا عليـه إلا الطلـب.. لم يخـبر أحـداً بقـراره. قصـد أخـاه أحمـد، وربّ أخ لم تلـده الأمّ، في المنيـة، البلـدة المجـاورة، وأسرّ إليـه بالفكـرة.. رحّـب العـمّ أحمـد، وقـام بـكل مـا يلـزم، لانجـاح الحفـل، وإتمـام تقاليـد العـرس، ومراسـمه.

لم يعـرف أحـد مـن عائلـة جـمال، مـا قـرّ عليـه رأيـه، إلا عمّـه وهيـب.. مـع الرجـاء، بعـدم نـشر الخـبر.. وعـدَه بذلـك، وقـدّم لـه اعتـذاره، لعـدم الحضـور، تجنّبـاً لغضـب العائلـة. كان عرسـاً مجلجـلاً، في بيـت العـم أحمـد، انتـشرت أخبـاره في كل أرجـاء المنيـة.. صـلاة الاكليـل لمسـيحيين، في بيـت مسـلم. وظـل هـذا

الخبر متداولاً لفترة طويلة.. وقد تمّ في تاريخ لن ينساه أمين، مهما تقادم الزمن.. 17 تشرين الأول / أكتوبر 1959.

تمّ الأمر على خير. وعاد أهل العروس إلى الضيعة.. واستكمل أهل العريس عرسهم.. ولكن بقية الأمور لم تهدأ. وصل أخبار التهديد والوعيد، إلى جمال وأسرته.. ممنوع خروج أحد من المنزل، وإلا لن يعود.. جمال لا يطيق التحدّي، ولا يستقرّ باله على تهديد.. بقي أياماً، لا يعرف ما عليه فعله، وهو في أرق دائم، ولم يعرف النوم إليه سبيلاً. أوصل خبراً إلى عمّه وهيب، بضرورة لقائه. كان جمال حكيماً في لقاء عمّه. وقد اتفقا، أن يطلب وهيب من أشقائه، وأبنائهم، أن يجتمعوا ليقرّروا ما عليهم فعله، بجمال وأسرته.. تحدّد الموعد. وفي بدايته، وبعد حضور الجميع، بمراقبة من وهيب، دخل جمال، ووراءه وهيب، بعد أن دفع الباب بقوة. وأمام دهشة جميع الحاضرين، قال بصوت عال..

– هذا أنا بينكم.. إفعلوا بي ما تشاؤون.. أريحوني وارتاحوا.. لا أريد أن أعيش الماضي، من جديد. هيا اقتلوني، أو دعوني أعِش مرتاحاً.. لا أستطيع أن أتحمّل أكثر من ذلك.. أعصابي تلفت، وأولادي خائفون. ماذا علي أن أفعل لتهنأوا..؟ أرحل من الضيعة؟ هل تريدون أن أرحل..؟ كيف يهون عليكم أن تزوّجوا بنتاً غصباً عنها..؟ ألم تتعلّموا من حكاية سما، لتعيدوا حكاية مريم..؟ تغيّرت الأيام، لمَ لا تستفيقون.. أنت يا عمّي مخاييل، أين كلمتك التي قلتها من زمان..؟

تكلّم جمال بما لم يقله من قبل، لغيابه في البرازيل. وهيب من ورائه يربّت على ظهره، بما لا يراه الحاضرون. كلّهم يحملقون بوجه جمال، بأفواهٍ فاغرة، وحيرةٍ في التصرف.. إلا مخاييل..

- ما بالكم كالأموات.. تكلّموا.. قولوا ما تريدون قوله.. قوموا نفّذوا تهديداتكم.. إذبحوه.. قوموا.. ماذا تنتظرون..؟ والله، من ينظر إليه بعين الغدر، أقلعُها له.. تعال يا ابن أخي، تعال.. تقدّم جمال نحو عمه مخاييل، تناول يده.. قبّلها، ورفعها إلى جبينه، شاكراً.. ووهيب من ورائه.. دار على الجميع مقبّلاً أيدي أعمامه، وهم صامتون.. إلا عمّه خليل.. سحب يده، عندما همّ جمال بتقبيلها.. قائلاً، بعتاب ظاهر..

- يعني إنت بتاخد بنتنا، بس ما بتعطينا بنتك..

- رجعنا..؟ نهر مخاييل أخاه خليل، بغضب..

ضحك خليل، ومدّ يده إلى جمال ليقبّلها، ثم نهض واقفاً وغمره..

عادت الأمور إلى طبيعتها، بحكمة وهيب وجمال.

ما فعله جمال، تجاوز أي فعل يمكن أن يقوم به رجل من الضيعة، تجاه أهله، أو أقاربه.. والزعل والخصومة، نمط أساسي في حياة الريف، إما على جريان ماء، أو خلاف على حدود أرض، أو تلف في المزروعات، أو ضرر من دجاجات

الجـيران.. وكان مــن النــادر، أن تقــصُر مــدة الزعــل، إلا في المناسـبات قليلـة الحـدوث.. مأتـم.. عيـد.. زواج.. إلا مـا يقـوم بـه جـمال.. فهـو يصنـع القـرار بيـده، والمبـادرة كانـت مـن طباعـه. وجرأتـه ورباطـة جأشـه، وطريقـة تعاملـه مـع أبنائـه، كانـت مـن العلامـات المميّـزة لشـخصيته..

لم تكـن طريقـة تعامـل جـمال مـع أبنائـه، مُبعـدة لهـؤلاء عـن أبيهـم.. كانـوا يحترمونـه ويحبّونـه، وإن عـلى خـوف.. وكانـت المـرّات القليلـة التـي يُظهـر فيهـا محبتـه عـلى أبنائـه، والصغـار منهـم عـلى الخصـوص، كافيـة ليكونـوا كـما أرادهـم، وليكـون الأب ذا مهابـة، واحـترام، ومحبّـة، معـاً.

مـن أكـثر مـا علـق في ذاكـرة الابـن الصغـير أمـين، تلـك الحادثـة التـي فعلـت فيـه فعلهـا، حتـى دون أن يفاتـح أبـاه فيهـا..

يحلـو لأمـين أن يـروي حكايتـه، بعـد أن وصـل إلى أكـثر العمـر. اسـتفاق صباحـاً، يقـول، وأحـس بـأن شـيئاً يغطّـي وجهـه. فتـح عينيـه، وإذا بنتَـفٍ صغـيرة مـن الـورق، تتناثـر مـن وجهـه عـلى الفــراش، لحظــة نهوضــه. حملــق فيهــا، وإذا هــي وريقــات صغـيرة ممزّقـة، نُـثرت عـلى وجهـه وغطّتـه.. عـرف أن أبـاه هـو الفاعـل.. وعـرف سـبب فعلتـه.. مـا سيسـلكه الابـن، مـن مجـرّد إمسـاكه بهـذا الكتـاب، لـن يكـون لمصلحتـه.. هـذا مـا افتكـره الأب. أمـا الابـن، فقـد اعتـبر ذلـك، وهـو لا يـزال دون العشريــن.. ردّة فعــل عــلى مــا حصــل ســابقاً، لابنَــي أختــه. اكتـوى بنـار الحليـب الـذي خلّفـاه، بعـد أن أودِعـا السـجن، لمضمـون الكتـاب نفسـه. فكيـف لا ينفّـخ للـبن ابنـه، قبـل أن

يضيّـع مسـتقبله، ويدخـل السـجن، مـع الداخلـين..؟ تحليـلٌ هـذا شـأنه، لم يدخـل في رأس الابـن الصغـير، إلّا بعـد أن صـار أبـاً، وبعـد أن صـار ابنـه في ذلـك العمـر الـذي يتطلّـب التـأني والتفكّـر، في كيفيـة التعامـل مـع الأبنـاء، وفي المسـافة التـي تفصـل بـين ذهنيـة هـؤلاء، وآبائهـم.

تـزوّج الابـن البكـر يوسـف مـن ابنـة عـم أبيـه بيسـان، بعـد حـب جـارف، وبعـد أن وجـد عمـلاً ثابتـاً.. بسـتانيٌّ في معمل كبير للكهربـاء.. قـرّر السـكن مـع الأهـل، إلى أن يفرجهـا اللـه.. طـال انتظـار الفـرج، ودبّ النقـار بـين الكنّـة والحـماة.. إلى أن انتقـل إلى مسـكن مجـاور. تدبّـر أمـره في بنـاء غرفـة ملاصقـة لبيـت أبيـه مـع ملحقاتهـا، فعـاد إليـه، وهـدأت الأمـور. سـافر الابـن الثـاني، كريـم، إلى الكويـت، للعمـل في مهنـة الحلاقـة. لم يسـتطع الصمـود لأكـثر مـن سـنة، وعـاد ليسـتأنف عملـه في المدينـة، حلاقـاً معتَـبَراً. كان يضـع، في نهايـة كل يـوم عمـل، خمـس لـيرات جانبـاً، مـصروف المحـل، مـن إيجـار ولـوازم العمـل.. وفي نهايـة الشـهر، يرسـم صليبـاً عـلى صفحـة المدخـول، إذا تعـدّى الثـلاث مئـة.. عـاش مرتاحـاً بمدخولـه، تعِبـاً مـن وقوفـه طيلـة النهـار، ليقـصّ شـعر هـذا أو ذاك مـن الزبائـن الذيـن أحبّـوه، لطرافـة حديثـه وروحـه المرحـة، ونكاتـه المضحكـة التـي يرويها، بأسـلوبه الجـذّاب، ليزيـد الضحـكَ ضحـكاً.

أمـا الثالـث، نسـيم، فقـد نـزل إلى المدينـة، ليتدبّـر عمـلاً. نجـح في الدخـول إلى شركـة الكهربـاء عامـلاً، ثـم فنّيـاً لنباهتـه، وسرعة بديهتـه، حتـى صـار مجلّيـاً في عملـه، يُتّـكل عليـه.

مـن حسـن حـظ الأخويـن الأصغريـن، أمـين وخليـل، أن يكـون شـقيقاهما مـن قاطنـي المدينـة. وجـد والدهـما أن بالامـكان إكـمال تعلّمهـما فيهـا، برعايـة الأخويـن، ودون تكلفـة يتكبّدهـا الأب، غـير الموجـودة أصـلاً، لكسـاد عملـه، ولتقلّـب الأيـام.. وانتقـال مسـؤولية الاعالـة، إلى العاملـين مـن الأبنـاء.

وكان أن انتقـل أمـين وخليـل إلى المدينـة، بأقـل المسـتلزمات الممكنـة، وبرعايـة كريـم، أولاً؛ ومـن ثـم نسـيم. وفي المحصّلـة.. خـرج الاثنـان مـن المدينـة، بشـهادات رسـمية، خوّلتهـما العمـل في الوظيفـة العامـة.

كان الحـلّ الوحيـد لجـمال، ليرتـاح مـن ذلّ الطلـب، حتـى ولـو كان مــن الأبنــاء، أن يخصّــص كلٌّ منهــم مــا يحتاجــه لاعالــة محبّـة وولديـه الصغيريـن، إلى أن يلقيـا عملهـما. إلا أن الحـال تغـيّرت، بعـد أن ضاقـت الدنيـا بابنـه الثالـث، نسـيم، بعـد خطوبتـه، ورعايـة أخويـه وحيـداً.. فقـرّر الهجـرة إلى أسـتراليا، وهـو خـالي الوفـاض، إلا مـن محبّـة النـاس، ومـن مـال الناولـون الـذي تكبّـده متعهّـد السـفر، ليسـترجعه بالتقسـيط، وبفائـدة محمولـة. عقـد زواجـه عـلى خطيبتـه، تركهـا وهاجـر.. لحقتـه بعـد سـتة أشـهر.. بنيـا أسرتهـما وتعبـا، عمـلاً وسـهراً، إلى أن صـارت مـن أحـلى النـاس.

12

عـاش جـمال أقـسى أيـام حياتـه، إبّـان الحربـين الأهليتـين اللتـين عصفتـا بلبنـان، وإن بالتفـاوت الملحـوظ. سُـمّيت الأولى بالثـورة، سـنة 1958، والثانيـة، بالحـرب الأهليـة التـي امتـدت مـن 1975 إلى 1990، وبقيـت تداعياتهـا قائمـة، إلى مـا بعـد ذلـك بكثـير.

مـا حـدث في العـام 1958 سـمّوه ثـورة.. هكـذا عرفهـا جـمال، وأهـل الضيعـة. فعـلٌ سـياسي عسـكري ضـد توجّـه شـمعون، رئيـس الجمهوريـة، آنـذاك، المناهـض لعبـد النـاصر، رئيـس مـصر. وهـي حصيلـة الهـوى العـروبي الـذي دغـدغ قلـوب المسـلمين السـنّة، في لبنـان والعـالم العـربي، مقابـل الهـوى الغـربي الـذي أوصـل شـمعون، إلى محاولـة المشـاركة في حلـف بغـداد، في وجـه المـدّ الشـيوعي، والعـروبي، في المنطقـة.

أمـا في ضيعـة جـمال، فقـد ظهـرت الثـورة، عـلى شـكلين مخيفـين.. الطـيران الحـربي بصوتـه المخيـف، وهديـر قذائفـه التـي تـضرب بالقـرب منهـا، والثـوّار الذيـن كانـوا يعبرونهـا، ذهابـاً وإيابـاً، للتصويـب عـلى موقـع الجيـش، في جبـل تربـل، ومـن ثـم العـودة، إمـا سـالمين، أو بعضهـم محمّـلاً عـلى عـوارض خشـبية، مـن تأثـير الألغـام. في هـذه الحـالات، كان عـلى الآمرين منهـم، أن يوقظـوا جـمال، لفعـل أي شيء، يوقـف النزيـف، قبـل الوصـول إلى المستشـفى.

اسـتفاق أمـين في منـزل أهلـه الجديـد، عـلى صـورة لرجـل

عسكري، في إطار مذهب، معلّقة في صدر غرفة الاستقبال، عرف فيما بعد أنها لعبد الناصر، زعيم الثورة العربية. كان جمال يتباهى بها كثيراً، ويؤمن بأنها ستحمي منزله من أي سوء، يمكن أن يتأتّى من الثوار. ومن جملة ما كان يراه، من تأثيرٍ لهذه الصورة، أن الكثيرين من الثوار الذين دخلوا المنزل، كانوا يتوجّهون إليها بالدعاء، ورجاء المساعدة على النصر، وكأن صاحبها واحد من الأولياء. وأكثر ما كان يتباهى به جمال، في علاقته مع الثوار، يتلخّص في أمرين؛ الأول، شفاء الكثيرين على يديه، إن كان في تضميد جراحهم البسيطة، أو في إيقاف نزيف مَن كانت حالته أشد تعقيداً.. وقد توفّي أكثر من ثائر بين يديه. أما الثاني، فهو كسبُ ثقتهم. وقد استدلّ على ذلك، عندما بدأوا يضعون بنادقهم، خارج الغرفة، ويدخلون.. وبقي يذكر بفخر، إلى أن رحل عن هذه الدنيا، أنّه رفض قبول أي بندقية حربية، هديةً له. وقد عُرضت عليه بنادقُ كثيرة.

لم تعرف الضيعة عن الثورة، إلا ما اختصّ بها وحدها.. كان تغلغل الثوار في الوادي المحاذي لها، والمخفي عن أنظار الطيران الحربي في النهار، وتحرّكهم في الليل، صعوداً وهبوطاً إلى جبل تربل، الموقع الرئيسي للجيش، ومنه، الدليل على حدوثها. أما إلزام الأهالي بتقديم قسم من الطعام للثوار، فلم يضايقهم في شيء، لأنهم أدركوا أنّ ما كان يصل إليهم، من قيادة الثورة، لم يكن كافياً، وأنّ عليهم القيام بواجب الضيافة للموجودين، في محيط ضيعتهم، ولو قسراً.

فتّحت حركة الثوار هذه، أعين أهالي الضيعة، على أنّ ثمة ثورة وثوّاراً، وحرباً بين الثوّار والجيش. وقد أحسّوا بوطأتها، عندما تبلّغوا بأن القيادة العسكرية اكتشفت أمر مساعدة الضيعة للثوار، فأرسلت في طلب ممثّلَين عنها، لمقابلة قائد الموقع. قابله وهيب رفول، وإبراهيم الحلبي. أبلغهما بوجوب إخلاء الضيعة من الثوار، خلال أربع وعشرين ساعة، وإلا سيعتبرها معادية، ويقصفها، حتى تتسوّى بيوتها بالأرض.. عاد الرسولان مرعوبَين، وأبلغا أهالي القرية بقرار القائد. فدبّ الرعب فيهم.. وهم يتساءلون، ماذا عليهم أن يفعلوا، وهم بين مطرقة الثوار، وسندان الجيش.. والضيعة مسيحية في محيط إسلامي، لا حول لهم ولا إرادة، في فعل أيّ شيء يمنع عنهم الأذيّة.

هذا ما عرفه أمين مؤخّراً. ولكن ما حصل وقتها، أن جُمع الأطفال والنساء في الكنيسة، البناء الأثري ذي العقود الضخمة المنيعة، بين بيوت القرية الترابية، في أكثريتها الساحقة. منظر مخيف، يزيد رعباً على رعب؛ صراخ الصغار ممزوج بدعاء النسوة، بشفاعة مار مخاييل للتخلّص من هذه المحنة.. بقي الأمر على حاله، إلى ما بعد انتهاء مدة الإنذار. ولم يحصل ما كان يخيف. وعلم الجميع، فيما بعد، أنّ الثوار انسحبوا من الوادي.. وما كان يهمّ أن يعرف أحدٌ كيف.. أو لماذا..!

أما الأمر الثاني، الأشد أثراً، الذي أظهر وطأة الثورة، فهو قصف الطيران الحربي لموقع بالقرب من الضيعة، جعل

الأهـالي في رعـب شـديد، دام حديثـه أياماً. وقـد عـادت هـذه الذكـرى، إلى ذهــن أمــين، إبــان الحــرب الأهليــة، بعــد ذلــك بعقديـن.. كان أمـين مقتنعـاً بـأن كل شيء يهـون، مـا عـدا قصف الطائـرات. قناعتـه هـذه، سـهّلت عليـه أمـور الحـرب، وسـماع صـوت المدافـع، طالمـا الحمايـة مؤمّنـة، وإن تعـرّض أكـثر مـن مـرة، لمـوت محتّـم.. كان يصـلّي دائمـاً، لتبقـى المعـارك، إذا كان لا بـدّ منهـا، دون قصـف الطائـرات.

كان أمـين في البسـتان، مـع أخيـه نسـيم، الأكـبر منـه، سـمعا صـوت طائـرة حربيـة، عـلى علـوّ منخفـض، مـع أزيزهـا المخيف. فـرح أمـين بمنظـر الطائـرة، وهـي قريبـة منهـما. عـادت أكـثر انخفاضـاً، وأعـلى صوتـاً. برمَـت وارتـدّت صوبهـما، وهـي في انحـدار شـديد. ثـم سـمعا صـوت انفجـار قريـب، ثـم صعـود للطائـرة مـن جديـد، مـع انحـدار آخـر، وانفجـار آخـر، رافقـه صـوت رشّـاش ضخـم.. في هـذه اللحظـة، مـا أحـسّ أمـين، إلا وهـو في قلـب أجمـة كثيفـة مـن العلّيـق، وأخـوه نسـيم فوقـه، لحمايتـه.. رعـبٌ شـديد، لم يسـتطع أمـين الخـروج منـه، لأيـام. واسـتبدل، مـن بعـد، فـرحَ سـماع صـوت الطائـرة الحربيـة، وشـكلها، بكراهيـة شـديدة لم يتخلّـص منهـا، ولـن..

كان أن قصفــت الطائــرة شــاحنة محمّلــة بالخضــار، ظــن قائدهــا أنهــا محمّلــة بالأســلحة، فانقــضّ عليهــا، وعطّلهــا، وأتلـف حمولتهـا، دون أن يصـاب سـائقها بـأذى. وقـد خـرج مـن الشـاحنة، مرعوبـاً معقـود اللسـان. أسـعفه أهـالي الضيعـة، وأوصلـوه إلى أهلـه سـالماً. وجـاء مَـن نقـلَ الشـاحنة لاصلاحهـا.

مـا زال أمـين يذكـر، كيـف كان يتكّـرر اسـم فـؤاد شـهاب، مـن الإذاعـة بصيَـغ مختلفـة: فـؤاد شـهاب، الأمـير فـؤاد شـهاب، اللـواء فـؤاد شـهاب، فـؤاد عبداللـه شـهاب.. فخامـة الرئيـس فـؤاد شـهاب.. لم يعـرف مـا كان يعنيـه ذلـك.. ولكنـه علـم فيـما بعـد، أن مجلـس النـواب انتخـب فـؤاد شـهاب، رئيسـاً للجمهوريـة.. واسـتفاق مـع أهـالي الضيعـة، في اليـوم التـالي، عـلى مئـات المسـلحين، يدخلـون بكامـل أسـلحتهم، وهـم يحـدون ويهزجـون، ويطلقـون النـار في الهـواء.. وقـد أتخمـوا الأولاد، وأمـين منهـم، بالرصاصـات الجديـدة الفارغـة التـي كانـوا يجمعونهـا ويتباهـون بهـا.. والأحـلى، أنّ صـوت الرصـاص صـار مفرحـاً لهـم، بعـد أن كان مرعبـاً.. شـكّل الثـوار سلسـلة طويلـة مـن المشـاة، متوجّهـين، بالابتهـاج والصيـاح، للقـاء ضبـاط وأفـراد الجيـش اللبنـاني، في تربـل، للاحتفـال بإنهـاء حكـم كميـل شـمعون، والترحيـب برئيـس الجمهوريـة الجديـد.. فـؤاد شـهاب. منظـر جميـل لم يتغـيّر فيـه شيء، إلا اسـتبدال رائحـة المـوت، برائحـة الحيـاة والفـرح.

لم يشـعر جـمال بالغربـة، أمـام هـؤلاء، ولا أمـام أصدقائـه الكُـثر، مـن المسـلمين.. وقـد عُرفـت هـذه الثـورة، مـن قبـل الكثيريـن، بأنهـا ثـورة المسـلمين ضـد المسـيحيين. لم يلحـظ جـمال ذلـك.. وكان يعـرف أن ثمـة الكثيريـن فيهـا مـن المسـيحيين.. كـما عـرف أن السياسـة المتحكّمـة في البـلاد، أوجـدت المعترضـين عليهـا، وإن كان للديـن نصيـب في التفرقـة. وكان مـن القلائـل، في الضيعـة المسـيحية، الذيـن أدركـوا هـذه الوجهـة مـن التحليـل؛ ومنهـم إبنـا شـقيقته. كانـا ضـد التيّـار السـائد في المنطقـة،

وحزبهـما عـلى خصومـة مـع عبـد النـاصر، وعـلى قـرب مـن رئيـس البـلاد، المتّهـم في المشـاركة بحلـف بغـداد، ضـد عبـد النـاصر، و.. الشـيوعيين. ولكـن.. والحـق يقـال، لم يقـترب أحـد منهـما، ولا تعـرّض ثائـر لأهلهـما، في حمـى المعركـة التـي دارت بـين السـلطة، والثائريـن عليهـا. كل ذلـك، حصـل أمـام أنظـار جـمال، وصهـره جرجـي. وللمزيـد مـن الحـرص عـلى سـلامة الأخويـن، تـمّ ترحيلهـما مـن الضيعـة، وبمسـاعدة، مـن أحـد رؤوس الثـورة..

أظهـرت تلـك الأيـام، النخـوةَ والشـهامة، في أبهـى معانيهـما.. وسـلُمت الضيعـة، بـكل سـكانها، مـن أي فعـل مـضرّ أنتجتـه الثـورة.. وقـد فتحـت معـبراً ليمـرّ منـه المزارعـون، لتصريـف انتاجهـم في المدينـة.

ورث جـمال مـن الثـورة صداقـات متينـة، بقيـت قائمـة عـلى متانتهـا، إلى أن رحـل عـن هـذه الدنيـا.. وتسـلّمها أبنـاؤه مـن بعـده.. وهـي لا تـزال قائمـة، وإن عـلى خُفـوت، لتَغـيّرِ نمـط الحيـاة، ولصداقـات انبنـت، عـلى غـير مـا كانـت تنبنـي.

لم يكـن لجـمال علاقـة بالحـرب الأهليـة التـي بـدأت، بعـد مجـزرة بوسـطة عـين الرمانـة في 13 نيسـان 1975، وقـد وصـل إلى السـبعين. نـسي كل مـا يربطـه بأبيـه وإخوتـه في البرازيـل.. مـا كان يزعجـه، ويقـضّ مضجعـه، أن شـهد عـلى مـرور شـاب مـن الضيعـة بسـيارته، دون أن يعـرف مـا يمكـن أن يكـون عليـه مصـيره.. مـرّ جـان بجانبـه، وألقـى عليـه التحيـة، ومعـه راكبـون.. لم يعـرف أحـداً منهـم، ولا وجهتهم.. ولم يخطـر في باله،

أنّ مـا رآه، كان عمليـة اختطـاف. علـم بعـد سـاعات، أن جـان وُجـد مقتـولاً، في خـراج الضيعـة، وهـو لم يـزل دون الخامسـة والعشريـن.. كان إحساسـه غريبـاً.. اعتـبر أنـه هـو الأخـير الـذي رآه، مـن الضيعـة.. وكان مـن الممكـن إيقافـه، والسـؤال عـن وجهتـه.. ربمـا خلّصـه مـن المـوت.. كـرّر هـذا الـكلام، مـرات ومـرات.. لم يقتنـع أنّ لا مسـؤولية عليـه، ولا ذنـب.. وبعـد أن بـردت عاطفتـه، اعتـبر أن الأمـر، بالنسـبة إليـه، ليـس أكـثر مـن سـيارة مـارّة..

بعـد هـذه الحادثـة التـي قضّـت مضاجـع أهـل الضيعـة، حصـل مـا حـدث لقريـة مارونيـة مجـاورة، مـن تهجـير، إثـر مقتـل ثلاثـة مـن أبنائهـا، بعـد مقتـل أحـد المقاتلـين الفلسـطينيين الموجوديـن، بكـثرة، في المنطقـة. اعتـبر هـؤلاء ومناصروهـم، أن مقتـل الثلاثـة، جـاء انتقامـاً لمقتـل الفلسـطيني، وهـم شـقيقان، وقريـب لهـما. أحـسّ أهـل الضيعـة أن خطـراً يحيـق بهـم.. منهـم مَـن سـهر، ومنهـم مـن شـدّ الرحـال، ومنهـم مـن بقـي نائمـاً مطمئنّـاً. وحصـل أن قـام أمـين ليـلاً، ليقـضي حاجتـه، والحـمّام في طـرف المنـزل.. سـمع شـخيراً في باحـة الـدار. صـوتٌ غريـب، لا يصـدر إلّا عـن إنسـان.. تجـرّأ وأشـعل النـور.. وإذا بعمّـه أبـو أحمـد، يقفـز واقفـاً، وفي يـده الكلاشـنكوف، مـع صـوت.. مـين هـاد.. أفـاق ابنـه مـع بندقيتـه، والعـم عبـد المجيـد، مـع تلقيـم السـلاح..

- هـذا أنـا يـا عمّـي.. هـذا أنـا.. مـا بكـم، ومـاذا تفعلـون في العتمـة، والدنيـا بـرد.. لمـاذا لم توقظونـا..؟ أجابـه أمـين في

خـوف.. ولهفـة.

استفاق جـمال، عـلى صـوت الضجيـج الـذي حصـل.. واطـمأن لمّـا رأى أصدقـاءه في الـدار.. ولم يسـتغرب..

دخـل الجميـع إلى صالـون المنـزل، وخـرج أمـين ليحـضّر الشـاي للحاضريـن. وعـرف لـدى عودتـه، أن خـبراً تناهـى لأبـو أحمـد، بـأن الضيعـة سـتتعرّض للهجـوم والتهجـير والنهـب.. وهـذا، لـن يحصـل لمنـزل جـمال، عـلى مـا قـال أبـو أحمـد، إلا بعـد المـرور عـلى جثثهـم.. لم يلحـظ أمـين، بعـد ذلـك، إلا دموعـاً قليلـة، تجمعـت في عينَـيّ أبيـه.. أمـا هـو، فلـم يسـتطع إخمادهـا، أو ردّهـا..

لم تهاجَـم الضيعـة ولم تهجَّـر. مـا كان الخـبر إلا ضربـاً مـن التهويـل والتطبيـل، هوايتَـي أصحـاب ألسـنة السـوء، والفتنـة.

عاشـت الضيعـة، عـلى مـا يذكـر أمـين، وهو قـد تجاوز الخامسـة والعشريـن، حالـة ترقّـب وحـذر، طيلـة فـترة الحـرب الأهليـة التـي دامـت خمـس عـشرة سـنة، دون أن يعكّـر صفوهـا شيء.. سـاعدها في ذلـك، وجـود كتيبـة مـن فلسـطينيي لـواء اليرمـوك الـذي انضـم إلى فتـح، عـلى أثـر مـا حصـل في الأردن، في أيلـول/ سـبتمبر 1970.. تمركـز قسـم منهـا عـلى مدخـل الضيعـة، وأقـام حاجـزاً لتفتيـش الداخلـين إليهـا، مـا أثـار غضـب الكثيريـن مـن أهـالي المنيـة، الذيـن تربطهـم علاقـات صداقـة وود، مـع أهـالي الضيعـة.. إلا أنهـم كانـوا يَعـذرون، بعـد معرفـة الغايـة مـن ذلـك.. إذ لا بـدّ مـن الحيطـة.. سـاهم ذلـك، في شـكل واضـح في

استقرار الضيعة، وهدوء بال أهاليها.. وقطع الطريق على الذين عملوا على ابتزاز الميسورين، من الأهالي، أو على طلب بعض البنادق، باعتبار أن الضيعة، على موجة أخرى، من المواجهة العسكرية. إلا أنّ لا شيء من هذا، قد تمّ تحصيله.. وجاء الحاجز، ليقضي على أي محاولةٍ لاستئناف فعلِ ما كان.

أكثر ما تباهى به أمين، الترداد المتواصل، أمام رفاقه وأصدقائه والسائلين، أنّ الضيعة، طيلة خمسة عشر عاماً من الحرب الأهلية، لم تتعرّض إلى أيّ أذى، أو ضغوط، أو مضايقات، إلّا تلك الحادثة التي أودت بحياة جان، الرفيق والصديق، الذي لم يتدخّل في أي شيء، له علاقة بالحرب. كلُّ ما كان، وأودى بحياته، الثأرُ من قِبل أخٍ قُتل أخوه في إحدى معارك طرابلس - زغرتا.. رأى هذا، أنّ حقّ أخيه في بطن جان، فاستردّ حقّه منه.. عن ظلم وجهل واستهتار بحياة الناس. أما ما حصل، بعد ذلك، فكان من عسر حظّ الأهالي، بعد يسر، على أثر قرار السوريين، بإنهاء وجود فتح أبو عمّار في الشمال.. وفي هذا.. كلام آخر.

هدأت الأحوال، واستقرّت الأوضاع، على غير أمان واطمئنان. تضجّر جمال مما حصل ويحصل. ضاق صدره، ورأى أنّ من المهم تغيير الأجواء، وطلبِ الراحة، بعد أن اطمأنّ على مستقبل أبنائه، ومصيرهم، دون الحاجة إليه. استجاب ومحبّة، لدعوة ابنهما نسيم، للهجرة إلى أستراليا.. وكان من حسن الطالع، أن استجابت السلطات الأسترالية على الطلب،

وقـد تجـاوز جـمال الخامسـة والسـبعين، ومحبّـة الخامسـة والسـتين.. مـا يعنـي أن للهجـرة هـذه، مكاسـب الرعايـة، وإن تعهّـد الابـن برعايتهـما.. وكان أن هاجـرا، مـع اقتنـاع أبنائـه، بأنهـما لـن يعـودا..

ولكنهما عادا.. وأكملا حياتهما في الضيعة.

وصـل جـمال ومحبّـة إلى أسـتراليا. غـصّ منـزل نسـيم بالمهنئـين والمرحّبـين. بقـي الأمـر عـلى هـذه الحـال أيامـاً عديـدة، إلى أن هـدأ. نسـيم وسـلام في العمـل.. جـمال ومحبّـة في رعايـة الأحفـاد. فـراغ وضجـر.. جـمال يـدور حـول البيـت ماشـياً، ليعـود.. يطـوّل المسـير، ويحـدّد العلامـات، ليعـود عـلى هديِها.. يـزور أحـد أقاربـه، بسـيارة ابنـه، يعمـل عـلى حفـظ توجهـات الشـوارع، ليعـود زائـراً بعـد أيـام، سـيراً عـلى الأقـدام، عـلى هـدي مـا حفظـه مـن اتجاهـات، ولـو اسـتغرق الأمـر منـه، سـاعات.

خـلال جـولات جـمال في منطقـة سـيدني، بأسـتراليا، شـاهد مـا لم يشـاهده في حياتـه، لا في لبنـان، ولا في البرازيـل.. أدهشـه وأخافـه مسـير السـيارات عـلى اليسـار، وقـد عـبّر عـن خوفـه، مـرّات عديـدة، إلى أن تعـوّد.. طرقـات واسـعة نظيفـة ومخطّطـة، وإشـارات تتبـدل، حسـب كثافـة اتجاهـات السـير، نظافـة وترتيـب، وأرصفـة واسـعة مخصّصـة للمشـاة، دون تعدّيـات عليهـا، مـن السـيارات أو المحـلات.. منـازل منفـردة ضمـن حدائـق خاصـة بهـا، مزروعـة بمختلـف أنـواع الأشـجار والزهـور.. كان جـمال يتسـلّى في تصنيفهـا، حسـب جنسـيّات

أصحابها.. هذا المنزل لعربي، وذاك لأجنبي آخر.. وهذا لابن البلد.. كيف يعرف..؟ ليس من الصعب.. أنواع الأشجار تدلّ على جنسية أصحابها.. الحديقة المزروعة بالليمون والزيتون والتين هي لعربي، لبناني أو سوري، على الخصوص، ويمكن أن يكون تركياً، أو يوغوسلافياً، يضيف إليه نسيم، وهو يضحك.. أكثر ما أعجبه أن توقّف نسيم إلى جانب الطريق، ليكشف دليل العناوين، ليستدل على منزل وليد، لزيارته.. تطلّع أبوه في الدليل، ولم يصدّق.. وفي القليل من السير، تتوقف السيارة أمام بيت من مئات البيوت المتشابهة.. خرج نسيم، ولم يخرج أبوه.. إنزل يا أبي وصلنا.. لم يصدّق.. قرع الباب، وإذا بوليد قبالته.. بقي مشدوهاً، إلى أن سأله وليد عن أحواله، وصحة الأقارب.

عندما وصل جمال إلى وسط المدينة، تغيّرت كل المعالم التي شاهدها سابقاً.. شوارع واسعة وأبنية شاهقة، منها أبنية كثيرة بالغت في ارتفاعها.. فرقٌ كبير بين ضواحي المدينة وقلبها.. وأكثر ما أدهشه، مبنى الأوبرا والجسر الكبير.. والبرج العالي الذي يشرف على المدينة بأسرها، ويعطيها منظراً جميلاً أوجدته مياهُ البحر في تداخلها بين شوارعها.. أما ما رسخ في ذهنه، وأتخمه، فهي تلك الدعوات التي تلقّاها، على الغداء والعشاء، مع محبّة ونسيم، من أكثر أبناء الضيعة.. وقد أكسبه ذلك، المزيد من الوزن، حمله معه إلى لبنان.

بقي جمال على ذلك أسابيع وشهوراً، إلى أن ضاق ذرعاً..

وتمكّن منه الضجر.. وجد نفسه أياماً كثيرة وحيداً، لا أحد قبالته إلا محبّة والأحفاد.. وقد أدرك أن أستراليا بلاد عمل وشقاء، ولا وجود للمتبطّلين، إلا لعلّة أو كسل.. وأكثر ما كان يعيب المرء هناك، أن يُتهم بأنه متبطّل، ويعيش عالة على غيره، وعلى الدولة. ولا يجد الحركة حوله، إلا بعد مغيب الشمس، في أكثر الأيام.. ولا إمكانية للفسحة والخروج، إلا في عطلة نهاية الأسبوع.. ومن أجمل ما رأى نسيم في أبيه، لمعةَ عينيه، عندما اصطحبه في رحلة قريبة، ليتفرّج على حيوانات أستراليا التي تنفرد فيها.. الكنغارو، وغيرها مما لم يتذكّر أسماءها، وخصوصاً،عندما شاهدها تقفز جماعات جماعات. وقد أضاف إلى اللمعة، قولته التي لن ينساها نسيم.. فتّقتَ جروحي، وجلبتَ إلى ذاكرتي، ما يفرحني، ويريحني..

في آخر مرة، أتى نسيم إلى لبنان، ذكّر أمين أخاه، بما قاله أبوه في تلك الرحلة.. تطلّع نسيم مليّاً في عينَي أمين.. أدمعت عيناه، ولم ينطق بكلمة.

فاتح جمال ابنه، بالسفر إلى البرازيل، علّه يلقى أباه على قيد الحياة.. نجح نسيم في إعادة التواصل مع أعمامه في البرازيل.. وكان للمصادفة، الدور الأبرز.

عاد الخوري مطانيوس من البرازيل، مع رسالة من رودريغو شقيق جمال، من أبيه، وفيها سؤال عن الأقرباء وأحوالهم.. والمطالبة بعنوان نسيم في أستراليا، لأمر ضروري.. أجاب يوسف، بكر جمال، على الرسالة مع العنوان.. وكان أبوه لا

يـزال في عهـدة نسـيم، في أسـتراليا..

وصلــت الرســالة مــن البرازيــل إلى أســتراليا، وفيهــا الســلام.. والـكلام عـلى إمكانيـة إيجـاد وظيفـة، في أسـتراليا للمتخصـص في الجيولوجيـا روميـو، ابـن شـقيق جـمال.

تلقّـف جـمال الرسـالة، وأجـاب رودريغـو، وعرّفـه عـن نفسـه بأنـه أخـوه.. وسـأله عـن أخبـار والـده وأحوالـه.. هنـا، عـرف جـمال أن والـده تـوفّي مـن خمـس سـنوات، وعمّـه مـن ثـلاث.. العـمّ الـذي هاجـر وتـوفّي في البرازيـل، بعـد خمسـين سـنة، مـن وصولـه، دون أن يرسـل كلمـة واحـدة، إلى أهلـه في لبنـان.. لقـد وصـل القهـر إلى هـذا الحـد، ولم يجـد مـن يسـأل أو يحتـجّ.

بـكى جـمال، وأطـال.. محبّـة تواسـيه، وأحفـاده يـدورون حولـه، ومـا كانـوا يعرفـون أن جدّهـم يمكـن أن يبـكي، بدمـوع تشـبه دموعهــم. ومحبّــة تبــكي لبكائــه، دون أن يعرفــا مــن أيــن جـاءت هـذه الدمـوع، وهـما يعرفـان أن النسـيان ألقـى بظلالـه الكثيفـة عـلى علاقـة، لم تسـتمرّ أكـثر مـن ثلاثـة أشـهر، ليعـود الجفـاء والنسـيان.. حاولـت أن تقـول شـيئاً، لا هـي اسـتطاعت إيصــال مــا عملــت عــلى قولــه، ولا هــو اجتهــد، لســماع شيء مـما قالتـه.. تقطّـع البـكاء، ثـم هـدأت نفسـاهما. لم تفهـم مـن همهمتـه شـيئاً، إلا عندمـا توقّـف فجـأة ليقـول، بصـوت واضـح ومفهـوم..

– علينـا أن نعـود إلى لبنـان.. لـن أبقـى يومـاً واحـداً عـلى هـذه الأرض..

قـال هـذا الـكلام، وانتصـب واقفـاً، وكأنـه ابـن العشريـن.. والطائـرة منتظـرة أمـام البـاب..

- مـا بالـك يـا رجـل؟ اللـه يرحمـه.. وصـل عمـره إلى المئـة، عشـتَ وتربّيـت بدونـه، وتعـوّدت عـلى أن تكـون بـلا أب.. مـاذا جـرى لـك.. إهـدأ.. وتـروَّ. اللـه يرحمـه.

- ولكنـه أبي، يـا محبّـة.. أبي.. مـات في الغربـة، ولم يـدرِ أحـد مـن أهلـه أنـه مـات.. وُلـد في أرض، ومـات في أرض.. وكأنـه مقطـوع مـن شـجرة.. هـل تريديـن أن أمـوت في الغربـة، مثلـه.. مقطوعـاً مـن شـجرة؟ أنـتِ وابنـي هنـا.. والباقـون..؟ والأهـل والأصحـاب والضيعـة؟ مـا حيـاتي، ومـا معناهـا، مهـما طالـت سـنواتها، إذا لم يضمّهـا تـراب الأرض التـي تربيـت، ونشـأت فيهـا..؟ لا تسـتكمل حيـاتي دورتهـا، إلا عندمـا يحضننـي تـراب بلـدي، وأرض أهـلي وأجـدادي.. يـا محبّـة..

- أبـوك دُفـن في أرض بعيـدة يـا جـمال.. تـرك أهلـه وابتعـد.. ومـات في الأرض التـي أنقذتـه، وأعطتـه..

- الفقـر والظلـم دفعـاه.. تركنـا وراح.. وبنـى أسرة جديـدة، صـارت وطنـه، وملجـأ شـيخوخته ومنتهـاه.. أمـا نحـن، فأهلنـا هنـاك، وأولادنـا هنـاك، إلا نسـيم.. مـسرح حيـاتي كلهـا هنـاك، تعبـي وشـقائي.. فرحـي وتعاسـتي، حبّنـا يـا محبّـة، تعمـير حياتنـا، مدمـاكاً إثـر مدمـاك.. علينـا أن نعـود، ولتذهـب إجـازة هجرتنـا إلى الجحيـم.. لـن نبقـى هنـا.. إبقـي إذا أردت.. أمـا أنـا، فسـأعود، ولـو قدّمـوا لي، هنـا، مقعـداً في الفـردوس.

عـودة نسـيم وسـلام إلى البيـت لم تكـن كسـابقاتها. تجهّـمٌ، وآثار دمـوع في العيـون، وقلـق في البـال.. والسـؤال.. بعـد أن تناهـى إلى سـمعه مـن عـلي، ابنـه، أن جـده كان عـلى بـكاء متواصـل..

- ما بكما، خير..؟

- خـبر مـن البرازيـل، يحمـل وفـاة جـدّك، وعـمّ أبيـك، منـذ سـنوات.. لم يتحمّـل أبـوك وقـع الخـبر.. وانهـار.. يريـد العـودة إلى لبنـان، ولـن يبقـى هنـا.. ضيعـان العـذاب، وإجـازة الهجـرة.. ومنافعهـا.

هذا ما قالته محبّة إلى ابنها نسيم.

لم تنفـع توسّـلات نسـيم وسـلام في ثنيـه عـن قـراره.. دفعتهـما إلى الإصرار، رغبـةُ محبّـة في البقـاء، ولـو عاشـت طيلـة مـا تبقـى لهـا مـن السـنين، في غرفـة مغلقـة..

لم تعـرف محبّـة تفسـيراً لموقفهـا هـذا، ولا اسـتطاعت تقديـم أيّ تفسـير لمـن سـألها.. فقـط، لا تحـبّ السـفر، ولا المسـافرين.. ذاقـت اللوعـة مرتـين، بمـوت أخويهـا.. وسـفرتها مـع جـمال وطولهـا، كانـت اللوعـة الثالثـة.

رأى نسـيم أن قـرار أبيـه، لا يمكـن أن يُـردّ. والعـودة واقعـة.. لا مفـرّ. اسـتمهل أبـاه، لاعـداد مسـتلزمات السـفر، وتعيـين موعـد العـودة.. وقـرّ الـرأي أن تقطـع سـلام عملهـا، لترافـق والديـه، مـع أبنائهـما الثلاثـة.. أتـت الفرصـة ليتعرّفـوا عـلى بلدهـم، وأهلهـم، بعـد سـنواتٍ عـشر مـن الغيبـة.

كان الملفت في الأمر الذي لم تستطع محبّة فهمه وتفسيره، انزواء جمال في غرفته دون حراك، إلّا لتناول الطعام، أو قضاء الحاجة في الحمّام، مع بكاء متواصل، خافِتٍ حيناً، ومسموع أحياناً، طيلة فترة الاعداد للعودة.. لا جواب عن أي سؤال، ولا أي محاولة للكلام، إلا في الجواب المقتضب.. أن لا شي، فقط مخنوق.. لم يقبل الخروج.. حتى من غرفته، رغم كل المحاولات..

ضاق ذرع نسيم من هذا المسلك، وكأنه موجّه ضدّه، وضدّ أهل بيته.. وأظهر، أكثر من مرّة، غضبه من هذا التصرّف، دون أن يلقى أي جواب لتساؤلاته.. وأحسّ بعذاب داخلي، وتأنيب ضمير، عندما شعر في مرّات قليلة، بتسريع التخلص من والده، وتقريب ما أمكن موعد سفره، ولم تكن أمّه، في حسبان ما كان يجول في خاطره.. فقط، كان يريد أن يخلّص والده من عذابه، وأن يريح نفسه مما هو فيه. وقد اختصر كل ما كان يجول في خاطره، في قوله لأبيه، وفي غضب ظاهر..

– لحظة وصولك إلى المطار، وخروجك منه، تعطي جوازَي السفر إلى سلام، وأنا أفهمتها ما عليها فعله.. أنت يا أبي تريد أن ترتاح.. ونحن علينا أيضاً.. أن نرتاح.

كان على سلام أن تمزّق جوازَي سفر والدَي نسيم لحظة وصولهم إلى مطار بيروت، وتخليص اجراءات العودة.. كان عليه أن يكفل عدم تفكيرهما بالرجعة إلى أستراليا، بما أنهما مهاجران.. والتخلّص من الجوازين، وسيلةُ الأمان.

كان فـرح العـودة شـاملاً كلّ أفـراد الأسرة.. فـزاد فـرح جـمال بذلـك.. وأجمـل مـا رآه أبنـاؤه، واسـتدرّ دموعَهـم، ركـوع جـمال عـلى عتبـة الباحـة، وتقبيـل أرضيّتهـا، قبـل أن يسـلّم عـلى أحـد مـن أفـراد أسرتـه.. عودتـه كانـت حلـماً، وقـد تحقّـق.. أمـا محبّـة، فجاهـرت بقولهـا أن عـادت غصبـاً.. لا تريـد أن تتخـلى عنـه في آخـر العمـر.

لم يعـرف أمـين، مـن أيـن جاءتـه كل تلـك الدمـوع.. لأول مـرة، يـرى أبـاه يبـكي بهـذه الغـزارة، وهـو يغمـر أبنـاءه واحـداً تلـو الآخـر، إلى أن وصـل إليـه.. انحنـى ليقبّـل يـده، سـحبها بسرعـة، ورفـع ذقـن ابنـه، إلى أن صـار الوجهـان متقابلـين.. نظـر أمـين في عينَـي أبيـه عـلى اشـتياق، لا عـلى تجـرّؤ.. لمـح فيهـما تلـك اللمعـة التـي لم يلحظهـا، قبـلُ.. غمـره أبـوه، وشـدّ.. لم يحـسّ أمـين، إلا وكأن الدنيـا تكـوّرت بـين يديـه.. لأول مـرة، يحـسّ بهـذا الطعـم.. عـلى امتـداد سـنوات العمـر، كان يقبّـل يـد أبيـه ويتلقّـى تلـك القبلـة عـلى الخـدّ.. في الأعيـاد، أو عنـد المجـيء بعـد غيبـة، حتـى في لحظـة الـوداع، في هجرتـه إلى أسـتراليا. اللقـاء الـذي انحفـر في ذاكـرة أمـين، مـع رفـض تقبيـل اليـد، كانا أهـم مـا لحظـه مـن التغـيّرات التـي أصابـت أبـاه بعـد عودتـه مـن أسـتراليا.. أمـا محبّـة، أمّـه، فـكان صـوت بكائهـا يسـبقها، وهـي تتنقّـل مـن ابـن، إلى ابـن وحفيـد، ودموعهـا تكـرج عـلى الخدّيـن، وعـلى الوجـوه التـي تتلقّفهـا بالحـبّ والشـوق، والقُبـل التـي يختلـط فيهـا شـهيق وزفـير، تتلقّـى مـن تتابعهـما، رائحـة الأحبـاب.

كان مـن أجمـل لحظـات اللقـاء، التعـرّف عـلى أبنـاء نسـيم.. صبيّـان وبنـت كالأقـمار.. هكـذا، فتيانـاً وصلـوا.. لا يعرفـون أحـداً، ولا أحـد يعرفهـم، إلا بمـا توفّـر مـن الصـور. وهـذه، لا تـروي عطشـاً، ولا تعـوّض شـقاء البُعد، ولقـاء الأقـارب والمحبّين.. كان المنظـر، وكأنـه تقريـبٌ سريـع للمسـافات، واختصـارٌ لشـوقٍ وحـبّ، عليهـما أن ينبتـا في لحظـة، وسـط دهشـة الصغـار، ونظراتهـم المسـتغربة، والزائغـة، مـن حـرارة لقـاءٍ لا يعرفـون كيـف وُلـدت، ولا كيـف اسـتعَرَت.. فقـط غمـرات، وقبـلات في طلقـات سريعـة، مـن العـمّ وابـن العـمّ، والخـال وابـن الخـال، والخـالات والعـمّات، ومَـن حـضر مـن المرحّبـين، مـع ضيـق ذرعٍ منهـم، ومحاولـة مـن الأم عـلى تهدئتهـم، بعـد أن لحظـت بـدء ظهـور الدمـوع في عينَـي الطفلـة الصغـيرة التـي لم تفقـه شـيئاً، مـما يـدور حولهـا، مـن فـرح وحبـور، وصراخ الترحيـب.

قبـل أن تصافـح سـلام سـلفها الأصغـر مـن زوجهـا، أمـين، مـدّت يدهـا بطـردٍ صغـير، وهـي تقـول بضحكـة، تمـلأ فمهـا..

– وصيّة أخيك أن أسلّمك هذه.. قبل ان أسلّم عليك..

أخذهـا وغمرهـا وغالـب دموعـه.. لم ينجـح.. وقـد سـبقته، في سـكب دموعهـا..

كانـت سـاعة جميلـة أدخلهـا إلى معصمـه، بفـرح.. وسـمعها تقـول..

– هديّـة نجاحـك.. نحـن كلّنـا شـاركنا في جلبهـا.. هديّـة وتـذكار.. حافِـظ عليهـا..

كانـت أجمـل هديـة، تلقّاهـا أمـين.. حافـظ عليهـا واحتضنهـا.. ولا تـزال.. ومنـذ أربعـين سـنة، الهديـة الأغـلى، عـلى قلبـه.

لم يعـرف أهـل نسـيم فرحـاً، كـما عرفـوه في أولاده. هكـذا.. وفي لحظـات صـار لديهـم ثلاثـة مـن أجمـل الأطفـال، أكبرهـم في العـاشرة وصغراهـم في الثالثـة.. حـذَر وترقّـب.. ثـم ألفـة وتقـرّب.. فـرح وحركـة.. أنسـتهم حذرهـم وأخمـدت شـعورهم بالغربـة، وأدخلتهـم في جـو مـن التفاعـل، مـع أنـاس عرفـوا أنهـم أهلهـم، وذوو قرابـة مـع أنـاس جُـدد، هـم ناسـهم.. كانـوا يعرفـون أسـماء، ولكـن عـلى جهـل، بالوجـوه والأجسـام. وأكـثر مـا تلمـع عيونهـم، عندمـا تُعلِمُهـم أمهـم أن هـذا عمكـم، أمـين، فيتطلّعـوا، وتلمـع عيونهـم ويضحكـون، وإن كانـت عينـا سـما الصغـيرة، أقـل لمعانـاً.. كانـت بالـكاد تتعـرّف، مـن خـلال الأسـماء.. وأكـثر مـا كان يخيفهـا، هـذا الجمـع الـذي لم تعهـده مـن قبـل، بكلامـه المخلـوط، بالـصراخ والغمـر والتقبيـل.

لم يمـضِ شـهر عـلى ذلـك، إلا وصـار أولاد نسـيم مـن أهـل البيـت، وفي صـدر الـدار.. في الحركـة والـرواح والمجـيء، ونسـج الصداقـات مـع مجايليهـم.. وأجمـل مـا فعلـوه، ومـا زالـوا يتذكّرونـه بالحنـين والفـرح، ركـوب الحـمار والتجـول في أنحـاء الضيعـة، وكأنهـم يعتلـون أعـلى مقعـد في دولاب مدينـة الألعـاب الكبـيرة في سـيدني، وقـد شـاركتهم سـما في تجوالهـم، عـلى أن تعتليـه مـع أحـد أخويهـا، والثـاني مـع المرافقـين، إلى أن يتعبـوا، فيرتاحـوا.

مـن المفارقـات التـي لم تعِرهـا سـلام الاهتـمام الـلازم، تعمّـق

الأولاد في علاقاتهـم الجديـدة، والأجـواء التـي لم يعرفوهـا مـن قبـل.. رأت أنهـم يريـدون البقـاء، مـع الجـدّ والجـدّة، ولا يريـدون العـودة إلى بـلاد الغربـة.. وقـد انصـبّ جهدهـا عـلى اقناعهـم بالعـودة، لأن البابـا ينتظـر، وتذكـرة العـودة لا تنتظـر.

راحوا، والدموع في أعينهم، وهم يتطلّعون إلى الوراء.

أما سما.. فقد عادت.. تزوّجت، وبقيت.

13

عـاد جـمال ومحبّـة، إلى دورة حياتهـما الطبيعيـة، والرتيبـة، في بيتهـما الـذي يضـمّ الابـن الأصغـر، خليـل مـع أسرتـه.. أحـسّ بـأن الأمـور تغـيّرت.. الهجـرة، ومـوت الوالـد في المهجـر، وتصميمـه عـلى العـودة، رغـم كل المغريـات، حرَفَـت توجّهاتـه التـي حكمـت حياتـه. وضعتـه في مقلـب آخـر مـن مـسرى حياتـه.. أسرة تحوّلـت إلى أسر، وكان أن بقيـت في منزلـه، أسرة ابنـه الصغـير.. راحـت أيـام الصيـد، وإن بقـي يجـوب النهـر، ليـأتي ببعـض الأسـماك.. ولكـن، عـلى غـير تلـك الأيـام، وتلـك الهمّـة التـي همـدت.. أبقـى عـلى علاقاتـه، وزاد مـن متانتهـا.. أسـلمَ قيـاده لابنـه الصغـير، خليـل، وكنّتـه جميلـة. وتخـلّى عـن تلـك السـلطة التـي أبقتـه، سـنوات طويلـة، ممسـكاً بزمـام الأمـور، إلى أن حـطّ رحالـه ضمـن أسرة، لم يعـد هـو قائدهـا، ولا المقـرّر لأمورهـا.. يتطلّـع إلى مـا يُشـغله، بصمـت تـام، وحيويـة لا تـكلّ. جولاتـه توزّعـت بـين البسـاتين، والأصحـاب، في الضيعـة.. لا يهمّـه كيفيـة الوصـول إلى أصحابـه الأبعديـن.. رجـلاه كانتـا وسـيلة نقلـه.. لا يتعـب مـن المـشي.. ولا يضجـر.. تجـاوز الثمانـين، وهـو عـلى أعـلى همّـة ونشـاط، عـلى الأقـل، في مـا يتعلّـق بالمـشي.. يـزور أصحابـه في البلـدات والقـرى المجاورة، مشـياً. إذا صادفتـه سـيارة، يطلـع، بعـد تمنّـع وجهـد. لا يعـرف أهـل بيتـه، ولا محبّـة، أيـن يـروح ومتـى يجـيء.. تعـوّدوا عـلى التعامـل معـه.. ومـا عليهـم إلا أن يجهّـزوا الطعـام، بانتظـار عودتـه.. عـادة نشـأت معـه، منـذ أيـام الصبـا.. يسـألونه.. لا

يجيـب.. وإذا حشرتـه محبّـة بسـؤال، عـلى انفـراد..

- كل هالعمـر، إسـا مـا عرفتـي عقـلي..؟ يكتفـي بهـذا الجـواب.. وينصرف.

كان الابـن البكـر يوسـف، والابـن الصغـير خليـل، مـن قاطنـي الضيعـة، الثالـث، نسـيم، في أسـتراليا.. الثـاني، كريـم، والرابـع، أمـين، في المدينـة.. ظـروف العمـل فرضت هـذا التوزيـع.. واللقاء لم ينقطـع.. محبّـة تقـضي في كنـف ولديهـا في المدينـة، فـترات طويلـة.. والأب لا يطيـق البقـاء فيهـا، إلا لسـاعات معـدودات.. ليعـود بعدهـا، إلى الضيعـة، ولـو سـيراً عـلى الأقـدام.

أحـب الابنـان الصغـيران، تحـوُّل والدهـما إلى الاهتـمام بالسياسـة، بعـد طـول غيـاب، وبعـد أن تأسّـس هـذا الاهتـمام، عـلى مـا عرفـه مـن نشـاط عمّـه، ولطـف اللـه، في الانطـلاق مـن أمـور الممارسـة الدينيـة، المنفتحـة عـلى المنتمـين إلى الديـن الآخـر.. مـا فاجأهـما، أنـه طلـب مـن ابنـه خليـل، أن يرافـق شـباب الضيعـة، للمشـاركة في احتفـال حـزبي مركـزي، وهـو فـوق الثمانـين.. وهـو أيضـاً، الـذي مـزّق الكتـاب إلى نتـف صغـيرة، ونـثره عـلى وجـه أمـين، في عمليـة أقـرب مـا تكـون، مـن الفعـل الارهـابي.. وقـد أرهبـه فعـلاً، ولم يذكّـره بمـا فعـل، أو لمـاذا فعـل، إلا بعـد عشريـن مـن السـنين..

لم يـدع أمـين هـذه المناسـبة، تفلـت منـه.. وصمّـم على السـؤال. وكان في هـذا الوقـت، عـلى رأس أسرة مكتملـة العدد..

- سمعتُ أنّك شاركت في احتفال حزبي، في العاصمة..!

- إيـه واللـه، رحـت.. كان الاحتفـال ضخـماً يرفـع الـرأس، ويكـبّر القلـب.. وقالـوا فيـه كلامـاً جميـلاً، عـن الأوضـاع في البـلاد، وكيفيـة الخـروج مـن مشـكلاته. مـا أعجبنـي، أنهـم كانـوا مـن كل الطوائـف، غنابيـز وعقـالات وطقومـة وسـافرات ومحجّبـات.. شـباب وصبايـا وسـتّات وختياريـة.. مهرجـان ضخـم..

- طـوّل بالـك عـليّ.. عـلى مهلـك.. هـل يعنـي هـذا، أنّك صرت قوميـاً بأسـتراليا، ونحـن لا خـبر لدينـا، ولا معرفة؟؟

قـال أمـين هـذا الـكلام بحبـور، ورأى أن وقـت السـؤال عـن قصـة الكتـاب قـد حانـت..

تطلّـع جـمال في وجـه ابنـه أمـين، بعينـين ثابتتـين، وكأنـه أدرك، مـا يجـول في خاطـره..

- لا.. لا.. يـا ابنـي.. لا يحـقّ لي.. مـع ضحكـة خفيفـة.. ولكنـي تعرّفـت عـلى قوميـين كُـثر في أسـتراليا، كانـوا يجتمعـون في بيـت أخيـك نسـيم.. أوادم.. أحببتهـم، لأحاديثهـم الوطنيـة، ولثقافتهم القوميـة. وحبّبـوني بالحـزب..

- هل تذكر ما فعلته بي، وبالكتاب..؟

هكذا فجأة وبلا مقدمات..

- ضحك جمال، ملء فمه، وكأنه ينتظر السؤال..

- يـا ابنـي.. تلـك الأيـام، غـير هـذه الأيـام.. كنـتَ لا تـزال في

أوّل عمـرك، ومسـتقبلك أمامـك.. كنـت أخـاف عليـك.. ومـن تضييـع مسـتقبلك في توجّهـك إلى التحـزّب.. تتذكّـر أكيـد، مـا فعلـوا بـأولاد عمّتـك. أمـا اليـوم.. فالمسـتقبل صـار مؤمّنـاً، ولا خـوف عليكـم.. ولا عـليّ. لكـم أن تفعلـوا مـا تشـاؤون.. ولكـن.. انتبهـوا لمسـتقبل أولادكـم.

تغـيّرٌ كبـير، فاجـأ أمـين، وأفرحـه.. وابنـه ربيـع لم يتجـاوز السـنوات السـت.. وهـذا مـا زاد مـن الحلحلـة أكـثر، في التعامـل مـع أبيـه..

- لا أعرف.. لي حساب معك، وأريد تصفيته..

- خير..؟ أي حساب..؟

- ثمن الكتاب الذي مزّقته.. لن أسامحك به..

قـال أمـين هـذا الـكلام، مـع ضحكـة واسـعة، ليمـرّر الأمـر، بأقـلّ مـا يمكـن، مـن نتائـج مغبّـة الطلـب.. ولكنـه لم يحصـل، إلّا عـلى هـزّة خفيفـة مـن الـرأس، مـع لمعـة عـين، ومـشروع ابتسـامة.

اسـتأنف جـمال حياتـه العاديّـة في الضيعـة.. أعـمال بيتيّـة تشـغله، أو زيـارات للأقـارب والأصحـاب، وطـلّات على البسـاتين، وجـولات عـلى الأصدقـاء، في المنيـة.. قلّـما كان يصـل إلى المدينـة. وإذا وصـل، سرعـان مـا كان يحـسّ بالضيـق، فيعـود أدراجـه، حتّـى دون أن يفصـح عـن ذلـك.. ومـن المؤكّـد، أنـه لم يبـت فيهـا ليلـة واحـدة، طيلـة العمـر..

حـدث مـرّة، أن عـاد أمـين إلى المنـزل متأخـراً، لعمـل اقتضتـه

وظيفتـه الرسـمية.. فتـح البـاب ليجـد أبـاه في انتظـاره.. سـبقَ سـلامَه، بسـؤال عاتـب..

- ليش لهلّأ..؟ ليش تأخرت..؟

وكان أن أجابـه، بنيّـة المـزاح، مـع صـوت جـادّ.. قبـل أن يسـلّم عليـه..

- تزوجـت، وصـار لي بيـت وأولاد.. حتـى لا تسـألني، ويـن كنـت.. ولويـن رايـح.. وليـش لهـلأ..؟

- انتصـب جـمال واقفـاً وكأنّ ثعبانـاً لدغـه، ومـشى نحـو البـاب، وهـو يقـول بصـوت غاضـب..

- صار للخَرَوات بيوت.. الله أحيانا وفرجانا..

غمـره أمـين ضاحـكاً، ليهـدأ، وليعـرف أنـه قـال مـا قالـه، عـلى سـبيل المـزاح.. فـما قبِـل ذلـك، ولـو كان مزاحـاً.. أكمـل سـيره.. فتـح البـاب، وأغلقـه وراءه، بقـوة.. وراح.

بقيـت تغـيّرات جـمال عـلى السـطح، ولم تنفـذ إلى أعـماق شـخصيته النزقـة التـي لم تعـرف كيفيـة التعامـل مـع المواقـف، إلا بمـا يخـدم توجّههـا، في النظـر إلى أمـوره، وأمـور النـاس.

مـن أعجـب مواقـف جـمال، وأحلاهـا، عـدم توقّفـه عنـد أمـر أزعجـه، أو أثـار حنقـه. يغضـب..؟ نعـم.. ولكـن، سرعـان مـا يعـود إلى طبيعتـه الهادئـة، وإن عـلى توثّـب.. ويـترك الأمـر الـذي أغضبـه، وكأنـه لم يكـن.. بلحظـات، ويسـتأنف مسـيرته.

14

لم تكن عودة جمال ومحبّة من المهجر، راحة لهما، أو ملجأ يسكنان إليه، لِما تبقّى لهما من العمر، في بيت بنياه بعرق الجبين، وشقّ النفس.. وكان أن استقبلتهما محنة جديدة، تفتّقت عن خلاف بين جناحَي المقاومة الفلسطينية، مثلها مثل أجنحة كثيرة، تمخّضت عن الحرب الأهلية، في لبنان..

يتذكّر أمين جيداً، ما حصل في تلك الأيام الصعبة التي مرّت بها الضيعة.. يقول، وقد نقل هذا الكلام، عن أخيه الكبير يوسف..

كان على أحد هذين الجناحين أن يخرج من المنطقة، ليحلّ محلّه الجناح المقابل.. ولأن الكلمة للأقوى، دون اعتبار للحقّ وأهله، رأى أبوه، وهو المعروف بقدرته على بناء العلاقات، أن يجنّب الضيعة مخاطر الخراب، لموقعها الفاصل بين الجانبين.. فعمل على جمع القادة من الطرفين، ليقرروا ما عليهم فعله، لتجنيب الضيعة مغبّة المواجهة.. وهي ملأى بالناس، ولا ذنب لها في ما يحصل.. كان ذلك في العام 1983.

توافق الطرفان على عدم المواجهة، إذا خلت الضيعة من المقاتلين، وانسحبوا منها إلى الفضاء الأوسع.. هكذا اطمأنّ أبوه وأمه، ويوسف وزوجته بيسان.. أما خليل وأسرته، فقد نزحوا ليطمئنّ بالهم.

عرف أهالي الضيعة أن شيئاً يُدبّر. مقاتلون يتوافدون،

وآليـات تتحـرّك، وحشـود مـن الطرفـين. إطـلاق نـار متقطـع، يتخلّلـه هـدوء حـذر، وترقّـب. فهـم الأهـالي أنّ عليهـم النـزوح، لتجنّـب المخاطـر.. وقـد لحظـوا حركـة للمسـلّحين عـلى طـرف الضيعـة الغـربي، مـع التمركـز بالأسـلحة الثقيلـة.. في ظـرف نهـار وليـل نزحـوا، ولم يبـقَ إلّا مَـن لا يعـرف، إلى أيـن يـروح..

لأول مـرة في تاريـخ الضيعـة، ورغـم مـا مـرّت بـه مـن أحـوال وأهــوال الحــرب الأهليــة، تنــزح الأكثريــة الســاحقة مــن أهاليهـا، قـال أمـين، وهـو مطـرق الـرأس، والدمـوع في عينيـه. عـرف الأهـالي مذلّـة النـزوح، والتسـكّع عـلى أبـواب الأقـارب والمعـارف، في القـرى البعيـدة عـن أخطـار المعـارك، وقصـف المدافـع، وضريبـة المـوت المجـاني.. ازدحـم بعـض هـذه القـرى، إلى الدرجـة التـي غلـب النازحـون في وجودهم، وجودَ سـاكنيها.. كان الهَـمّ الوحيـد، الحفـاظ عـلى الحيـاة، بتأمـين الحـدّ الأدنى مـن الأمـان، وكل مـا عـدا ذلـك، يهـون..

كان أمـين بعيـداً عـن جـوّ الضيعـة، وكان قـد أبلغـه يوسـف، بأن لا أمـان فيهـا، عندمـا لجـأ إليهـا، خوفـاً مـن حـرب محتملـة، في المدينـة. وأشـار عليـه أن يفتـش عـن مـكان آخـر، أكـثر أمانـاً، بانتظـار نهايـة الأيـام السـوداء.. أحـسّ أمـين، بعـد ذلـك، أن بقـاءه في الضيعـة، أكـثر خطـورة مـن بقائـه في المدينـة. عـاد إليهـا مشـغول البـال، وهـو لا يعـرف إلى أيـن سـينزح، مـع أسرتـه.

لم يعـرف أمـين بأمـر الهجـوم، إلا بعـد أن طـرق أخـوه كريـم البـاب، في صبـاح اليـوم الثالـث مـن مغادرتـه الضيعـة، ليوقظـه،

ويخـبره أنّ الضيعـة تحـترق، وجبـل تربـل غطّتـه النـيران، مـع الدخـان الكثيـف..

ركـب أميناً رعـبٌ شـديد.. لم يعـرف مـا عليـه أن يفعـل.. يـروح ويجـيء، أمـام أخيـه، مطرقـاً، ويفـرك كفّـاً بكـفّ..

- ماذا علينا أن نفعل..؟ واجه أخاه بهذا السؤال..

- الـدور آت عـلى المدينـة، دعنـا نخـرج منهـا.. وبعـد ذلـك لـكل حـادث حديـث..

كان ذلـك، آخـر يـوم مـن أيـام التوتّـر، في العـام 1983، لينقلـب إلى أول يـوم، مـن الانفجـار الكبـير. قـدّر العارفـون بشـؤون الحـرب، أن الاقتحـام تقـرّر.. والقـرار مـن المراجـع العليـا.. ومـا عـلى الأدنى رتبـة وموقعـاً، إلا الانصيـاع. والاقتحـام لا بـدّ لـه مـن التمهيـد، بالنـيران الكثيفـة والمتواصلـة، مـن المدفعيـة الثقيلـة، والدبابـات.. والضيعـة جـسر عبـور المقتحمـين، بعديدهـم وعتادهـم.. وقـد اعتـبروا أن الضيعـة محشـوّة بالمسـلحين، والقصـف سـيجبرهم عـلى الاخـلاء، عـلى الأقـل، رحمـةً بالباقـين مـن الأهـالي..

يسـتذكر أمـين تلـك اللحظـات المرعبـة التـي نقلهـا إليـه أخـوه يوسـف.. نـزل أبـوه وأمـه، مـع يوسـف وزوجتـه بيسـان إلى القبـو.. المـكان محمـيّ مـن فـوق، ومـن الغـرب، مكشـوف مـن الـشرق والشـمال، الجهتـين المواجهتـين للمقتحمـين.. حـشروا أنفسـهم تحـت السـلّم، المـكان الأكـثر أمانـاً.. اشـتدّ القصـف، وتواصّـل.. ضـاق صـدر يوسـف، وأراد الخـروج، دون أن يعـرف

إلى أيـن.. صرخـوا واسـتغاثوا، ليبقـى.. لم يسـمع.. خطـوات قليلة أمـام المنـزل المكشـوف.. أكمـل طريقـه.. تلقّـاه مدفـع رشـاش ثقيـل، بصوتـه الهـادر، فلـحَ الأرضَ أمامـه مبـاشرة.. قفـل راجعـاً، في رعـب لـن ينسـاه، ورمـى نفسـه داخـل القبـو..

مـرّ الأمـر حتـى هـذه اللحظـات، بسـلام.. سـمعوا بعـد مـرور القليـل، بأصـوات قريبـة جـداً، رافقهـا اهتـزاز المكان.. ثـم رائحة حريـق، وحـماوة لم يعهدوهـا مـن قبـل.. أحـسّ يوسـف بـأن ثمـة شـيئاً حصـل.. لم يتحـرّك.. أدرك جـمال أنّ البيـت أصيـب.. لم ينطـق بكلمـة.. سـاعات عـلى هـذه الحـال، إلى أن هـدأت الأمـور، بتوقّـف القصـف.. تجـرّأ جـمال وهَـمّ بالخـروج.. منعـه يوسـف.. وخـرج مسـتطلعاً.. لحظـات وعـاد.. البيـت يحـترق.. النـار مشـتعلة في غرفـة النـوم، والمطبـخ مشـلّع، والدخـان يغطّـي المـكان.. تذكّـر يوسـف أنّ البـارودة في مكانهـا، مـن غرفـة النـوم..

- البارودة، يا أبي.. البارودة..

- ما بها البارودة..؟ قال أبوه بصوت صارخ..

- في غرفـة النـوم.. أكيـد احترقـت.. ملفوفـة بالسـجادة.. احترقـت معهـا..

ثمانـون سـنة، عمرهـا.. سـنوات يلاحقهـا، حتـى ظفـر بهـا.. وهكـذا تـروح..؟

- يعـوّض اللـه علينـا، يـا ابنـي.. هـذا نصيبنـا.. والحمـد لـه،

والشـكر.

خـرج الجميـع إلى النـور.. وبـدأت الأصـوات تتصاعـد، ممـن بقـوا في البيـوت القريبـة.. شـغل الجميـع هـمّ واحـد، وسـؤال واحـد.. مـن أصيـب مـن الأهـالي، مَـن قُتـل، ومَـن جُـرح..؟

لم يطمـئنّ الأهـالي الباقـون، ويخرجـوا إلى النـور، ليتفقّـدوا الأضرار، إلّا بعـد مـرور قائـد قـوة المهاجمـين في الضيعـة، ليخبرهـم بانتهـاء الكابـوس، مـع التهنئـة بالسـلامة، والتبشـير بعـدم وجـود ضحايـا، والتكفّـل بالتعويـض عـن الأضرار..

مـا نشـأ عـن هـذا القصـف فـاق التصـوّر.. أكـثر مـن ألـف قذيفـة سـقطت في الضيعـة.. خمسـون منـزلاً تـضررت كليـاً، وجزئيـاً.. منـزل يوسـف، أصيـب بثـلاث قذائـف دبابـات، مـا يعنـي أن المنـزل مقصـود، وهـو المـكان الـذي جمـع فيـه جـمال المتخاصمـين.. ربمـا اعتـبروا أنـه نصـير الفريـق الثـاني، فنـال جـزاءه.. ربمـا.. إن بعـض الظـن إثـم. المهـم أن الجميـع خرجـوا سـالمين..

كان مـن حسـن حـظ أبي، يقـول يوسـف، أن بيتـي كان متراسـاً لبيتـه.. أصيـب ذاك، ولم يصـب هـذا، إلّا في المطبـخ الملاصـق. كانـت إصابتـه طفيفـة. أمـا البـارودة الأميركانيـة ذات الطلقـات الخمـس، والثمانـين سـنة، فقـد احـترق خشـبها، وبقـي المعـدن سـليماً. لم يهـدأ بـال أبي، إلّا بعـد أن صنعـتُ لهـا خشـباً جديـداً، عنـد قندقجـي محـترف.. عـادت كـما كانـت، وأجمـل. وبقيـت في حضنـي أمانـة، باعتبارهـا إرثـاً ثمينـاً لـلأسرة، وقـد تخطّـى

عمرهـا، المئـة بعشريـن. ومـن أجمـل مـا كنـت أقـوم بـه، ولا أزال، إظهـار البـارودة، عنـد كل نجـاح لإخـوتي، وأبنـائي، وأبنـاء إخـوتي، وأحفـادي، لأطلـق منهـا خمـس طلقـات متواليـات، ومـن ثـم، أعيدهـا إلى مخبئهـا بعـد التنظيـف والتزييـت..

إنـه إرث مـن التقليـد المصنـوع بالرمـز، والمحشـوّ بالتضامـن، يعطـي للحيـاة جـزءاً يسـيراً مـن معناهـا.. ولـلأسرة مغـزى بليغاً، يُغنـي عـن التضامـن البـدائي الـذي ولّـت أيامـه.

في هـذه الأثنـاء، كان أمـين قـد خـرج مـع أسرتـه مـن المنـزل، كـما فعـل أخـوه، وهـما لم يعرفـا مـا حصـل، مـع أهلهـما في الضيعـة.. ودون أن يعـرف كلّ منهـما، وجهـة الآخـر.. المهـم، الخـروج بالسـلامة، وكل مـا عـدا ذلـك، سـهل..

كانـت وجهـة كريـم، بلـدة زوجتـه إيلـين. ووجهـة أمـين، بلـدة بترونيـة، جمعتـه ببعـض ناسـها، صداقـة وأخـوّة، أنشـأتها ظـروف الحـرب، ومـآسي النـزوح.. كانـت أم مشـهور أمـاً ثانيـة، لابـن أمـين البكـر ربيـع.. وأبـو مشـهور الصديـق الصـدوق. لم يـدُر بخلـد أمـين، إلا أن يحـل نازحـاً عـلى أبـو مشـهور. وصلـت الأسرة إلى رأس نحـاش، البلـدة المسـلمة في محيـط مسـيحي.. ورمَـت بثقلهـا، عـلى هـذه الأسرة الطيبـة، ذات الأفـراد السـبعة.. ثـلاث غـرف، تقاسـمت إيـواء الأسرتـين.. تنـازل أبـو مشـهور وزوجتـه، عـن غرفـة نومهـما، لـلأسرة الوافـدة.. وجـوه باسـمة، وترحيـب دائـم، وفعـلُ كلّ مـا يلـزم، للشـعور بالراحـة.

كان أبـو مشـهور حريصـاً، كـما أم مشـهور، عـلى إفهـام أمـين

وأسرتـه، بأنهـم ضيـوف.. وللضيـف حقـوق. مـا عليهـم القيـام بـأي شيء، أو تقديـم أي شيء.. لم يقبـل أمـين.. وقـد اعتـبر أنّ عليـه المشـاركة في كل شيء، وإلا العـودة إلى الديـار، وإن عـلى خطـر. وأبلـغُ مـا شـعرت بـه الأسرة، دعوتهـا إلى اسـتلام المسـاعدة المخصّصـة للنازحـين..

أحـسّ أمـين منـذ تلـك اللحظـة أنّـه ذاق مـرارة النـزوح.. رفـض في البدايـة، إلى أن همـس أحدهـم في أذنـه، خذهـا، أو سـيأخذها أحـدٌ غـيرك، واتركهـا حيـث أنـت، عندمـا تعـود.. هكـذا حصـل أمـين عـلى مـا يسـتطيع أن ينـام عليـه، ومـا يتغطّـى بـه مـع أسرتـه، بالاضافـة إلى مـا يمكـن أن يأكلـه، مـن حبـوب ومعلّبـات وزيـوت، وإن كان بغنـى عـن ذلـك، بكرم أبو مشـهور وشـهامته، وبمقدرتـه هـو عـلى تأمـين مسـتلزمات عيشـه، وعيـش أسرتـه..

بقـي الأمـر عـلى هـذه الحـال، أيامـاً تجـاوزت الثلاثين.. لم يشـعر فيهـا أمـين، وزوجتـه نسـمة، أنهـما غريبـان.. بلـدة جميلـة في موقعهـا وناسـها، عرفـا فيهـا الكثيريـن، وصادقـا منهـا كثيريـن.. أواصرهـا دامـت.. ولـن تـروح، إلّا بالمـوت.

ماتـت أم مشـهور في عـزّ صباهـا.. وهـي تـدرك أنّ لهـا أخـاً وأختـاً لم تلدهـما أمهـا.. ومـات أبـو مشـهور، قبـل أوانـه أيضـاً، بعـد أن أقعـده المـرض. وقـد خـسر أمـين، بموتـه، أخـاً كبـيراً وعزيـزاً، لم تقـلّ محبتـه عـن محبّـة الأخـوة.

هـدأت الأحـوال، وعـاد أمـين ليلتقـي بأهلـه، وأهـالي الضيعـة، عـلى فـرح ودمـوع. مـا عاينـه فـاق التصـوّر.. طرقـات مقطوعـة

بالـركام.. حيطـان مهدّمـة، آثـار قذائـف في أماكـن لا يمكـن تصـوّر سـقوطها فيهـا، وهـي الأكـثر أمانـاً مفترَضـاً.. خسـائر بالملايـين.. اقتـصر الخـراب عـلى ذلـك، ولم يصـل إلى الأرواح.. فتـاة صغـيرة أصيبـت بشـظية، في شـفتها السـفلى.. ومـرّ الأمـر عـلى خـير.

أمـا بعـد ذلـك، فقـد اسـتأنفت الضيعـة حياتهـا، وأعيـد بنـاء مـا تهـدّم، بسرعـة مذهلـة، دون انتظـار مسـاعدة مـن أحـد، واكتفـى المتـضرّرون بتصويـر الخـراب الـذي حـلّ بهـم.. لعـل وعـسى..

إلا أن مـا يهـمّ، لحـظُ النتائـج التـي تأتّـت عـن هـذا الخـراب.. زيـادة الإلفـة بـين الأهـالي، وإعـادة إحيـاء تقليـد، كاد أن يندثر.. العونـة. تجنّـدَ الجميـع لخدمـة الجميـع، في البنـاء، والتعويـض. عـاد كلّ بيـت متـضرّر، عـلى أفضـل مـما كان.. وحـضرت الهدايـا لمـن خـسر مقتنيـات بيتـه.. وظهـر الأمـر، بعـد فـترة لا تتجـاوز الشـهرين، وكأن الضيعـة بُنيـت مـن جديـد، وزاد مـن بهائهـا، طـلاء منازلهـا باللـون الأبيـض، للدلالـة عـلى محبّـة الأهـالي للسـلام، وصفـاء النيّـة في التعامـل فيـما بينهـم، ومـع الآخريـن.

15

استأنف جمال حياته بهدوء، وإن بقي على عادته القديمة، في زيارة الأصحاب، والابقاء على وتيرة التواصل معهم.. عدّتُه الوحيدة، قدمان تسيران، بثبات وإصرار، إلى أن قضى الله امراً لم يكن محسوباً.. كان في كامل همّته ووعيه، وقد تجاوز الخامسة والثمانين.. مشى على ضفاف النهر البارد مسافة طويلة، استغرقت ساعات، تحت أشعة شمس محرقة، في أواخر صيف.. وصل إلى البيت، في حالة من التعب الظاهر.. دفع محبّة لتسأله.. لم يُجب.. ثم «سخّنيلي مي». أحسّت محبّة أن ثمة شيئاً غير معهود، في زوجها.. وجهٌ مصفرّ، رجفة في الجسم، ظهرت أكثر في اليدين، وزوَغان في العينين.. منظرٌ أخافها.. ندَهت لخليل.. حضر.. كان أبوه قد استسلم لنوم عميق.

في منتصف الليل، استفاقت محبّة على همهمة غريبة، تصدر عن جمال.. أضاءت الغرفة، فإذا هو في منظر غريب.. فم معوَجّ، وعين خامدة، وجمود في طرف، وحركة غريبة في الطرف الآخر.. نهضت مذعورة، وهي تصرخ.. استفاق خليل، الابن الأصغر، ودخل مسرعاً، ليرى أباه في هذا المنظر المخيف.. سبقته دموعه، عندما تحرّك ليُنهضه.. رمقه جمال، بنظرة من عين واحدة، مع هزّة رأس، وكأنه يعرف ما الذي أصابه..

– إنهض يا أبي.. علينا أن نذهب إلى المستشفى.. ذهابنا

ضروري..!

لم يتذكّـر أحـدٌ مـن أسرة جـمال، أن أباهـم دخـل يومـاً، إلى مستشـفى، أو قابـل طبيبـاً.. كان يـداوي نفسـه، بنفسـه، كـما يـداوي الآخريـن.. وقـد عـرف أنـه أصيـب بجلطـة في الـرأس.. وجـمال يعرفهـا فالجـاً.. وقـد عالـج حـالات كثـيرة منـه بالـكيّ.. حسّـن حـالات وشـفى حـالات، وإن قليلـة.. قبِـل بالدخـول إلى المستشـفى، عـلى مضـض.. وظـنّ أنهـم سـيعالجونه بالطريقـة التـي كان يعالِـج بهـا.

أوصلـه ابنـه خليـل إلى المستشـفى، أبقـاه هنـاك ليخـبر أخويـه في المدينـة.. نقلـه أمـين إلى مستشـفى آخـر، لبقائـه فـترة طويلـة في ردهـة الطـوارئ، دون أن يهتـمّ بـه أحـد.

لم يعـرف أمـين كيـف واتتـه هـذه العاطفـة التـي طغـت عليـه، عندمـا وجـد أبـاه، عـلى هـذه الحـال، وهـذا الضعـف.. وهـو الأب الـذي عـاش كل هـذا العمـر، دون أن يتجـرّأ أحـد مـن أولاده عـلى النظـر مبـاشرة في عينيـه.. هـذا عـلى الأقـل، مـا كان عليـه حالـه.. وحـال أخيـه الأصغـر، بعـد أن كـبر إخوتـه وتزوجـوا وأنجبـوا أولاداً. لم يسـتطع أن يمنـع نفسـه مـن البـكاء.. وجهـدَ كي لا يـراه أبـوه.

خرجـت نتائـج الفحـوص، لتقـول إن الـداء لم يكـن إلا جلطـة في شريـان الـرأس، وجفـاف في شرايـين صغـيرة، ناشـئة عـن جلطـات خفيفـة سـابقة، لم يفصـح عنهـا جـمال. وكان عليـه أن يخضـع لعـلاج، لم يعهـده، ولم يتقبّلـه.. حتـى أنـه لم يعـد يقبـل البقـاء

في السريـر.. يريـد أن يخـرج، ويـداوي نفسـه.. هـذا مـا كانـت تفصـح عنـه يـده، في التدليـل عـلى رأسـه، وفي الهمهمـة التـي كانـت تقطّـع القلـب، مـع عينـين غاضبتـين، يعـرف أمـين جيـداً دلالاتهـما، بمـا تعنيـه مـن غيـظ وحنـق..

كان أمـين، وابـن شـقيقته يوسـف، يتعاونـان لتهدئتـه وإبقائـه في السريـر.. وهـو يـصرّ عـلى الخـروج منـه.. ليلـة ليـلاء، بـين محاولتـه الوقـوف، والنـزول مـن السريـر، ومحـاولات تهدئتـه لابقائـه نائمـاً.. لم تنفـع المحـاولات، لا منهـما، ولا منـه.. عـراك بالأيـدي والنظـرات، وهمهـمات منـه، وغضـب.. رجـاء منهـما، مـع دمـوع وتوسّـل.. لا فائـدة.. كان يتمسّـك بسـتائر النافـذة، ويقـف عـلى رِجـل واحـدة، لشـلل الأخـرى، ويُـدلي بهـا خـارج السريـر، ليخـرج منـه، مـع نظـرات يختلـط فيهـا التوسّـل، مـع الغضـب للمسـاعدة.. يعيدانِـه إلى مـا كان عليـه.. كـرّ وفـرّ.. واسـتدعاء الممرضـات العاجـزات عـن فعـل أي شيء.. حتـى للتهدئـة..

كان جـمال يـدرك، أنّ ابنـه أمـين، سـيناقش أطروحتـه في صبـاح اليـوم الـذي لم يدعـه يرتـاح فيـه، لحظـة واحـدة.. وكان وعَـدَه أن يحـضر الجلسـة، «ليشـوف حالـو فيـه». كان يفهـم تمامـاً، مـا يقـال لـه، ويعـبّر بالاشـارة والهمهمـة عـن فهمـه، وعـمّا يريـد أن يقـول.. تاريـخ لـن ينسـاه أمـين، مـا دام حيـاً.. 16 تشريـن الثـاني/ نوفمـبر 1991، ليلـة السـهر عـلى أبيـه، وصبـاح مناقشـة أطروحتـه.

خـرج أمـين مـن المستشـفى، إلى جلسـة المناقشـة مبـاشرة، بعـد

أن أعـدّ مطالعتـه، مسـتغلّاً غفـوة أبيـه مـع انبـلاج الفجـر.. لم يخـبر أحـداً مـن الحاضريـن، عـما أصـاب أبـاه.. كان الجمـع كبـيراً، والمناقشـة طويلـة، امتـدت إلى خمـس سـاعات.. والنتيجة باهـرة.. وقـد اعتـذر أمـين عـن التقصـير في واجـب الضيافـة.. للحالـة التـي عليهـا والـده في المستشـفى.. لم يقـل ذلـك قبـلُ، كي لا يسـتدرّ شـفقة اللجنـة، أو تعاطفَهـا.

كان هـمّ أمـين، أن يوصـل هـذا الخـبر المُفـرح، إلى أبيـه.. وقـف فـوق رأسـه، ليقـول.. وأمسـك يـد أبيـه، ليعـرف ردّة الفعـل..

– لقـد فـزتُ بتفـوّق يـا أبي.. شـدّ عـلى يـدي، إذا فهمـتَ مـا أقـول..

لم يشـدّ جـمال عـلى يـد أمـين فقـط.. سـقطت الدمـوع مـن عينيـه. رأى أمـين في تلـك اللحظـة، وفي عينَـي أبيـه، مـا لم يـره طيلـة السـنين التـي مـرّت.. أو ربمـا كان فيهـما أكـثر، ولم يلحظـه، لعـدم قدرتـه عـلى النظـر فيهـما.

كان لمـرض جـمال، المناسـبة التـي بلـوَرَت علاقـة أمـين بأبيـه.. لم يـدرك، أنّ مثـل هـذه العلاقـة موجـودة أصـلاً، أو يمكـن أن تكـون موجـودة.. كانـت العلاقـة بينهـما، كـما بينـه وبـين بقيـة أبنائـه، علاقـة أبٍ بأبنـاء.. سـلطة أبويّـة تسـتوجب الخضـوع مـن الأبنـاء.. لا تمييـز فيهـا بـين الحـبّ والخـوف، الاحـترام والطاعـة المجبولَـين بالرهبـة.. كانـت فـترة المـرض والعجـز، اختبـاراً لنوعيـة العلاقـة بـين الأب وابنـه.. اختبـارٌ أظهـر مـا كان مخبـوءاً.. ذهـبَ الخـوف.. واضمحلّـت الرهبـة، إلى أن اختفـت..

ولم يبـقَ إلا الحـب.. ظهـر الحـبّ متدفّقـاً مـن كل الجهـات.. لم يـدرِ أمـين مـن أيـن جـاء، ولا كيـف وصـل إلى هـذا الحـد.

اكتشـف أمـين علاقـة جديـدة مـع أبيـه.. لم يعرفهـا سـابقاً، ولا خطـرت في بالـه.. وعـرف أن مرضـه، أتـاح فرصـة التعـرف عليـه، وأعطـاه هـذا الدفَـق مـن المحبّـة التـي لم يعـرف أنهـا يمكـن أن تكـون خبيئـة القلـب.

طـرأ تحسّـن عـلى صحـة جـمال.. وعـاد الـكلام مـدراراً عـلى لسـانه.. أحـسّ أمـين، بمـا لا يمكـن أن يوصـف.. سـيعود أبـوه كما كان، ليسـتأنف حياتـه التـي تعـوّد عليهـا.. جلسـت كنّتـه إيلـين بجانبـه، بحـبّ وفـرح.. طلبـت منـه أن يعطيهـا وصفـة القطـرة التـي تَجـلي العـين.. بعـد أن لمسـت دهشـة الطبيـب، وهـو يراه يقـرأ مواصفـات دواءٍ يتناولـه بـلا نظّـارات.. فعـرف أن نظـره سـليم، وهـو في هـذا العمـر..

– القطـرة يـا حكيـم.. القطـرة.. هـي التـي تعيـد النشـاط إلى العـين..

تركـه الطبيـب وهـو يهـزّ رأسـه، وخـرج.. لتطلـب كنّتـه تلـك الوصفـة العجيبـة..

– مـاء.. حامـض.. بـو.. وتوقّـف لسـانه عـن الـكلام، وتكـوّم فمـه في جانـب واحـد، وغـارت عينـه، وهمـد.. وقفـت إيلـين مذعـورة، وصرخـت.. جـاءت الممرضـة، وحـضر الطبيـب.. صـوَر وأشـعة.. وجلطـة ثانيـة، عطّلـت نصـف جسـده عـن الحركـة.

بقـي جـمال عـلى هـذه الحـال أيامـاً عديـدة.. إلى أن انتحـى الطبيـب بأمـين، ليقـول لـه..

- هـذا وضـع أبيـك.. يـا أسـتاذ.. هنـا أو بالبيـت لا فـرق.. العـلاج نفسـه ولا يحتـاج إلى مستشـفى.. سـيبقى هكـذا، ومـن المسـتبعد أن يشـفى.. يمكـن أن يتحسّـن.. بـلا زيـادة في المصاريـف.. حـرام.

لم يصـدّق أمـين مـا آل إليـه وضـع أبيـه، بعـد انتكاسـته التـي أعادتـه إلى البدايـة.. أصرّ عـلى الطبيـب أن يفعل ما باسـتطاعته، ولا تهـمّ المصاريـف..

- ابقِه إذاً.. ولكن لا فائدة..

قال الطبيب كلمته، ومشى..

جمـع أمـين إخوتـه، وشرح لهـم مـا وصـل إليـه الأمـر.. قـرروا إخراجـه مـن المستشـفى، واتبـاع الارشـادات اللازمـة..

اسـتكان جـمال.. واستسـلم إلى مصـيره.. تملّكـه هـدوء غريـب.. وظهـرت نظراتـه، وكأنهـا تـضرب في الفـراغ.. اسـتجاب لأي تحيّـة بهـزّ الـرأس، دون النظـر.. أحـسّ الجميـع، أنّ الاستسـلام عـلى هـذا الوجـه، لـه دلالـة الاسـتعداد للانتهـاء مـن الحيـاة، والتحضـير لاسـتقبال المـوت.. مـا هـذا جـمال الـذي يستسـلم، دون أن يـدرك أن أجَلـه قـد حـان.. هـذا مـا جـال في ذهـن أمين، عندمـا عمـل عـلى وضـع أبيـه في سريـر المنـزل، مـع آخريـن. ولكنـه لم يفصـح، عـما جـال في خاطـره لأحـد.

في المساء، طلب أمين من الجميع أن يجتمعوا، على عجل.. الأبناء والزوجات والأحفاد، للبحث في أمر رعاية الوالد، والاهتمام بتلبية كلّ ما يلزم.

حضر الجميع. منهم من جلس على المقاعد، ومنهم من افترش الأرض..

- هذا أبونا كما ترون.. يمكن أن يتحسّن وضعه.. ويمكن أن يبقى هكذا، سنوات.. علينا أن نجهّز أنفسنا، لنقوم بخدمته طيلة الليل والنهار، بمعدل إثنين في كل جلسة، وقوفاً، أو جلوساً لا يهمّ.. المهم، السهر عليه ورعايته.. من لا يستطيع المشاركة في هذه المهمة، يخرج من الغرفة..

هذا ما قاله أمين، بوجه صارم، وكلمات قاسية، ليعطي للكلام الذي قاله أهميّته، ودلالته، ليأخذه الحاضرون، بأقصى ما يمكن من الجدّية.

وقف يوسف عاقداً يديه، ناظراً في الأرض، وقال، على حياء ظاهر..

- أنا لا أستطيع أن أرى أبي، على هذه الحال.. أريد أن تبقى صورة الأب الذي أعرفه، في خيالي.. اعذروني.. لا أستطيع المشاركة.. ولا أقدِر أن أراه، على هذه الصورة.

- تفضّل، أخرج من هنا إذاً.. ودعنا نعمل.. قال أمين، وهو يدرك معاناة أخيه الأكبر.

خرج يوسف.. ومات أبو يوسف.. ولم ينظر إليه، إلا لحظةَ

وداعـه، قبـل مواراتـه في الـثرى.

كان عـلى أمـين، أن ينظّـم برنامجـاً أسـبوعياً، لرعايـة الوالـد، مـن زوج وزوجـة، وحفيـد وحفيـدة. أعفـى أختـه وأولادهـا القاطنين بعيـداً، مـن المشـاركة.. وفي النتيجـة، حصـل كل اثنـين عـلى الرعايـة مرتـين في الأسـبوع.. والـشرط الأسـاسي أن يتناوبـا السـهر طيلـة الليـل، إلى أن يطلـع الصبـاح، فتسـهل المهمـة، وينتهـي دورهـما.

كانـت حصـة أمـين، أن يسـهر مـع زوجته نسـمة، يومَـي الأربعاء والسـبت، مـن كل أسـبوع.. والأربعـاء، كان اليـوم الثالـث، مـن وجـود جـمال في المنـزل. في منتصـف الليـل، أيقظـت نسـمة زوجهـا، ليحـلّ محلهـا، لتنـام.. جلـس أمـين عـلى حافـة سريـر والـده، وأحـاط رأسـه بذراعـه، واسـتكان.. أحـسّ بـأن أبـاه عـلى يقظـة.. شـدّ عـلى كتفيـه، وغمـره..

- كيفـك يـا بيّـي.. قـال هـذا.. وهـو يـدرك أن لا جـواب، سيسـمعه..

- أنا منيح.. إنت أمين ما هيك؟؟

لم يصـدّق أمـين مـا سـمعه.. أبـوه يتكلّـم.. وهـو صامـت منـذ شـهر..؟ كيـف ذلـك؟؟

- الحمـد للـه يـا أبي.. الحمـد للـه.. هـا أنـت عـدت إلينـا يـا أبي.. كيفـك.. شـو عـم تحـسّ.. لم يعـد أمـين قـادراً عـلى الـكلام.. أخذتـه موجـة هـادرة مـن البـكاء.. لم يعـرف مـن أي نـوع هـو.. بـكاء فـرح، أم لوعـة، أو صدمـة.. أم تهيّـأ لـه سـماع كلام..!

كانـت يـد أمـين الملتفّـة عـلى عنـق أبيـه، متدليّـةً عـلى صـدره.. أحـسّ بيـد أبيـه تغمرهـا، وتشـدّ..

- بـدي إسـألك.. كيـف دبّرتـو مصاريـف المستشـفى.. وأنـا طوّلـت كتـير فيهـا..؟!

كانـت المفاجـأة في السـؤال، مذهلـة. الوعـي، والوضـوح التـام في الـكلام.. ومضمـون السـؤال الـذي يفصـح عـن معرفـة كل مـا مـرّ بـه جـمال، طيلـة شـهر مـن العـلاج.

- بيـي نحنـا مسـتعدين نبيـع دمّنـا لترجـع لنـا.. الحمـد للـه عـلى السـلامة..

شـدّ جـمال عـلى يـد ابنـه وقرّبهـا مـن فمـه.. وطبـع عليهـا قبلـة، طـال أمدهـا..

يـا اللـه.. جـمال يقبّـل يـد ابنـه، وهـو طـوال عمـره، إلا آخـر سـنوات، يتلقّـى القبـل عـلى اليـد، مـن الأبنـاء والأحفـاد.. لم يمـرّ الأمـر، وكأنـه عـادي.. غمـر أمـين رأس أبيـه.. أجهـش بالبـكاء، وهـو لا يريـد أن يحسّـس أبـاه، بمـا حصـل لـه.. انهمـرت دموعـه، وأطبـق فمـه، وجهـد بحبـس أنفاسـه، إلى أن اسـتقرّت حالـه.. ولم يهـدأ لـه بـال، إلّا بعـد أن أيقـظ نسـمة، ليخبرهـا عـما حصـل.. لم تصـدّق، إلا عندمـا سـألت عمّهـا، عـن حالـه.. وأجابهـا بالحمـد للـه.. فشـاركت زوجهـا بدمـوع الفـرح..

طلـع الصبـاح، عـلى هـذه الحـال.. تـرك الزوجـان غرفـة جـمال، وغـادرا إلى المدينـة، ليسـتكمل الباقـون الرعايـة والاهتـمام.. وهـما مطمئنـان عـلى صحـة الوالـد، وتحسّـن حالـه..

في النوبـة الثانيـة، لم يكـن جـمال عـلى حالـه، لم يقـل كلمـة واحـدة، ولا التفـتَ إلى أمـين.. خاطبـه.. لا إجابـة.. أضـاء النـور.. عينـان جامدتـان تنظـران إلى أدنى.. أخـاف منظـرُه أمينـاً، وخـاف عليـه.. همـد إلى جانبـه، وراح في غفـوة.. طلـع الصبـاح عـلى هـذه الحـال، واليـوم أحـد. كان عـلى الجميـع، أبنـاء وكنائـن وأحفـاداً.. أن يكونـوا حـول جـمال.. لم يلفتـه المشـهد، ولا حـرّك عينيـه.. بقـي هكـذا دون حـراك.. وكأنـه الاستسـلام للمصـير الـذي يقـترب.. عمـل أمـين بـكل جهـده، ليحظـى بـردّ مـن أبيـه، ولـو بشـدّ اليـد. لم يحـظَ بذلـك.. أمسـك بـه الخـوف.. وخـرج، دون أن يقـول شـيئاً..

- انتبهـوا عـلى أبي.. سـنروح.. هـذا مـا قالـه أمـين، لإخوتـه.. خـرج مـن المنـزل، مـع زوجتـه والأولاد، متوجّهـاً صـوب المدينـة.

في الليلـة التـي تلَـت، وفي منتصفهـا.. دُقّ جـرس البـاب.. نهـض أمـين، عـلى صـوت زوجتـه..

- قوم شوف مين عالباب..

قالت بصوت مذعور، وكأنها أدركت ما حلّ بهم.

كان حسن، الحفيد، بوجهه المصفرّ المتجهّم..

- كيفـك عمّـي.. جـدّي مانـو منيـح.. لازم تشـوفو، قبـل مـا يصـير شي..

- جدك مات يا حسن..؟

غـرق حسـن في بـكاء مـرّ.. لم يسـتطع البقـاء واقفـاً، ولم يسـتطع

الـردّ.. كان بـكاؤه ردّاً، جعـل أمـين في مـكان آخـر، بعـد أن دارت الدنيـا بـه.. فاتّـكأ أخـيراً عـلى المكتبـة، بمسـاعدة مـن زوجتـه التـي قويَـت عليـه، في تلـك اللحظـة.. وراح في نحيـب، لم يعـرف كيـف أتى بهـذه السرعـة، ولا إلى أيـن سـيوصله.. أحـسّ بأيـدٍ تمسـكه مـن طرفيـه، وأجلسـته، مـع كلام سـمعه، ولم يفهمـه. انتظـرا حتـى هـدأ.. ليقـول..

- خذني معك الآن.. وابقي أنتِ مع الأولاد..

رفضـت نسـمة أن تبقـى، ارتـدى ثيابـه، ولم يقـل شـيئاً.. قـدّرت أنّـه موافـق، عـلى الذهـاب معـه.. دون أن يـردّ.. ارتدت ملابسـها ورافقتـه.. كان ذلـك في 12 كانـون الأول/ ديسـمبر 1991.

لم يعـرف أمـين، كيـف يمكنـه أن يوقـف النحيـب. بقـي عـلى هـذه الحـال، إلى حـين وصولـه إلى منـزل والـده.. لم يسـتطع الوقـوف، ولا السـير.. حـاول.. جنّـح.. وكاد أن يقـع، بعـد أن اختـلّ توازنـه، سـنده أحـد الواقفـين، وأوصلـه إلى حيـث يسـجّى أبـوه..

كان في طقمـه البيـج، ممـدّداً في كامـل أناقتـه، وكأنـه نائـم.. وجـهٌ مـضيء، بشـقاره المبيَـضّ، شـبهُ بسـمة، تعطـي لمحيـاه وقـاراً، لم يخـسره يومـاً.. شـاربان رشـيقان أشـقران، لم يخفـت زهوُهـما، حتـى في هـذه الليلـة.. يـدان مسـدلتان، عـلى جانبـين مسـتقيمين.. خاتـم مـا زال متلألئـاً في بنـصره، وجوربـان قريبـان مـن البيـاض، يسـتران قدميـه، يـدلّان أكـثر.. عـلى أنـه نائـم، ولا شيء غـير ذلـك.

دهـش الجميـع مـن أمـين الصامـت، مـع تكتيـف يديـه، ونظرته المتجوّلـة عـلى جثـمان أبيـه، ودموعـه التـي تُغـرق العينـين.. بـلا أيّ كلمـة. أنحنـى، بهـدوء، عـلى قدميـه، أولاً، يقبّلهـما، ويمـرّغ وجهـه بهـما.. مـع رجفـات طالـت جسـمه كلـه، مـع سـماعِه لحشرجـات المتحلّقـات حـول جسـد أبيـه، ثـم صعـد بفمـه، إلى يـده اليمنـى، يمطرهـا قُبـلاً ودموعـاً.. ثـم إلى يـده اليـسرى، فعلاّهـا ليضعهـا عـلى فمـه.. لم يعـرف مـن أعـاد إنزالهـا، لأن ذلـك حـرام، كـما سـمع.. فـدار إلى الجانـب الآخـر، ليشـبعها تقبيـلاً، ثـم إلى الوجـه الـذي غمـره بوجهـه.. كان ذلـك، بدايـة انهيـاره، فـصرخ بصـوت عـال، وعـادت إليـه الحشرجـة التـي ركبتـه، منـذ خروجـه مـن البيـت، ولم يحـسّ، إلا بمـن أمسـكه مـن طرفيـه، مـع الترجّـي بالهـدوء، والتسـليم بقضـاء اللـه.

لم يعـرف أمـين، أن محبّتـه لوالـده، يمكـن أن تصـل إلى هـذا الحـدّ.. وأقـرّ أنّ كل مـا أحـسّ بـه، لم يكـن إلّا وليـد الحالـة التـي حلّـت بأبيـه، منـذ بدايـة مرضـه، وأودت بـه إلى اكتشـاف تلـك الصلـة التـي يمكـن أن تربـط أبـاً بابنـه، أو بأمـه أو أخيـه وأختـه.. كلّ مـا عرفـه، ومـا اسـتمدّه مـن التجربـة، أن الحـب وليـد العِـشرة الدائمـة، والملازَمـة أوقـات الشـدّة.. والتعبـير عـن المعانـاة والمشـاركة فيهـا.. بغـير ذلـك، لا يمكـن أن تتفتّـق الجراحـات، ولا تنبنـي العلاقـات الموصِلـة إلى تفجّـر الحـب بـين المحبّـين.. مـات كثـيرون مـن الآبـاء والأمهـات، دون أن يحظـوا إلا بالقليـل مـن دمـوع أبنائهـم، أكثرُهـا مـا ينهمـر في لحظـات الـوداع الأخـير، الدمـوع التـي لا بـدّ منهـا، ولـو كانـت قلـوب هـؤلاء، مـن حجـر.

16

لم يصدّق أمين، أن أباه سيروح بهذه البساطة..عرفه عنيداً، وغير قابل للتعديل، في مواقفه ونواياه.. ويدرك حبّه للحياة، وللأصحاب والصيد.. والتدخين أيضاً.. كيف يترك كل هذه المغريات، ويطوي صفحته ويمضي..؟ وهو منذ يومين، وبعض الثالث، عاد له لسانه، ينطق بما يريد، وإن كان نصفه الأيمن، على شيء من الجمود.. ما هذه الحياة التي تفرض على الكبار، تغيير مواقفهم، ونظرتهم إلى الدنيا..؟ كيف تجبر الناس على الخضوع..؟ طيّب.. ليس الخضوع.. كيف تجبر الناس على الطاعة، وهم متعلّقون بها، عاملون بما تتيحه لهم..؟ وجمال محبٌّ للحياة، عاشق لما قدّمته له، مبحر في عطاياها، إلى عمق الأعماق..؟

كيف على أمين، أن يفسّر ذلك.. كيف يمكن أن يحلّ هذا التناقض، بين ما يعنيه الموت، وما تعنيه الحياة..؟ هل الموت فعلاً، حياة أخرى..؟ وهل تتيح له، إعادة بناء حياته، وتكوين أصحابه، ورحلات الصيد، وتعليم الأولاد، وإزالة الوجع من أجساد الناس، وهندَمة وجوههم..؟ هل شمّع كتابه، وأغلقه إلى الأبد..؟ هل سينتظر كثيراً لتلقّي الحساب الإلهي..؟ وما يمكن أن يكون هذا الحساب لجمال الذي لم يؤذ إنساناً، ولم يبخل على آخر، بما كان يُتقنه..؟ ما دور هذه الحياة في تقديم ما يلزم، للشفاعة أمام العظمة الإلهية..؟ وما علينا أن نفعل للمساهمة في رفع منسوب

الشـفاعة، عـلى رجـاء الراحـة الأبديـة لنفسـه.. عـلى مـا يقـول الديـن، ويؤمـن بـه المتديّنـون..؟

أفـكار كثـيرة، جالـت في رأس أمـين، وهو قابـع بين إخوتـه، يتقبّل عـزاء الوافديـن.. يـوم ممطـر، تحـوّل إلى مثلـج، رافقـه تدفّـق الوافديـن، مـن أمكنـة قريبـة وبعيـدة.. بيـوت أهـل الجـيرة انفتحـت، واسـتقبلت المعزّيـن.. امتـلأت السـاحات، والطرقـات، والبيـوت.. تحـت المطـر، وتحـت المظـلات والشرفـات، وقفـوا. رجـال ونسـاء، شـيوخ وأطفـال، غصّـت بهـم الأمكنـة، وكأن الوقـت حـان، لـردّ مـا قدّمـه جـمال، عـلى امتـداد سـنوات حياته الطويلـة.. جـاؤوا ليودّعـوا جـمالاً، في يومـه الأخـير.. منهـم، مـن يعرفهـم أبنـاؤه، ومنهـم كثـيرون، لم يعرفوهـم.. وأكـثر مـا كان يعـزّي هـؤلاء، قـول واحـدٍ منهـم.. مـا فعلـه لي بـو يوسـف، لا يمكـن أن أنسـاه.. وآخـر أنتـم لا تعرفونـني، بـو يوسـف، كان صديقـاً عزيـزاً، قـلّ مثيلـه.. وآخـر.. وآخـر. كان عـلى الإخـوة الأربعـة أن يبقـوا واقفـين، لتقبّـل العـزاء مـدة طويلـة.. قبـل صـلاة الجنـاز..

في غمـرة توافـد النـاس، جـاء من همـس في أذن أمـين أن الخوري لـن يقيـم الصـلاة إذا أصرّ، مـع إخوتـه، عـلى وضـع طاولتـين للتبرعـات عـلى بـاب الكنيسـة، عـن روح الوالـد.. تبرّعـات لنادي الضيعـة ذي الصفـة العلمانيـة، وتبرّعـات لصنـدوق الوقـف الكنـسي.. والمتـبرّع يختـار.

تـرك أمـين مجلـس العـزاء، ليعـرف مـا حصـل بالضبـط.. أبلغـه قريـبٌ لـه، بـأن الخـوري لـن يُقيـم الجنّـاز، ولـن يفتح الكنيسـة

لإقامــة الصــلاة، إلا بوجــود طاولــة الوقــف، دون غيرهــا.. والخوارنـة الموجـودون كثـيرون. أبلغـه قريـبٌ آخـر، أنه مسـتعد لخلـع بـاب الكنيسـة.. وينتظـر إشـارة..

قـرّر أمـين، بعـد أن استشـار إخوتـه، وبعـد التفكـير في مغبّـة مـا يمكـن أن يحصـل، بـأن الصـلاة سـتكون في البيـت، وبـلا الكنيسـة والخـوري. دفـع هـذا القـرار الخـوري، إلى تسـليم مفتـاح الكنيسـة إلى وكيلهـا.. ومغـادرة الضيعـة.

رأى أمـين، كـما رأى إخوتـه، أنّ مـا فعلـه الخـوري، لا يمكـن تصـوّره.. كانـت محبّـة عمّتـه، وجـمال زوج عمتـه.. وقـد عـاش ردهـاً طويـلاً، مـع أبنـاء عمّتـه في المدينـة، أيـام العزوبـة.. صورتـه في إطارهـا المذهّـب الكبـير تزيّـن صـدر دار زوج عمتـه المتـوفى، بـين صورتـين مـن أبنائـه.. والعلاقـات وثيقـة وأهليـة.

لعبـت الفلسـفة في رأس أمـين، أكـثر مـما لعبتـه القرابـة، في رؤوس إخوتـه.. أبـوه مـات.. وهـي المـرّة الوحيـدة التـي يمـوت فيهـا.. عـدم المشـاركة في جنازتـه لـن تُعـوّض.. ولـن تعـاد.. وعـدم المشـاركة، يعنـي إمكانيـة عـدم الصـلاة عليـه، لأن بقيـة الكهنـة غـير مخوّلـين، إقامـة الصـلاة بغيـاب خـوري الكنيسـة.. وعـدم الصـلاة عليـه، يعنـي عـدم المسـاهمة في رجـاء طلـب الرحمـة، عـلى مـا يقـول الإيمـان المسـيحي.. وكان جـمال مؤمنـاً، وإن عـلى طريقتـه.

تكفّـل الخـوري مطانيـوس، الصديـق الحميـم لجـمال، وصلـة الوصـل بينـه، وبـين أبيـه، في البرازيـل، بإقامـة الصـلاة.. وافقـه

الخوارنـة الموجـودون، بعـد أن توافـق الإخـوة، عـلى عـدم وضـع طاولـة للتبرعـات، عـلى بـاب الكنيسـة.

لم يسـلَم أمـين مـن عـودة الحشرجـة، بعـد كل مـا مـرّ. ولم يسـتطع تهدئـة نفسـه، ولا السـيطرة عليهـا.. طيلـة وقـت الصـلاة، والعـزاء بعدهـا، وهـو يبـكي، مـع حشرجـة مسـموعة.. أحرجتـه، وأحرجـت إخوتـه الصامتـين.. لم يتعـرّف أوجـهَ المعزّيـن، ولم يتطلّـع، ليعـرف.. وفكـرة العقـوق التـي تَمثّلهـا بأبشـع صورهـا، تـرزح عـلى قلبـه، وتعطّـل عقلـه.. لم يجابـه ذلـك، إلا بالدمـوع والحشرجـة.

مـا لحظـه أمـين وإخوتـه، وكل المشـيّعين، انقطـاعَ المطـر، وهدوء العاصفـة، قبـل التشـييع بوقـت قصـير.. سـطعت الشـمس، وتحسّـن الطقـس، طيلـة فـترة صـلاة الجنّـاز، ومراسـم الدفـن.. وبعـد ذلـك، عـاد التدهـور، وأمطـرت السـماء، وأكـثرت.. وعـادت العواصـف لتهـبّ مـن جديـد.. ربـط الكثـيرون بـين جنـازة جـمال، وأحـوال الطقـس.. وإذا كان مـن العسـير ربـط هـذه، بتلـك، فـإن مـا حصـل عرفـه كلّ المشـيّعين. ومـن ربَـطَ، دلّ، بذلـك، عـلى محبّتـه لجـمال، ليزيـد مـن طلـب الرحمـة لـه.

تـوفّي جـمال، وكان وقـعُ الوفـاة عـلى الجميـع مؤلمـاً.. إلا أن الألم الأكـبر، والأوجـع، مـا كان يحـسّ بـه أمـين. مـا أحـس بـه، كان بعيـداً عـن إحسـاس إخوتـه، وشـعورهم بخسـارة والدهـم. كان إحسـاس أمـين، بـأن خسـارة أبيـه، أمدّتـه بشـعور إنسـاني نبيـل، شـعور المحبّـة ومضامينهـا، في هـذه الفـترة القياسـية؛ الفـترة التـي أقنعتـه بـان مشـاعر الانسـان، وقدرتهـا عـلى النمـو، لا

تتقيّـد بحـدود.. ولا بزمـان.. وإذا أحـسّ بحـدود، فهـي مجـرد آفـاق، تفتـح عـلى آفـاق. أمـا الجحـود الـذي لاقـاه، مـن أقـرب النـاس إليـه، في اللحظـة التـي لا يحتـاج إلى مثلهـا، فيـما بعـد.. فلـم يجـد لـه أي تفسـير، أو تبريـر.. وهـو السـلوك المناقـض لِـما يقتضيـه الإيمـانُ المسـيحي، ونـشرُه عـلى نصاعـة بيـاض، وقلـب نقـيّ، وطهـارةِ طويّـة.

كان عـلى أهـل العـزاء أن يتقبّلـوه، كـما تقـضي التقاليـد، لثلاثـة أيـام.. وحـدث أن أقيـم في بيـت يوسـف الملاصـق لبيـت الأسرة.. والتقليـد يقـضي، بـأن تكـون الكلمـة لصاحـب البيـت، الابـن الأكـبر. جـاء مـن همـس في أذنـه، أن الخـوري قـادم للعـزاء.. ومـن المهـم اسـتقباله، بـلا وجـع رأس.. وكان أن أبلـغ يوسـف إخوتـه بذلـك.. ولا إمـكان للتراجـع.. صمـت أمـين.. كتـمَ غيظـه، وإن ظهـر ذلـك، عـلى محيـاه.. دخـل الخـوري مـع أخيـه، وهـما ابنـا الخـال، للتعزيـة.. لم ينتظـر أمـين ليجلسـا.. بـل نهـض، وانسـحب مـن مجلـس العـزاء، دون كلمـة واحـدة.

لم يـدم مجلـس الخـوري وأخيـه أكـثر مـن دقائـق معـدودة.. انسـحبا، ولم ينطقـا، إلا بكلمـة العـوض بسـلامتكم.. اللـه يرحمـه. خرجـا وركبـا في سـيارة أقلّتهـما، وكان بداخلهـا قريـبٌ لهـما، في ثيـاب النـوم، وجـاء مَـن قـال، إنـه كان مسـلّحاً، لنـصرة الخـوري، إذا حصـل مـا يُشـين.. لم يتبـيّن أبنـاء جـمال الأمـر، ولا سـألوا عـن مـدى صحتـه، لسـخافته، وإن كان غـير مسـتبعَد.

عـرف أمـين، مـن مصـدر صـادق، أن المطـران قـرّع الخـوري، بكلـمات قاسـية، لتصرّفـه عـلى هـذا النحـو الأرعـن، مـع أهـل

المتـوفى. وطلـب منـه التوجّـه إلى دار العـزاء، للاعتـذار عـمّا بـدر منـه.. مـا عرفـه أبنـاء جـمال، أن الخـوري قـام بواجـب العـزاء.. ولم يتفـوّه، إلا بكلـمات معـدودات، يقولهـا كلّ النـاس.. أمـا غـير ذلـك، فلـم ينطـق بحـرف.

كان أمـين عـلى يقـين تـام، أنّ مـا انكـسر، لا يمكـن إصلاحـه. ولا يفيـد الاعتـذار شـيئاً.. مـا حصـل قـد حصـل.. ولا مناسـبة جديـدة، لمـوت مَـن مـات، لإقامـة الصـلاة.. واعتـبر أن لا إمكانيـة للعـودة، إلى مـا قبـل. وأواصر العلاقـة، قرابيـةً كانـت، أو اجتماعيـة، أو دينيـة، انقطعـت. وكان أول مـا قـام بـه في هـذا الاتجـاه، إزالـة صـورة الخـوري الكبـيرة، ذات الاطـار المذهـب، مـن مكانهـا، في منـزل أبيـه، وإيداعهـا سـطح خزانـة عتيقـة. وأبقـى مكانهـا فارغـاً، إلى أن يضـع صـورة أبيـه، في صـدر بيتـه.

أحـسّ أمـين، بأنـه فعـل شـيئاً، حسِـب أن فيـه القليـل، مـن ردّ الاعتبـار لأبيـه.. وردّاً عـلى مـا فعلـه الخـوري، وإن كان بهـذا الـوزن الخفيـف.. فعـلٌ مسـحَ شـيئاً مـن الغيـظ.. عـلى أن تلحقـه أفعـال، تُظهـر مـدى البُعـد الـذي أقامـه تـصرّفٌ أرعـن.

في الأسـبوع التـالي، موعـد قـدوم أمـين إلى الضيعـة، وصـل إلى منـزل والـده، ودخـل غرفـة النـوم، ليجـد صـورة الخـوري، معلّقـة عـلى الجـدران.. طـار عقلـه، وفقـد رشـده، وأصابتـه هسـتيريا، لم يعـرف كيـف جاءتـه، ولم يعهدهـا مـن قبـل.. كانـت أختـه المتزوجـة، القادمـة مـن مـكان بعيـد، بجانبـه.. حاولـت تهدئتـه.. زاد غضبـه.. انتشـل الصـورة عـن الحائـط، وخبطهـا بـالأرض، فراحـت شـقفاً، ودفعهـا بقدمـه خارجـاً، وإذا

بأمـه تدخـل، لـتراه عـلى هـذه الحـال.

- من علّق الصورة هنا..؟

- أنا يا أمّي.. أنا. على مهلك روق..

- هـل هـذا ردّ الجميـل، عـلى مـا فعلـه ابـن أخيـك، بزوجك..؟ ألم تنـسي انتـماءك العائـلي، وحسّـك القبَـلي، بعـد سـتين سـنة مـن انتمائـك لزوجـك.. عليـك أن تذهبـي الآن إليهـم.. لا مـكان لـك في هـذا البيـت، بعـد اليـوم.. إذهبـي..

كان أمـين يـصرخ، في جنـون مطبـق.. حـاول دفـع أمّـه بالقـوة، لتخـرج مـن الغرفـة.. لم يصـحُ، إلا عـلى صراخ أختـه، وعويلهـا، وهـي تعمـل عـلى تخليـص أمّهـا، مـن بـين يديـه..

رجـع إليـه وعيُـه.. توقّـف.. نظـر إلى حالـه أولاً، ثـم إلى أختـه، فألفاهـا عـلى منظـر مرعـب.. ثـم نظـر إلى أمّـه، ولا تـزال نظـرات الغضـب مسـيطرة عليـه.. لم يكـن وجههـا، ذلـك الوجـه الـذي عرفـه منـذ أربعـين سـنة.. لـوح زجاجـي جامـد، عينـان ثابتتـان، تتطلعـان في فـراغ، لـونٌ أصفـر، يُفصـح عـن خلجـات خافتـة.. ارتجـاف في اليديـن والرِجلـين أحـسّ بـه، وهـو لا يـزال ممسـكاً بيدهـا وظهرهـا، ليدفعهـا إلى الخـارج..

ارتعـب أمـين، مـن الحـال التـي كان عليهـا.. وأحـسّ بفداحـة مـا قـام بـه. تـرك أمّـه وأختـه، وبعـض الذيـن أتـوا بعـد الـصراخ، دون أن يتبيّنهـم.. غـادر المنـزل إلى بيـت عمـه، أهـل زوجتـه، وهـو عـلى هـذه الحـال.. سـألته زوجتـه عـما بـه.. لم يـردّ..

سـألته مـرة ثانيـة، وثالثـة، إلى أن انفجـر غاضبـاً مـن جديـد، دون أي كلام بائـن. صمتـت، لتعـرف، مـن بعـد، مـا حصـل. لم تسـأله مـن جديـد، إلّا بعـد أن عـاد إلى الضيعـة، في الأسـبوع الـذي تـلا.. صعـد مبـاشرة إلى بيـت أهلـه، دون أن يتوقّـف، ناحيـة بيـت العـم.. لم تسـأله زوجتـه.. ولا الأولاد. توقّـف.. غـادر السـيارة عـلى عجـل، ودخـل باحـة البيـت، لـيرى أمّـه، وقـد نهضـت لتدخـل إلى غرفتهـا، بعـد أن رأتـه.. اتّجـه صوبهـا ليسـلّم عليهـا.. برَمَـت وجههـا، ولم تتطلّـع إليـه.. لم يكـن وجـهَ أمـه ولا عينيهـا.. نظـرة غريبـة، ظهـرت ملامحهـا في المواجهـة التـي مضـت.. ولكنهـا في هـذه اللحظـات، كانـت أكـثر صرامـة، وأكـثر إصراراً عـلى عـدم المسـامحة.. لم يتوقّـف عـن المحاولـة، ولا توقّفـت عـن الاصرار.. وجـد نفسـه، ينبطـح عـلى الأرض، ويشـبع قدميهـا قُبـلاً وتمرّغـاً للوجـه، إلى أن أنهضتـه.. وهـي تبـكي.

– طلعـت أنـا غريبـة بعـد هالعمـر؟؟ وبعـد هالتربيـة..؟ بـس لإني علّقـت صـورة ابـن أخـي..؟ ابـن أخي شـو بعمـل.. بنكرو..؟

لم يـردّ عليهـا، وهـو يـدرك أن مـا يفكّـر فيـه، غـير مـا تفكـر فيـه أمّه، وما يدخل في أذهان.. إخوته.

– مـا بـدي شي منـك يـا أمـي، إلا إنـك تسـامحيني.. حسـاب ابـن خـالي وحـده..

لم يهـدأ بـال أمـين، إلا عندمـا قبّلـت أمـه وجهـه، فانحنـى عـلى يديهـا، يشـبعهما تقبيـلاً. حـاول أن ينـسى، لم يلـقَ الطريـق

إلى ذلـك، وصـورة أبيـه لم تفـارق مخيّلتـه.. وكان عـلى تسـاؤل دائـم، هـل مـا يشـعر بـه، ناشـئ عـن محبتـه لأبيـه، أو ثمـة شيء آخـر اختلـط؟؟ هـل هـو اسـتهتار بـزوج العمّـة وأبنائهـا..؟ أم نـاشىء عـن رغبـة جامحـة، في بنـاء سـلطة دينيـة، يهـوّل فيهـا عـلى الآخريـن، متوسّـلاً الأقـارب قبـل الغربـاء..؟ هـل تختلـف وسـائل بنـاء السـلطة الدينيـة، عـن وسـائلها لـدى أهـل السياسـة، للـبروز وإعـلاء الشـأن، وتكويـن ذلـك الرأسـمال الرمـزي الـذي يعطـي للمتوسّـل، مـا يصبـو إليـه ليتقـدّم عـلى أقرانـه، أو للطامحـين، ليتيـح لهـم لُعـبَ دورٍ، يقدّمهـم عـلى سـواهم؟؟

أسـئلة شـغلت بـال أمـين، دون أن تصـل إلى أذهـان الآخريـن، مـن إخوتـه.. وقـد أدرك أن شـاغل أيّ منصـب، مـن مناصـب الشـأن العـام، يعمـل عـلى إعـلاء مقامـه بـين النـاس، ليكـون منظـوراً ومعتَـبَراً. والوسـائل عديـدة، ومتفاوتـه في التأثـير، يتداخـل فيهـا مـا هـو أخلاقـي وإنسـاني، مـع مـا هـو منـافٍ للقيـم والأخـلاق للوصـول، كـما الطريقـة المكيافلليـة..

هـذه التسـاؤلات، حـدَت بأمـين أن يعمـل، عـلى غـير مـا يرمـي إليـه قريبـه الخـوري، عـلى الأقـل في مـا خـصّ ظـروف دفـن والـده، وموقفـه منهـا.. أمـا مـا عـدا ذلـك، فـلا شـأن لـه بـه.. ليفعـل الخـوري مـا يشـاء، لترسـيخ سـلطته، وإعـلاء مقامـه، عـلى أن لا يكـون عـلى حسـاب، وكرامـة، الآخريـن. في هـذه الحالـة، مشـاهدات النـاس، وآراؤهـم في النظـر والسـلوك، هـي صاحبـة القـول الفصـل.

كان لا بـدّ، مـن إقامـة الطقـوس والشـعائر المرافقـة للمـوت، ولِـما بعـده.. كانـت أولى تلـك الطقـوس، زيـارة المتـوفّى في قـبره.. عـلى أهلـه وأقاربـه، زيارتـه عـلى ثلاثـة أيـام متواليـة عنـد الفجـر.. أول مـا لفـت أمـين، وإخوتـه، في زيـارة اليـوم الأول، نـزول الخـوري مـن المقـبرة، قبـل وصـول الزائريـن إليهـا.. ليدلّـل، عـلى الأقـل أمـام الجمـوع، عـن مـدى قربـه منهـم، ومحبّتـه للمتـوفى. فهـم أمـين الرسـالة.. خـذوا حبًّـا قـدر مـا تشـاؤون، واتركـوا السـلطة، لأهلهـا.. لم تخفّـف الزيـارة، مـن حنقـه وغضبـه.. أمـا إخوتـه، فقـد تأثّـروا بالمشـهد، وإن كان دون كلام.

ظهـر ذلـك، في التلميـح الـذي أبـداه يوسـف، البكـر، بإقامـة صـلاة الأسـبوع في الضيعـة، وبرعايـة الخـوري.. قوبـل بالرفـض المطلـق، قبـل أن يصـل أمـين إلى الضيعـة.. ولم يفاتحـه أحـد بالأمـر.. وباقـتراب ذكـرى الأربعـين، قـرّر أمـين بحـث الموضـوع مـع إخوتـه، لإقامتـه في المدينـة، بعـد دعـوة أقاربـه للمشـاركة، ولا حـرَج عـلى المتغيّـب..

وجـد أمـين صعوبـة فائقـة في إقنـاع أخيـه الأكـبر، وكأنـه يطلـب منـه، مـا لا طاقـة لـه عـلى تحمّلـه.. تدخّـل الجميـع لاقناعـه بذلـك، عـلى الأقـل، ليكـون وقفـة احتجـاج لمـا فعلـه الخـوري، بوالدهـم.. لم يقبـل بالأمـر، إلا بعـد أن قـرّر أمـين تحديـد موعـد إقامـة صـلاة الأربعـين في المدينـة، ومـن شـاء الحضـور فليحضر.. وهكـذا كان.

شـارك أبنـاء جـمال وأقاربـه وجمـعٌ مـن الضيعـة صـلاة الأربعين

في المدينـة. وكانـت مناسـبة لتوزيـع مـا تيـسّر عـن روح الأب لمـن يسـتحقّها في الضيعـة، بـدل ضيـاع التبرعـات التـي حُجبـت عـن الكنيسـة، والنـادي معـاً.

لم يعـرف الخـوري، وإخـوة أمـين، كيفيـة تجـاوز هـذه المسـألة.. وكان ثمـة ضغـط لتقريـب مـا ابتعـد.. وتمخّـض الأمـر، بعـد جهـود مضنيـة، عـن دعـوة الخـوري أبنـاء عمّتـه للغـداء في منزلـه.. لبّـى الإخـوة الدعـوة.. عـدا أمـين. اعتـذر ولم يحـضر.. كانـت الدعـوة بمثابـة اعتـذار عـما حصـل.. ولكـن بـدون أي كلمـة تـدلّ عـلى أي اعتـذار، ومـن أي نـوع كان.. محاولـة لتثبيـت أقـدام السـلطة، عـلى أشـلاء مـا حصـل، في المـاضي.. وقـد نجَحَـت..

لم يحقـد أمـين.. سـامح ودفـن خصومتـه.. ولكنـه لم ينـسَ.. ولـن. صرّح بذلـك أمـام نقـولا، قريبـه المشـترك مـع الخـوري.. وعندمـا طلـب منـه هـذا، مرافقتـه لتنـاول القهـوة، لـدى الخـوري، للتدليـل عـلى دفـن الخصومـة.. لم يرفـض، لأنـه فعـلاً فضّهـا.. رافقـه، وتنـاول القهـوة، وعـاد.. أمـا نسـيان الأمـر، فلـم يحصـل.. وهـا هـو يظهـر هنـا بعـد ثلاثـين مـن السـنين.

بقيـت محبّـة التـي ذاقـت الحلـو، والمـر، مـع زوجهـا وأولادهـا. أحسّـت بالوحـدة المخيفـة، بعـد ذهـاب الحبيـب، والـزوج، وأبي الأولاد.. حاولـت التكيّـف مـع الوضـع الجديـد.. وأحسـت بعلـوّ منسـوب الاهتـمام، والرعايـة، مـن الأبنـاء.. بـدأت بالتنقّـل بـين بيتهـا في الضيعـة، مسـكن ابنهـا الصغـير، وبيتَـي ابنيهـا في المدينـة.. كان يحـسّ أمـين، بعـدم قدرتهـا عـلى الاسـتقرار..

فتتنقّل من بيت إلى بيت، ومن المدينة إلى الضيعة.. خافت أن تنام في العتمة.. فكان القنديل، وقت انقطاع الكهرباء.. السكّري منعها من تناول وجبات كاملة.. تجهَد في تناول الطعام بقليل من الخبز، أو بدونه.. كانت نسمة، زوجة أمين، تحرص على حميتها. أما كريم، أخوه، فكان يعبّر عن محبّته لأمه، بتقديم ما لذّ وطاب، من المأكولات والحلويات. فتحسّ بعد تناولها، بما يعكّر صفو بالها.. فتشكو وتتألم، لتفصح عما يجول في بطنها.. نار مشتعلة تنير القلب وتحرقه.. يحاول التفلت ويفشل. وفي زيارة للطبيب، أبلغ أمين بعد المعاينة والتدقيق، بأن الوالدة تعاني من تضخّم في القلب، والصمّام على أهبة التلف، ولا يمكن فعل شيء، إلا بإراحة القلب، والتخفيف ما أمكن، من الضغط عليه. والطعام، في هذه الحالة، خطر عليه، في نوعه وكميّته.

كان على محبّة أن ترتاح.. بقيت في الضيعة فترة، لتتخلص من صعود السلالم في المدينة. وشجّعها نسيم للبقاء في الضيعة، بعد زيارته، قادماً من أستراليا.

لم يمضِ كثير وقت على هذه الحال، إلا ودقّ حفيدها الباب، قبل منتصف ليلِ يومٍ من أيام شباط، ليقول إن جدته في المستشفى.. خبرٌ لا يمكن أن يكون عن مرض.. تماماً، كما حصل مع جمال..

لم يعرف أمين، كيف ارتدى ملابسه.. وبسرعة، وصل إلى المستشفى القريبة، وإذا بأمّه مسجّاة على محمل في مدخل الطوارئ، مع البكاء والنحيب، من المتحلّقين حولها.

ماتـت محبّـة، في حضـن ابنهـا نسـيم، في طريقه إلى المستشـفى.. ولم يحـظ أمـين، بشـوفَة منهـا. ولم يعـرف مـا عليـه فعلـه.. دوخـة اسـتبدّت بـه، وكاد يقـع عـلى الأرض، لـولا وجـود مَـن سـندَ وأوقـف. لم يحـظَ بالوقـت الـذي حظـي بـه، مـع أبيـه، ليعـرف كـم مـن الممكـن، أن تكـون محبّتـه لأمّـه.. لم يختـبره الزمـن ليعـرف، ولا سـمح لـه المـوت، لـيرى أمّـه، قبـل أن ترحـل.

في هـذه اللحظـة، تذكّـر مـا كان عليـه، لمّـا دفـع أمّـه لتذهـب إلى أهلهـا، وهـي تعـاني مـن قصـور في عضـلات القلـب.. مـاذا لـو ماتـت بـين يديـه، في تلـك اللحظـة..؟ مـا كان بمقـدوره أن يفعـل.. وكيـف كان عليـه، أن يتخلّـص مـن نتائـج تلـك الفعلـة النكـراء..؟

هنـا، جـاء البـكاء مـدراراً، وهـو يجلـس عـلى أرض الرصيـف.. دمـوع وحشرجـات، كـما حصلـت يـوم مـوت أبيـه، هـو وحـده يـدرك مـا يحصـل معـه، في تلـك اللحظـات.. أمـا الباقـون فكانـوا يظنّـون أنـه مجـرّد بـكاء، عـلى أمّ رحلـت. كان ذلـك في 17 شـباط/ فبرايـر 1995، ذكـرى مولـد أمـين.

هكـذا عـاش جـمال حياتـه، مـع محبّـة، ورحـلا في فاصـل زمنـي، لا يتعـدّى السـنوات الأربـع.. وهكـذا عـاش جرجـي مـع سـما، ورحـلا.. في فاصـل، لا يتعـدّى بضـع سـنوات.. وبقـي مَـن اسـتأنف مسـيرة حياتـه، مـن الأبنـاء والأحفـاد وأبنـاء الأحفـاد.. أجيـال تلحـق بعضهـا بعضـاً.. السـلف يسـتمر بالخلـف، عـلى مَـرّ الأيـام والسـنين، وتسـتمرّ أسـماء الجـدود في الأحفـاد، للتدليـل عـلى أن الحيـاة باقيـة، وإن تبدّلـت الأجسـاد..

حمل كلٌّ منهم نفسه، ورحل..

بقـي عـلى الأسرتـين، أن تسـتأنفا حياتهـما، بعـد ذهـاب المؤسّسـين.. عملـت كل منهـما، عـلى اسـتئناف مسـيرة الحيـاة، في العمـل، والـزواج، واسـتقبال الأبنـاء والأحفـاد.. وأكـثر مـا كان يهنـأ بـه الأحفـاد، الـكلام عـلى مسـيرة الأجـداد والجـدّات، وعـمّا فعلـوا في هـذه الدنيـا، ومـا عملـوا لتربيـة أبنائهـم، في عـزّ الفقـر والمحـن. فقـط، ليقارنـوا بـين مـا عاشـوه، ومـا يعيشـونه.. وأكـثر مـا كان يشـغلهم، التسـاؤل عـن كيفيّـة عيـش الابـن، بعيـداً عـن أبيـه، طيلـة هـذه السـنين، ولا يتسـنّى لأحدهـما رؤيـة الآخـر، والتعـرّف عليـه، في عـصرٍ قـصّر المسـافات بـين البلـدان، وجعـل مـن السـفر أمـراً هيّنـاً، يسـهّل لقـاء الأهـل، ويعمـل عـلى التقريـب بـين مَـن ابتعـدوا..

ولا يـزال أمـين، يذكـر قـوّة الإصرار الـذي أبـداه الأحفـاد وأبنـاء الأحفـاد، ليسـافر الابـن للقـاء أبيـه، للمـرة الثانيـة، قبـل لقـاء وجـه ربـه.. وليسـافر الحفيـد للتعـرّف عـلى أعمامـه وأبنائهـم.. بعـد تواصُـل اسـتمر شـهوراً.. لا أحـد ذهـب، ولا أحـد جـاء، قادمـاً مـن البرازيـل.. أقـارب وأحبـاب عـن بُعـد، كـما تفعلـه وسـائل التواصـل الحديثـة، وترسّـخه..

كان أرقّ مـا سـمعه أمـين، مـن جـمال الحفيـد، أن سـأله يومـاً، وهـو في عـزّ الحديـث عـن جـده.. قـل لي، يـا عمّـي.. ألا تذكـر قـولاً، مـن أقـوال جـدي، يمكـن أن أرثـه، وأعمـل بـه..؟

- بـلى يـا جـمال.. بـلا.. أعـرف الكثـير.. ولكـن، خـذ هـذا

القـول، وضعـه حلقـة في أذنـك. «إثبـت عـلى مـا تقـول.. وإذا بـانَ أنـك أخطـأت.. إعتـذر ولا تخـف».. أمـا القـول الثـاني الـذي يمكـن أن يفيـدك أكـثر.. «لا تهاجـر.. حتـى لـو أكلـتَ تـرابَ الأرض».. إحفظهـما جيـداً.

أدمعت عينا جمال الحفيد.. وبقي صامتاً.

عـاش الأبنـاء، ومارسـوا حياتهـم، بنجـاح يُفـرح قلـب جـمال ومحبّـة، وسـما وجرجـي في عليائهـم.. منهـم مـن لقـي وجـه ربـه، وهـم مطمئنـون عـلى مسـيرة أبنائهـم، وأحفادهـم، ومنهم مـن ينتظـر لقـاء الجميـع، في حيـاة ثانيـة، يدعـو الإيمـان إلى تبنّيهـا، والسـكون إليهـا..

أمـا مـا فعلـه الأبنـاء والأحفـاد، وفـاءً لمـن رحلـوا، فهـو زيـارة الكثيريـن منهـم، إلى مراقدهـم، في يـوم الأمّ، ويـوم الأب، ليضعـوا باقـات مـن الزهـور، مـع التأمـل والصـلاة..

لقـد عـرف أمـين، كـما إخوتـه وأبناؤهـم، أنّ الدنيـا تبقـى ناقصـة، في غيـاب الأمّ والأب.. وتبقـى مـلآى بالحـبّ والحنـوّ، في وجودهـما..

ولكـن، عـلى الحيـاة أن تسـتمر، ولا رادّ لقضـاء اللـه.. ومـا عليهـم، إلا الـرضى والتسـليم.

لقد رحلوا.. ولكنهم باقون..